محمد الرميحى



الناشر: مدبولي الصغير

عصـــر التطرف

عصـــر التطرف

د . محمد الرميحي

- دكتوراه في العلوم الاجتماعية من جامعة درهام بانجلترا عام ١٩٧٣
- مؤسس ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية في الفترة من عام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨
- استاذ في قسم الاجتماع بجامعة الكويت في الفترة من ١٩٧٥ ـ ١٩٨٢
- رئيس تحرير مجلة العربي منذ عام ١٩٨٢

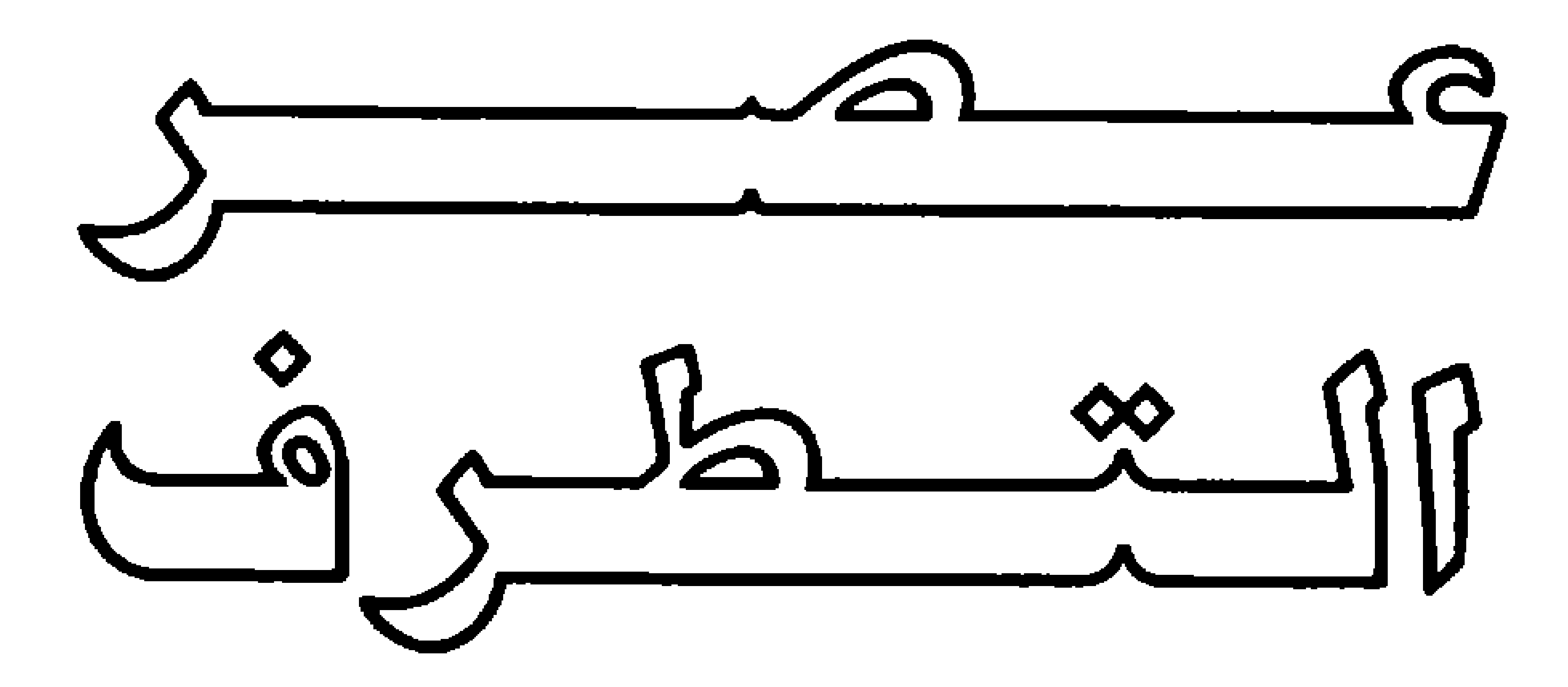
من الجوائز التي حصل عليها :

- الجائزة التقديرية لمؤسسة الكويت للتقدم العلمي في العلوم الاجتماعية والاقتصادية عام ١٩٨٠
- جائزة ابن سينا (جائزة الابداع الثقافي الدولي) موسكو عام ١٩٩٠
- جائزة العويس في العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٦

من اهم الكتب التي اصدرها :

- الكويت قبل النفط – دار حوار عام ١٩٧٥
- البترول والتغيير الاجتماعي – دار الجديد الطبعة الرابعة عام ١٩٩٥
- معوقات التنمية الاقتصادية والاجتماعية في بلدان الخليج – دار الجديد الطبعة الثالثة بيروت عام ١٩٩٥
- البحرين مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي – دار الجديد الطبعة الرابعة عام ١٩٩٥
- العرب في عالم متغير . الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام عام ١٩٩١
- ازالة الحواجز – الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام ١٩٩١
- هموم البيت العربي . الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام ١٩٩١
- الجذور الاجتماعية للديموقراطية في مجتمعات الخليج العربي – دار الجديد بيروت . الطبعة الرابعة عام ١٩٩٥
- أصداء حرب الكويت ردود الفعل العربية . الناشر دار الساقي عام ١٩٩٤ – لندن .
- الكويت .. كلمات في زمن النكبة : الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام عام ١٩٩١

محمد الرميحى



الديمقراطية - التجاهل - القمع

الناشر : مدبولى الصغير

مقدمة الكتاب

عصرنا هو عصر الديمقراطية، وبرغم غموض هذا المفهوم، وتعدد أشكال الممارسة، والاختلاف البائن فى التطبيق، فإن هناك حدا أدنى متفقا عليه بين المهتمين هو أن تكون هناك مؤسسات مختلفة فى المجتمع المدنى تقوم هذه المؤسسات بالحفاظ على الحد الأدنى من تمكين المواطنين من انتخاب ممثليهم بشكل حر لا تدخل فيه، وأن تقوم هذه المؤسسات بالحفاظ على المصالح العامة، وأن يكون أولئك المنتخبون معرضين للمساءلة وإعادة التقييم فى فترات زمنية محددة سلفا.

إن الديمقراطية تعنى أيضا الإيمان بأن المواطنين العاديين لديهم قدرات غير عادية للحفاظ على مصالحهم أى أن الديمقراطية لا وصاية فيها لأحد على أحد، وأن الحقيقة المطلقة لاوجود لها ولايملكها أحد من الناس، الحقيقة النسبية هى فقط الممكنة ويمكن الوصول إليها عن

طريق المناقشة، والإقناع.

الديمقراطية أيضا تؤمن بأن الإنسان العادى - إن أتيحت له ظروف حسنة - يسعى بطبعه إلى الخير ويبتعد عن الشر، لذلك فإن رأى الجماعة هو أرشد بكثير من رأى الفرد، إن تحققت لهذه الجماعة الضمانات الكاملة، من بعد عن القهر أو الابتزاز أو التشهير أو الحرمان المادى والمعنوى.

الديمقراطية معطلة فى عالمنا الثالث، بعضنا أخذ بها وخفف كثيرا من آلياتها قبل أن يطبق بعضاً منها، وبعضنا اكتفى بإظهار تلك الآليات ونقدها دون الاقتراب منها، وهى فى الحقيقة سهلة وممتنعة فى آن، سهلة أن نتحدث عنها وسهلة أن نطالب بها ولكنها ممتنعة عندالتطبيق، خاصة عندما تطبق علينا. كم من السياسيين فى العالم الثالث طالبوا بالديمقراطية لسنين طويلة،

ولكنهم عندما أتيحت لهم الفرصة واعتلوا قمة السلطة غضوا الطرف عنها واعتبروها إما أحد الأنظمة الدخيلة علينا أو أن شعوبنا لم تزل بعد غير مهيأة لممارستها، تجربتنا العربية فيما بين الحربين تدلل على ذلك بأكثر من دليل، فقد كانت العراق مثلاً بلداً ديمقراطياً بشكل نسبى قبل انقلاب ١٩٥٨، وكذلك كانت مصر قبل سنة ١٩٥٢ بها شيء من الممارسة الديمقراطية، كل ذلك قد اختلف وقدمت الأسباب الحقيقية أو المتخيلة وقبلها بعضنا عن قناعة، ويعيد بعضنا الآن تقييمه لها من جديد.

مازال البعض منا يعتقد أن الديمقراطية معطلة للتنمية، ولكنه لم يأت بخيار آخر، حتى لو كانت الممارسة سلبية، ويقول بعض كتابنا إن (الثقافة العربية) لاتقبل الممارسة الديمقراطية بمعناها الغربى، ولا أعتقد أن الثقافة لها ذلك التأثير إن اتفقنا أن الثقافة كحالة هي حالة مكتسبة ومتغيرة أيضا، فإن كان مجتمع كالمجتمع الهندى -على اختلاف ملله ونحله ولغاته وثقافاته - قد استطاع أن يحقق استقراره بديمقراطية فلماذا لانفعل نحن ذلك؟

وهناك شعوب وثقافات عديدة قامت بذلك. الديمقراطية هى الإيمان بالمساواة بين أفراد المجتمع بصرف النظر عن أعمارهم أو أديانهم أو مراكزهم الاجتماعية والسياسية، وفى ذلك قول قد يقبله البعض نظرياً ويرفضونه فى الممارسة لأسباب مصلحية خاصة بذواتهم.

الديمقراطية بمفهومها السلبى هى المناقضة للقمع، ومناقضة للمعتقلات السياسية فالأصل هنا ألا يحتكر أحد الحقيقة السياسية فى المجتمع المتحضر، والقانونى، فالحقيقة يصل إليها الإنسان فى حوار له مع أخيه الإنسان المواطن، وقولى الإنسان هنا يجمع بين الرجل والمرأة، المؤمن وغيره مادام مواطناً شريفاً وإن دان بمذهب آخر.

إن ضعف الممارسة الديمقراطية فى عصرنا عصر ثورة المعلومات وثورة الاتصالات، لايتجاهل فقط المواطنين وحقوقهم المشروعة، بل إنه يولِّد لامحالة التطرف والعنف ويشعل الحروب بكل أنواعها أهلية هى أم إقليمية وحتى دولية، وفى ذلك دفع لثمن إنسانى أغلى بكثير من الثمن

الذى يمكن أن يدفع للديمقراطية والقبول بالرأى الآخر ومناقشته والتفكير به واحترامه.

ولكى نقضى على ضعف الممارسة الديمقراطية، فإن علينا أن ندرك أن الديمقراطية ليست مجرد فكرة يمكن أن نتعلم فوائدها ومعناها وجدواها على مقاعد الدراسة بل إن الديمقراطية فى نهاية الأمر سلوك، ومن هنا، وحرصاً على أن نتجنب ضعف الممارسة عند التطبيق فإنه يجب علينا أن نبدأ بتعلمها من البداية من البيت، من تربية أطفالنا، فلا نمارس القهر فى تربيتهم، بل يجب أن نلتزم بأسلوب الإقناع فى الحوار معهم، ويجب أن نمنحهم الفرصة كاملة للتعبير عن أنفسهم، وأن يتأكدوا من أن وجهة نظرهم - مهما شابها من نقص فى المعلومات أو فى الخبرة ـ تلقى احترام الكبار وتقبلهم، ولأن هذا الاحترام والقبول هو الذى سوف يدفع الصغار لإدراك قيمة المعرفة والعلم والخبرة، فيسعوا جاهدين للتزود بها لأن هذاالتزود هو الذى يضمن لوجهة نظرهم أن تجد فرصتها الحقة للتحقيق والاعتراف!

ويتصل بهذا المعنى أن يصبح حق المعرفة والتعلم جزءا من حقوق الإنسان ومن مقومات الديمقراطية وحقوقها، وإذا كنا سوف نبدأ بتعليم الديمقراطية فى البيت فإنه يجب أن نواصل ممارستها فى كل مكان وفى كل موقف، فى الشارع فى احترامنا لنظم المرور، وفى الأسواق فى مراعاتنا لحقوق البيع والشراء والأمانة، وفى المصالح الحكومية فى تقديرنا لقيمة الوقت والنظام والدور.

وفى هذا الكتاب محاولة جادة لمناقشة العناصر الثلاثة الداخلة فى عنوان هذا الكتاب، وهى الديمقراطية والتجاهل والقمع، مناقشة من زوايا مختلفة، ولكنها جميعا تثير سؤالا واحدا ضروريا ومهماً هو : هل نتسامح مع الغير أم لانتسامح؟

وإلي أى طريق يمكن أن يقودنا التسامح والرغبة فى فهم الآخر وتقبل الحوار معه؟ وإلى أى طريق يمكن أن يقودنا التعصب؟

أ.د محمد الرميحى

الكويت - أغسطس ١٩٩٦

١

الديمقراطية.. آلية الرقابة والتوازن

لم يكن يخطر فى بال الرئيس الأمـريكى إبراهام لينكولن عندما قال: «إن الديمقراطية الحقة هى الديمقراطية القادرة على الدخـــول إلى كل بيت »، لم يكن يخطر فى باله أن الفضيحة ستكون إحدى وسائل هذه الديمقراطية الحقة فى الدخول إلى كل بيت، ولكن هذا ما حدث فعلا عندما قرر الممثل الأمريكى وودى ألن تفجير قنبلته بالإعلان عن زواجه من ابنة زوجته بالتبنى سوون يى، فالتقط الحزب الجمهورى الفضيحة وأعلن على لسان نائب الرئيس دان كويل، والنائب الجمهورى نيوت جينجر ريدش «أن وودى ألن هو نموذج القيم العائلية التى يبشر بها المرشح الديمقراطى بيل كلينتون» ودخلت الفضيحة إلى كل بيت وانقسمت الولايات المتحدة حولها إلى معارض للممثل الأمريكى يحسب للجمهوريين، ومؤيد لفعلته يحسب على الديمقراطيين... وشبيه بهذا ما حدث فى بريطانيا، عندما نشرت صحف التابلويد صورا للأميرة سارة فيرغسون الزوجة المنفصلة عن الأمير أندور ابن الملكة اليزابيث الثانية ملكة بريطانيا، وظهرت الأميرة مع من زعمت الصحف أنه حبيبها شبه عارية. وانقسمت بريطانيا إلى معسكرين: المحافظين الذين يصبون اللعنات على رأس الأميرة التى لا تحترم التاج البريطانى ولا تستحق الانتماء إلى الأسرة الملكية، واالليبراليين الذين يبحون حناجرهم دفاعا

عن حق الإنسان فى تقرير مصيره واختيار حياته الشخصية.

وكما أن الجريمة هى أعلى مراحل المرض الاجتماعى فإن الفضيحة هى أبرز مظاهر الحروب الاجتماعية، وهى حروب تدور فى الأساس على جبهة الثقافة بمعناها الاجتماعى الشامل، وتكتسب فى لحظات من التاريخ وجها سياسيا.

ومع أن الديمقراطية تكاد ترتبط فى أذهاننا بالمعارك السياسية والانتخابية فحسب، إلا أنها فى الواقع وفى الأساس هى وسيلة الصراع بين عالمين لكل منهما ثقافته وقيمه الممتدة إلى داخل كل بيت والتى تحاول التعبير عن نفسها عبر رموز سياسية. ولعل متابعتنا للانتخابات الرئاسية الأمريكية لا تساعدنا فقط على فهم ذلك المجتمع، الذى يكاد يتحول إلى قطب وحيد في تحديد مسيرة المستقبل، بل وتجعلنا أقرب إلى المصالحة مع الديمقراطية كسلطة ومجتمعات وأفراد، وأكثر قدرة على اختيار وبناء المؤسسات التى تساعد على تطوير هذا الصراع، وهو يقوم داخل كل مجتمع، عبر الحوار الصحى، وبعيداً عن العسف والعنف، وهنا يطرح السؤال الذى نحن بصدده عن الديمقراطية اليوم والعالم يراقب الصراع الديمقراطى فى الانتخابات الأمريكية التى سوف تحسم فى الشهر المقبل خاصة بعد أن أصبحت وسائل الاتصال فى عالمنا الصغير تتابع هذا الحدث.

من مكارثى إلى الهيبى

يرد المؤلف الأمريكى «نيل غابلر» احتدام الحرب الثقافية فى أمريكا إلى مطلع العشرينيات، وينقل عن الباحثة ديللا كاثر عبارتها التى باتت شائعة: «فى تلك المرحلة انقسم العالم إلى اثنين: العالم القديم بدفئه وأمانه، والعالم الجديد بطموحه وعنفوانه». العالم القديم هو عالم المدن الصغيرة، والمجتمع الزراعى، والتجار، عالم الأمريكى الأبيض المولود فى أمريكا، وهو عالم الأنجلو ـ ساكسون، ويقابله عالم ينمو يوماً بعد يوم، يتحول إلى مجتمع صناعى ويعتمد على المهاجرين والأقليات والمدن الكبيرة وأبرزها نيويورك، ولم تقع هذه المواجهة بين يوم وليلة، ولكن انتشار الصحف والإذاعات عجل بظهورها، وبات المجتمع أكثر وعياً بها حيث انقسم إلى ما يسمى أنصار الثقافة الشعبية وأنصار «النخبة».العالم القديم كان عالم النخبة والجديد كان عالم الثقافة الشعبية، الأول كان يدمن الموسيقى الكلاسيكية والثانى يرقص على موسيقى الجاز ويقرأ روايات د. هـ لورنس «الفاضحة» ويستمد ثقافته اليومية من صحف التابلويد ومن السينما. وفى عام ١٩٢٨وهو عام قريب من سنوات الركود العظيم عبرت هذه المواجهة عن نفسها سياسياً، عندما رشح الحزب الديمقراطى آل سميث لينافس الجمهورى هربرت هوفر.

سميث كان يمثل قيم المجتمع الصناعى كلها، فهو حاكم مدينة نيويورك أكبر مدن أمريكا و«رأس العلة»، كما كان يسميها الجمهوريون المحافظون، وكان كاثوليكيا يدخن السيكار، ويعتمر قبعة رياضية، ويستعمل فى حديثه كلمات «بذيئه ».وقد اتفق المرشحان على معظم البرنامج السياسى لإنقاذ الاقتصاد الأمريكى المعلول وقتئذ، ولكن الخلاف فى الشخصيتين كان يعكس هذا الصراع الثقافى داخل المجتمع الأمريكى. ورغم أن هوفر انتصر وفاز بالرئاسة إلا أن الحرب الثقافية استمرت.صحيح أنها خمدت فى فترة الثلاثينيات مع الركود العظيم الذى وحد الجميع خلف البحث عن العمل والرغيف، إلا أنها عادت لتتجدد بحدة مع نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث خرج السناتور جوزيف ماكارثى وهو يرفع راية الجهاد،ضد الحمر فى الداخل، وبدأت حملة مطاردة، واعتقالات طالت كثيرين من الرموز الليبرالية الملحدة - على حد وصفهم فى تلك الأيام - وجاءت الردة فى الستينيات مع موجات الرفض التى مثلها الشباب «الهيبى» وسواهم، وما زالت المواجهة مستمرة فى معركة الرئاسة الحالية، وهو ما عبر عنه المرشح ونائب الرئيس دان كويل، عندما قسم المجتمع إلى «أمريكى يؤمن بالقيم الأمريكية وغير أمريكى هدفه تدمير قيم العائلة»، وشن حملة واسعة على أفلام السينما

ومسلسلات التليفزيون والصحافة الرخيصة التى تفسد القيم الأمريكية.

من ينتخب الرئيس ؟

الصراع الدائر اليوم بين ما يسمى «الصفوة » أو «النخبة » وبين الشعبية أو الأغلبية له تاريخ طويل ويصل بجذوره إلى خريف العام ١٧٨٧، عندما انعقد أول مؤتمر دستورى فى ولاية فيلادلفيا الأمريكية، وكان السؤال الذى حاول الجيل الأول من الدستوريين الإجابة عنه هو: كيف ينتخب الرئيس ؟ ومن هو الرئيس الذى نريده : الرئيس الأكثر كفاءة أم الأكثرشعبية؟ فإذا كان المطلوب هو الرئيس الأكثر كفاءة وأهلية للمنصب، فإن الصفوة هى القادرة على انتخابه، أما إذا كان المطلوب رئيساً أكثر شعبية فإن الشعب عندئذ هو من يقرر . وقد احتدم النقاش، وطرحت سبع وسائل لانتخاب الرئيس، تم اختصارها إلى ثلاث :الأولى سميت بخطة فيرجينيا وتقضى بأن يتولى الكونغرس الأمريكى انتخاب الرئيس، باعتبار أن المواطن العادى عاجز عن اتخاذ قرار عقلانى يحدد مدى كفاءة المرشح، وهذا المواطن يخضع للعواطف والانفعالات الآنية، وكان ذلك بالطبع هو اقتراح النخبة. وقد سقط هذا الاقتراح بعد أن طرح المعارضون مخاوفهم من أن يتحول الرئيس إلى «رهينة» لدى الكونغرس،

وتتحول بالتالى الهيئة التنفيذية إلى تابع للسلطة التشريعية والتنفيذية، وخلافا للديمقراطيات الأخرى فى سويسرا وفرنسا مثلا حيث تخضع السلطة التنفيذية للسلطة التشريعية.

الوسيلة الثانية التى تم اقتراحها هى أن يتم انتخاب الرئيس بالتصويت الشعبى المباشر، باعتبار أن الحكم هو للشعب وبواسطة الشعب. ولكن هذا الاقتراح سقط سقوطاً مدوياً نتيجة عدم ثقة المؤتمرين فى قدرة العامة على التمييز بين مرشح يغرقهم بوعود يؤدى تنفيذها إلى إفلاس الدولة، وآخر يمنحهم وعوداً أقل ولكن أكثر جدية وقابلية للتنفيد..

وبعد أن تم طرح هاتين الوسيلتين ثلاثين مرة على التصويت، دون أن تحقق أى منهما الأغلبية المطلوبة لإقرارها، طرح جيمس ويلسون حلا وسطا بين النخبة والشعبية، ويقضى هذا الحل بأن يتم الانتخاب عبر «الكلية الانتخابية »أو «الحشد الانتخابى » وقد لقى هذا الاقتراح حماسة كبيرة فى صفوف المجتمعين وتم إقراره وتطويره فى مراحل لاحقة.

الكلية الانتخابية بدأت كمشروع فك اشتباك بين أهل الصفوة وأهل الأغلبية، وهى تعتمد على أن تقوم كل ولاية بتسمية عدد من المقترعين لانتخابات الرئاسة مساو للعدد الإجمالى للشيوخ والممثلين لها فى الكونغرس، ويحصل

المرشح الذى يحوز أكبر عدد من الأصوات فى الولاية على جميع أصوات المقترعين فى حين لا يحصل الخاسر على أى منها، ويقوم هؤلاء الفائزون بانتخاب الرئيس، أى أن المواطن الأمريكى لا ينتخب الرئيس مباشرة ولكنه ينتخب من يقوم بانتخاب الرئيس(!). وهذا الانتخاب «بالواسطة» هو اليوم حلقة فحسب فى سلسلة طويلة تلعب فيها المشاركة الشعبية دورا أساسيا وبارزاً، إذ بات انتخاب الرئيس يتم على ثلاث مراحل، فى المرحلة الأولى يقوم المرشح بالإعلان عن رغبته فى خوض معركة الرئاسة وعندئذ تبدأ الانتخابات العامة حيث يتم اختيار مرشح وحيد للرئاسة عن الحزب. وفى الثالثة يختار الناخبون ما يسمى مجازا بالكلية الانتخابية، وهى التى تتولى اختيار الرئيس من بين المرشحين المتنافسين.

حماية المواطن من.. حزبه

يكشف قانون الانتخاب الأمريكى للرئيس عن التغيرات التى تتعرض لها المجتمعات ليس فى أمريكا وحدها، بل وفى باقى دول العالم، وعن تطور «آلية الرقابة والتوازن فى العملية الديمقراطية » نتيجة لهذه التغيرات بحيث لا تخلق الديمقراطية الوحش الذى يفترسها فيما بعد، كما حصل ويحصل فى كثير من الدول. فالحزب الشيوعى الذى تسلم السلطة فى روسيا ١٩١٧ربما كان شعبيا فى تلك المرحلة، ولكن عند

انهياره قبل عامين كان يجسد حكم الصفوة المستفيدة والقادرة على تكريس سلطتها ليس عبر الشعب بالضرورة، بل عبر وسائل القمع. كما أنه فى الانتخابات الجزائرية التى تمت المرحلة الأولى منها قبل إلغائها، خرج أبرز القادة الفائزين بالانتخاب ليبشر الشعب «بأنها آخر انتخابات تجرى فى البلاد لأن فوزنا هو بيعة»(!)، وليس مهما لهذا الفائز أن الناخب ربما أراد تغيير رأيه بعد أربع سنوات،إذا لم تحقق السلطة ما وعدت به، فالفائز يحرق السلم الذى صعد به، كى يمنع الآخرين من الوصول إليه أو الحلول محله.

إن المؤسسين الذين وضعوا الدستور الأمريكى وحددوا وسيلة انتخاب الرئيس لم يكونوا أعضاء فى أحزاب، ولم يكن هناك وجود للأحزاب فى زمنهم، فهم حددوا وسيلة انتخاب الرئيس ولكن لم يضعوا وسيلة ترشيح هذا الرئيس قبل انتخابه. جورج واشنطن كان أول رئيس منتخب من قبل جماعات وكتل، من بعده بدأ الانقسام فى الكونغرس بين «فيدراليين »و«معادين للفيدرالية»وبحلول عام ١٨٧٠ أصبح اختيار «الكلية الانتخابية» يعتمد إلى حد كبير على الانقسام الحزبى. وهذا الانقسام هو ما دفع جورج واشنطن إلى الإحجام عن ترشيح نفسه لولاية ثالثة، وفى تلك الفترة حمل الفيدراليون اسم «الحزب الجمهورى»..وانقسم هذا الحزب

بدوره إلى «جمهوريين وطنيين» و«جمهوريين ديمقراطيين» ثم تكرس هذا الانقسام بإعلان قيام الحزب الديمقراطى فى مواجهة الحزب الجمهورى....وعندما تكرست سلطة هذه الأحزاب على الناخبين تكرست فى الوقت نفسه سلطة قادة هذه الأحزاب على الحزب نفسه، وبات هؤلاء القادة هم الذين يختارون «المرشح» للانتخابات الرئاسية، وصار أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب يجتمعون سراً ثم يعلنون أسماء المرشحين .

وأمام هذا التهديد الذى يضع العملية الديمقراطية فى أيدى النخبة وحدها قامت حركات الإصلاح السياسى بهدف تخفيف سلطة زعماء الأحزاب، وفى عام ١٩٠٦ أصبحت ولاية ويسكونسين هى أول ولاية أمريكية تسن قانوناً ينص على أن يتم اختيار الوفود المشاركة فى الاجتماعات أو المؤتمرات الوطنية التى تختار المرشح للرئاسة عن طريق اقتراع شعبى، وذلك ضمن نوع من الانتخابات يطلق عليه الانتخابات التمهيدية أو الأولية، وسرعان ما تبعتها ولايات أخرى، وأصبح اليوم الطريق للترشيح يمر عبر سلسلة من الانتخابات الأولية تبدأ فى فبراير (شباط) وتنتهى بالقرب من موعد الاجتماع الوطنى للحزب المعنى فى منتصف الصيف.

إن الانتخابات الأولية هدفها حماية المواطن من...حزبه (!).

مواصفات السيد الرئيس

يعاني كثير من الثقافات غالباً من عقدة «الأجنبى» أو «الغريب» وتتفاوت المجتمعات فى تصنيفها لهذا الأجنبى، أما فى أمريكا، حيث يعتبر النظام نفسه قادراً على استيعاب جميع التناقصات والثقافات غير المتجانسة، فإن الدستور الأمريكى يحدد لشخصية الرئيس ثلاث صفات فقط تؤهله لدخول البيت الأبيض فى حال نجاحه بالانتخابات، وهى أن يكون مولوداً فى أمريكا، وعاش فيها مدة لا تقل عن ١٤ سنة، وأنه بلغ الخامسة والثالثين من عمره. وما زال هناك خلاف حول ما إذا كان المولود من أبوين أمريكيين خارج أمريكا يحق له الترشيح للرئاسة أم لا. وباستثناء هذه المواصفات الثلاث فإن سباق الماراثون الرئاسى مفتوح أمام الجميع. ورغم أنه كان من المتعارف عليه أنه يصعب على الزنجى، أو المرأة، أو الكاثوليكى، أو اليهودى أن يحوز على ترشيح حزبه لمنصب الرئيس أو نائب الرئيس، إلا أن نجاح الكاثوليكى جون كيندى فى دخول البيت الأبيض حطم إحدى هذه المسلمات، كما أن ترشيح المرأة الإيطالية الأصل جيرالد فيرارو لمنصب نائب الرئيس، ومثلها جهود المرشح لنيابة الرئيس الأب الزنجى جيسى جاكسون يكسر الكثير من تلك المسلمات. أما عن الأصول العرفية أو القومية فإن المرشح الحاكم ميتشال

دوكاكيس خاض معركة الرئاسة عام ١٩٨٨، وفشل فيها، وهو من أب يونانى مهاجر.

ورافق هذا التطور فى المشروع الديمقراطى تطور آخر حيث تم حصر المدة التى يستطيع أن يحكم الرئيس خلالها بولايتين فقط، مدة كل ولاية ٤ سنوات، وقد تم هذا التعديل بعد أن نجح فرانكلين روزفلت فى أن يحتفظ بمنصب الرئاسة ٤مرات،وهو ما أفزع مجموعة من المحافظين وجدت أن الرئيس يمكن أن يتحول إلى قيصر، وقد أقر هذا التعديل عام ١٩٥١، بينما كان قد أقر تعديل آخر فى عام ١٩٢٠ يسمح للمرأة بالمشاركة فى الانتخابات، بينما كانت ممنوعة قبل ذلك، سواء من الترشيح أو التصويت.

من هذا التحديد الدستورى لمواصفات المرشح نكتشف أن الأصول العرقية أو الدينية أو الجهوية أو العائلية،أو حتى كون المرشح امرأة، لا تلعب دوراً مهماً حيث تطغى «الصفات المكتسبة » على تقرير مصير المرشح ومدى قدرته على اكتساب ثقة الناخب.

الحملة الانتخابية

فى عام ١٩٦٨ سقط روبرت كيندى مغمى عليه من شدة الإرهاق، وكان فى ذروة حملته من أجل إقناع حزبه الديمقراطى بترشيحه للرئاسة، ومن قبله قطع الرئيس ترومان

مسافة ٤٨ ألف كيلو متر فى حملته الانتخابيه بحثاً عن تأييد الناخبين.

إن أسماء المرشحين للمؤتمرات الحزبية أو الأولية تعلن بعد رأس السنة الجديدة مباشرة، حيث ينفق المرشحون مبالغ ضخمة ويبذلون جهوداً هائلة لجذب أكبر عدد ممكن من المندوبين إليهم، وهم يقومون بمهمة شاقة يجوبون فيها البلاد يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد الآخر، وغالباً ما يزورون ٣ مدن، أو أكثر فى يوم واحد، ويقفون عند بوابات المصانع فى صقيع الفجر لتحية العمال، كذلك يقومون بزيارة المراكز التجارية ومحطات السكة الحديد وقاعات الاجتماعات والمدارس ومراكز الاستماع وجميع المقرات التى يعتقد مستشاروهم أنهم سوف يكونون قادرين على إقناع الناخبين فيها، ويعملون بذلك لمدة ١٦ساعة يومياً، ويتناولون طعامهم «على الواقف» وأثناء عملهم، وينامون متى أتيح لهم ذلك، وهو وقت قليل فى كل حال. ومن شاهد جورج بوش وهو يركض إلى قلب الإعصار «أندور» فى فلوريدا قبل أسابيع كى يتفقد الضحايا والمنكوبين، يعرف مدى الطاقة الهائلة التى لابد أن يتمتع بها المرشح، عقلياوجسديا، للوصول إلى نهاية حملته.

ولعل هذا الإرهاق هو ما دفع المرشح وليام ماكينلى فى عام ١٨٩٦ إلى أن يخترع تقليدا جديداً يقضى بأن يأتى الناخبون

وأعضاء الحزب إليه بدلا من أن يذهب هو إليهم. وبالفعل فقد استقبل ماكينلى فى منزله فى ولاية أوهايو ما يزيد على ٣٠٠ وفد حزبى وصل عدد أفرادها إلى ٧٥٠ ألف شخص، وخلال حملته الانتخابية كلها لم يكن يغادر منزله إلا نادراً. وقد شعر مستشاروه بالقلق لأن منافسه وليام برايان كان يخوض حملته على متن قطاره الخاص، قاطعا الولايات.

غير أن ماكينلى فاز فى حملته الانتخابية، كاسرا بذلك إحدى المسلمات الذهبية التى تقول « فى الحركة بركة».

وفى باب التجديد أيضا، أن المرشح المثالى قد ينتهك القواعد الصارمة لبرامج الرحلات والتنقلات، ومن ذلك ما فعله إدلاى ستيفنسون عام ١٩٥٦ عندما كان ينافس إيزنهاور، إذ إنه أمضى ما يزيد على ساعتين وهو يخوض نقاشا حاداً مع مجموعة من العمال فى محطة للسكة الحديد، متجاهلاً نداءات منظمى حملته الذين شارفوا على الجنون.

الاستيعاب والطرد والمناظرة

وصف الرئيس جورج بوش منافسه كلينتون بأنه «رجل طيب على الصعيد الشخصى وهو يستحق الإشادة فى المهمات التى اشتركنا فى أدائها معاً»، ورد كلينتون التحية بأحسن منها، فقال:«لا أحد يستطيع أن يقول عن بوش إنه رجل غير جيد أو قائد غير كفء..». ولكن هذه المحاولة

لاستيعاب المرشح المنافس بدلا من محاولة طرده ليست هى القاعدة في الانتخابات الرئاسية دائماً، إذ يشير المدير السابق لما يسمى «لجنة ممارسات الحملة العادلة » بروس فيكتور إلى أنه حتى بطل الثورة الأمريكية جورج واشنطن لم يسلم من الطعن، حيث اتهمه منافسوه بأنه يتمنى إقامة نظام ملكى على طريقة بريطانيا، وتلك كانت تهمة حمقاء حيث إن واشنطن لم يكن يرغب حتى فى أن يصبح رئيسا. أما خصوم توماس جيفرسون، وهو بطل «إعلان الاستقلال » فقد أطلقوا عليه لقب«توم المجنون ».، كما وصفوه بأنه سكير وعربيد ورعديد. ومثله إبراهام لنكولن الذى نال أكبر قدر من الصفات التى يطلقها فريق على خصمه، وهى أنه : مقلد وجهول ومهرج ومدمن وغول وقاتل ومجنون(!).

كان هذا قبل أن يتحول التليفزيون إلى وسيلة للمناظرة بين المرشحين المتنافسين. والمناظرة هى تقليد أمريكى قديم سبق اختراع التليفزيون. وأشهر المناظرات في التاريخ الأمريكى هى تلك التى وقعت بين إبرهام لنكولن وستيفن دوغلاس فى عام ١٨٥٨ فى أثناء تنافسهما على مقعد فى مجلس الشيوخ، ومع أن دوغلاس كسب المقعد إلا أن المناظرة كشفت عن مواهب كبيرة لدى لنكولن هيأته لترشيح نفسه إلا أن لنكولن فاز بمعركة الرئاسة.

وفى عام ١٩٦٠ كسب جون كيندى معركته الانتخابيه إثر السقوط الذريع لريتشارد نيكسون فى أثناء المناظرات بينهما، وبلغ عددها ٤ مناظرات. وشاهد الأولى مايزيد على ٧٠ مليون ناخب، بينما شاهد ٥٠ مليوناً آخرون كلاً من المناظرات الباقية، وكان أهم ما أبرزته المناظرة هو أن كيندى السناتور الشاب هو زعيم قادر على أن يتحمل مسئولية الرئاسة، بينما بدا نيكسون مثل «حارس مقبرة» على حد وصف أحد المشاهدين. وهذه النقطة بالذات التى تتعلق بفارق السن اكتشف الرئيس رونالد ريغان مدى أهميتها، إذ إنه ظهر فى عام ١٩٨٤ كرجل كهل أمام منافسه الشاب نسبياً وولتر مونديل، وهنا التفت ريغان إلى عدسات الكاميرا ليبدا مناظرته بالقول:« إننى لن أجعل من موضوع العمرقضية فى هذه الحملة، فأنا لن أستغل صغر سن منافسى وقلة خبرته لتحقيق مكاسب سياسية »، وقد ذكر المعلقون أن هذه اللفتة الذكية كلفت منافسه خسارة ٤ نقاط قبل أن يبدأ بالمناظرة.

والمناظرة لا تكون بالضرورة وجها لوجه دائما، ففى مقابلة تليفزيونية، سأل مقدم البرنامج المرشح لنيابة الرئيس روبرت دول عما كان يقصده خصمه روكفلر عندما رفع إصبعه الوسطى فى وجوه الصحفيين، فرفع دول يده أمام المشاهدين وهو يقول:«أنا لاأملك إصبعا وسطاًكما ترون لأننى فقدت هذه

الإصبع فى الحرب، وبالتالى فإننى لاأعرف استخداماتها العديدة». وقد ضجت أمريكا كلها لبلاغة الرد.

وفى المقابل، فإن المرشح الديمقراطى أدوند موسكى، وكان متقدما على جميع خصومه فى الانتخابات التمهيدية، خسر حملته الانتخابية عندما قال المرشح المنافس جورج ماكفرن إن زوجة موسكى تخونه علناً، وانهار موسكى وشرق بالدمع وهو يحاول الدفاع عن شرفه، فخسر حملته وزوجته معاً.

بينما خرج ماكفرن منتصراً ولكن إلى حين، إذ إنه فى نهاية الحملة، وبينما كان يرد على أسئلةالصحفيين فى أحد المطارات، ارتعش صوته، وتلعثم، وعندما انتقده أحد الصحفيين فقد زمام أمره، ورد غاضباً بالقول الأمريكى المأثور «يمكنكم تقبيل مؤخرتى » وهى عبارة دفعت به إلى...المؤخرة وأبقت عليه فيها (!).

المرشح تصنيعاً وتسويقاً

لعل من أبرز المشاكل التى باتت تواجه الديمقراطيات فى الغرب هى إحجام الناخبين عن الإدلاء بأصواتهم، ومن هنا فإن الماكينة الانتخابية للمرشح تقوم بمهمتين، الأولى إقناع الناخب بأن مرشح الحزب هو أفضل من مرشح الحزب أو الطرف الآخر، والثانى إقناع الناخب بأن يذهب إلى صندوق الاقتراع كى يدلى بصوته.وقد تبين من الإحصاءات الأمريكية

أن نسبة الناخبين فى عام ١٩٨٠ بلغت ٦٢٫٨ فى المائة ممن يحق لهم التصويت، وقد انخفضت فى عام ١٩٩٠ لتصل إلى ٥٣,٩ فى المائة. والقانون الأمريكى «لا يعاقب» الذين تخلوا عن حقهم فى الانتخاب، وهو لا يعتمد قاعدة «التصويت الإجبارى » كما فى استراليا وبلجيكا والأكوادور، حيث تفرض هذه الدول على المتخلفين عن الانتخاب دفع غرامة معينة، وإذا غاب الناخب أكثر من دورة عن ممارسة حقه فى التصويت يفقد هذا الحق نهائيا، ويصبح عملياً ممنوعاً من الانتخاب (!).

ومن هنا، فإن المرشح للرئاسة فى أمريكا لابد أن يعتمد على ماكينة انتخابية منظمة وقادرة على جذب الأصوات للمرشح، وعلى «تسويقه» لدى الناخبين، وهذا التسويق يعتمد على قيام «صناعة » معقدة، يقوم عليها تنظيم يتولى القيام بمهمات هائلة، من جدولة العمل والمواعيد والترتيبات الإعلامية وإعداد الخطط واختراع الشعارات وإجراء استقصاءات الرأى العام وصولا إلى تمويل الحملة التى تتزايد نفقاتها يوماً بعد يوم. ورغم أن الإعلام بما هو صحافة وإذاعة وتلفزيون يبدو وكأنه «الفترينة» التى يعرض فيها المرشح، إلا أن الوصول إلى «الفترينة» يقتضى جهودا كبيرة لا يمكن أن تتحقق دون وجود «الماكينة الانتخابية » وقد اشتهر بعض المرشحين بقدرتهم على تشكيل هذه المنظمات الحديدية، ومن

أبرزهم بارى غولدووتر المرشح فى عام ١٩٦٤، وريتشاد نيكسون عام ١٩٧٢ ورونالد ريغان عام ١٩٨٤، وكلهم من الجمهوريين. وبالمقابل تتميز منظمات الحزب الديمقراطى بالضعف والتراخى والتضارب. وتشكل الماكينة الانتخابية التى شكلها المرشح الديمقراطى وولتر مونديل عام ١٩٨٤ مثلا صارخاً على الوهن والعجز والفشل فى التصنيع الذى يتبعه بالضرورة الفشل فى «تسويق» المرشح.

وفى السياق نفسه، فإن الماكينه الانتخابية تقوم بتوظيف خبراء بمرتبات مرتفعة ليعلموا المرشحين كيف يحققون أفضل استخدام لوسائل الإعلام والاتصالات، ويقوم هؤلاء الخبراء على تعليم المرشحين استخدام تقنيات جماهيرية ابتداء من المظهر الشخصى وصولا إلى نوعية الصوت وحجم الابتسامة.

إن قرار الرئيس جورج بوش باستدعاء جيمس بيكر من وزارة الخارجية إلى البيت الأبيض ليقود حملته الانتخابية، يكشف أن خبراء صنع الماكينة الانتخابية هم من يملك ـ فى نهاية المطاف ـ القدرة على تصنيع وتسويق الرئيس.

استطلاعات الرأى

لم يعد السؤال «من الذى سيفوز فى الانتخابات ؟» من قبيل الفضول أو التنبؤ،إذ إنه بات عاملاً مهماً فى تغيير مسار الحملة الانتخابية للمرشح.

وصـارت تقـوم على طرح هذا السؤال مـراكـز ومـؤسسـات ضـخـمة، من بينها مـركز كـارنيجى الذى اشتـهر بدقتـه فى الإجـابة، إذ إنه بين عـامـى ١٩٤٨و ١٩٨٤، نجح المركـز فى تحديد ثمانية مرشحين ناجحين، بينما فشل في إجابتين. ففي عام ١٩٤٨ تنبأ بأن ديوى الجمهورى سوف يفوز بينما فاز فى ذلك العام ترومان الديمقراطى، وفى عام ١٩٧٦ اعتبر أن فـورد الجمـهورى هو من سوف يفوز وأخطأ وفـاز كـارتر الديمقراطى. وفيما أكدت جميع مراكز الاستطلاع فى عام ١٩٦٠ أن كيندى سوف يسقط لا محالة فإن مركز غالوب أعلن أن كيندى سوف يكسب وهو بالفعل ما حدث.

وحول الاستطلاعات الكثيرة التى فاقت المتوقع فى حملة الرئاسة الأمريكية الحالية، يصف أحد المعلقين هذه الاستطلاعات بأنها صارت أقرب إلى سباقات الخيول التى تجرى يومياً، ويقول مدير الاستطلاعات فى صحيفة «واشنطن بوست» ريتشارد بورين «إن هذه الاستطلاعات باتت خطرة، فهى بدلا من أن تقدم للمواطن معلومة تفيده، فإنها أخذت تؤثر عليه وتقوده، وهذه مسألة ليست صحيحة للديمقراطية» ويرى بورين أن كثرة هذه الاستقصاءات سوف تدفع بها بالنتيجة من الصفحة الأولى إلى الصفحات الداخلية، وعندها تعود هذه الاستقصاءات لتلعب دورها الطبيعى فى خدمة الناخب. ويشير بورين فى هذا السياق إلى أن الاستطلاع بدلاً من أن

يركز على الموضوع الذى هو المرشح، فإنه يركز على سير العملية الانتخابية، وهو ما يؤدى إلى قطع العلاقة بين المرشح والناخب، وعلى المدى الأبعد، بين الناخب وعملية التصويت نفسها .وتقوم عمليات الاستقصاء اليوم على معرفة رأى شريحة من المواطنين يتراوح عددها بين ١٥٠٠إلى ٢٠٠٠ شخص، بينما كانت فى السابق تستوعب الملايين، وسر هذا الانتقال لتوجيه السؤال إلى عدد محدود فقط، هو أن مجلة تسمى «الدليل الأدبى» أعلنت فى عام ١٩٣٦ أن حاكم ولاية كنساس ألفرد لاندون سيفوز على فرانكلين روزفلت،إلا أن روزفلت حقق انتصاراً ساحقاً ومدوياً. وكانت المجلة التى أغلقت بعد ذلك مباشرة، قد أرسلت ١٠ ملايين اقتراع للناخبين المدرجة أسماؤهم فى دليل الهاتف ولمالكى السيارات. والخطأ الكبير الذى وقعت فيه هو أن مؤيدى روزفلت كانوا ناخبين فقراء لا يملكون هواتف ولا سيارات(!).

إن الديمقراطية، بقطع النظر عن مفهومها الغربى، تجد أكثر من وسيلة للتعبير عن نفسها، ولعل انتخابات الكويت التى ستكون نتائجها قد أعلنت وهذا العدد بين يديك، هى دليل جديد على مدى نجاح الحوار الشعبى اعتماداً على آلية الرقابة والتوازن، التى هى أساس الديمقراطية..

٢

كم هى سَهلة ومُمتنعة.. تلك «الديمقراطية»!

«دليل الطفل إلى الديمقــراطيــة» كــان عنوان دراســة تم توزيعها فى الولايات المتحدة الشهر الماضى قبيل الانتخابات الأمريكية، وقد أثارت ردود فعل إيجابية واسعة أبرزها ما أورده أحد المعلقين عندما كتب «الديمقراطية تبدأ منذ الطفولة وتنمو معها وتزدهر بالخلاف حول هذه الطفولة بالذات، وبالتالى لماذا لا يكون الأطفال طرفا فيها بدل أن يكونوا موضوعا لها؟». والدراسة تشكل دليلا للطفل كى يعرف الموضوعات التى يختلف الكبار فى الانتخابات حولها وحقوقه فى مدارس مريحة ووجبات مجانية وجامعات تسهل متابعة دراسته، ثم حقه فى الوظيفة.. أو فى الصلاة داخل المدرسة.

أما فى العالم العربى فإن الدليل الديمقراطى يمكن أن يتضمن نموذجين: النموذج الجزائرى والنموذج الكويتى، وما بين هذين النموذجين تتوزع تجارب فى إفريقيا والعالم الثالث يعجبها من الديمقراطية التسمية وليس الممارسة، ومع أنها تضع جماهيرها أمام خيارين هما التنمية أو الديمقراطية، وكأنهما متناقضان، فإنها تسلب هذه الجماهير الاثنتين معا.

هل من سبيل إلى المصالحة مع هذه الديمقراطية؟ بالتأكيد، ولكن هذا يقتضى أن نعرفها أولا كى نعترف بها.

مهما يكن الزمان أو المكان التاريخيان اللذان جاءت منهما فكرة الديمقراطية، ومهما تكن الأسماء التى سميت بها، ومهما

تكن الصيغ التى تشكلت فيها فكرة الديمقراطية عبر اختلاف الظروف والأوضاع فى الأزمنة والأمكنة، فى مجتمعات العالم المختلفة، فلعله من أهم إنجازات هذه الفكرة أنها تلوح الآن للعالم أو لأكثره وكأنها «سفينة نوح» التى يتعلق بها الناجون من الطوفان، وفى الأغلب أنه بعد أن ترسو سفينة نوع على «الجودى» فسوف يحتدم الاختلاف من جديد بين ركاب السفينة حول أفضل صيغ الديمقراطية وأكثرها ملاءمة للأرض الجديدة، التى رست عندها السفينة فى عالم لا يكف عن التجدد والتغير، والسؤال هو: هل سوف تسمح لهم «الديمقراطية» بإعادة فكها وتركيبها بما يحقق السلام والتوازن بين ركاب السفينة أم أنها ستقف حجر عثرة أمام التطور إلى أن يبدع الإنسان فكرة غيرها لتنظيم شئون حياته؟ولعل فى قدرة الديمقراطية على السماح والتقبل، الوقوف والجمود تكمن لحظة التوازن ويكمن سر الديمقراطية وسحرها من جهة واستخدامها بشكل سلبى من جهة أخرى.

هل معنى ذلك أن مفهوم الديمقراطية به من الغموض وانعدام التجديد ما يقبل التأويلات المتناقضة والتلاعب بالألفاظ؟ وإعادة الفك والتركيب فى كل فترة من الزمان...؟

شكل الديمقراطية

لو أردناأن نضع أيدينا على العناصر الأساسية فى أى

صيغة لفكرة الديمقراطية - دون الدخول فى أى تفصيلات - لقلنا إن الديمقراطية فى جوهرها هى حوار بين الحاكم والمحكوم فى قضايا تهم المجتمع، لا يملك أحد القطع مسبقا بنتيجة الحوار حولها، وفى الغالب تكون النتيجة عبارة عن تسوية أو حلول وسطى مقبولة لفترة زمنية، ويتم الحوار عبر قنوات (مؤسسات) تضم أناسا منتخبين من أناس متساوين فى الحقوق والواجبات وتستمر هذه المؤسسات فى عملها هذا فترة من الوقت محددة سلفا، ثم يقرر الشعب، بعد هذه الفترة ما إذا كانت هذه المجموعة المنتخبة قد قامت بدورها فى التعبير عن آماله ومتطلباته كما ينبغى أم لا، ويكون من حقه فى انتخابات تالية أن يعيد انتخابها أو ينتخب مجموعة أخرى. وهذا بطبيعة الحال لا يعنى عدم وجود جماعات ضغط اقتصادية أو أيديولوجية أو إعلامية تقوم بدورها فى التأثير على مجريات هذا الحوار.

الفكرة الرئيسية فى أى ديمقراطية أنه لا توجد شريحة اجتماعية أو طبقة أو مجموعة من الناس تملك وحدها حق تقدير ما يصلح للمجتمع ككل، وإن شطت شريحة أو طبقة أو فئة بالقول إن لديها وحدها (حلولا) سحرية للمجتمع فقدت الديمقراطية معناها ومضمونها، ولعل من سخريات القدر أن (الديمقراطية) تدعيها دول وشعوب متناقضة فى التطبيق، بل

إن هناك دولا تصر على لصق كلمة (ديمقراطية) مع اسمها الرسمى لتأكيد صفة ربما كانت من أكثر الصفات افتقادا فى الممارسة لدى تلك الدول (!).

الشكل والمضمون

ما تحدثنا به عن فكرة الديمقراطية فى الفقرة السابقة يتصل بشكل الديمقراطية وإجراءاتها، لكن الديمقراطية قبل ذلك كله قيم وسلوك واقتناع داخلى واستعدادات نفسية وفكرية موروثة أو مكتسبة، وهذا كله يشكل ما يمكن أن نسميه روح الديمقراطية أو مضمونها، ولو أردنا أن نشير إلى هذا الروح برقة (لأنه روح) لقلنا إنه يكمن فى الاستعداد للقبول بالآخر (المواطن)، بأنه بشر مثلنا له الحقوق نفسها وعليه الواجبات نفسها باعتباره إنسانا أولا وبغض النظر عن كونه رجلا أو امرأة، قادرا أم عاجزا، بغض النظر عن لون بشرته وعن عقيدته، لأن ما يميز مواطنا عن آخر هو الكفاءة لا غيرها. فماذا نملك نحن حقا من هذا الاستعداد، ماذا نعطى من الوقت لكى نصغى بجدية لمشكلات مواطنينا؟ وإلى أى مدى نسمح لهم بالاختلاف حول ما نراه مصلحتهم الأكيدة، أو يتراءى لنا أنه «مصلحتهم الأكيدة»؟

وإذا نقلنا هذا السؤال إلى مستوى آخر وهو مستوى علاقتنا بأطفالنا، فإلى أى حد ندرك أن الطفل قد ينقص عنا

فى الخبرة، ولكنه بسبب هذا النقص، أكثر منا قدرة على أن يكون محايدا ومتحررا من مطامعنا ومخاوفنا، فهذا الطفل هو الذى أعلن حقيقة أن الإمبراطور يمشى عاريا فى قصة هانز أندرسون الشهيرة «ثياب الإمبراطور الجديدة» لأنه لم يقع فى أسر الفكرة السخيفة التى أقنع بها المحتال كبار رجال الدولة، وهى أن الشخص غير الجدير بمنصبه هو وحده الذى لا يمكنه رؤية ثياب الإمبراطور.. وهو عار(!).

روح الديمقراطية تكمن أيضا فى إدراكنا أن الحقيقة نسبية وأن الأفراد والجماعات يرونها من زوايا مختلفة، ويتعاملون معها عبر مصالح مختلفة، وهكذا يكون الاختلاف بين البشر أمرا طبيعيا فلا ينبغى أن نضيق به، أو أن تمنح الفرصة لتقصير حباله أو قطعها لكل من يملك سكينا، بل يحتاج الأمر إلى الرغبة الصادقة فى تفهم بواعث ودواعى هذا الاختلاف، والصبر على إزالة أو تخفيف أسبابه عبر الحوار عن طريق الوصول، كما أسلفنا، إلى حلول وسطى أو الاقتناع الحر من أحد الأطراف بما يقول به الطرف الآخر. والسؤال هو: إلى أى حد يمكن أن نتفق على (آلية) تنظيم هذا الحوار، فلا يشط بعضنا إلى عزل الآخر واتهامه أو رفع السلاح عليه وقتله وتصفيته؟

صعوبات على الطريق

إذا كانت تلك - بتبسيط شديد - هى الديمقراطية شكلا ومضمونا، من أين نبدأ طريقنا إليها، وما أبرز الصعوبات التى تعترضنا، وكيف نعمل على إزالة تلك العقبات أو على الأقل تذليلها؟

لعل البداية الحقة تبدأ مع أطفالنا بأن نهيىء أولا لكل طفل أبوين مدركين وراغبين حقا فى أن يعيش أبناؤهما فى مجتمع ينعم بالديمقراطية، أبوين لديهما القدرة والرغبة فى حسن الاستماع إلى الطفل، وحسن الحوار معه، والإدراك بأنه كائن مستقل عن الأبوين رغم احتياجه واعتماده عليهما، وتكون تلبيتنا لاحتياجه الطبيعى هى طريقنا لكسب محبته الحرة، وليس لرشوته أو استعباده من قبلنا، وتصبح مهمتنا الحقة هى أن نساعد فى نموه إلى أقصى درجة يمكن أن تصل إليها قدراته وإمكاناته ليصبح إنسانا حرا يؤمن بأن حقه فى الحرية مكافىء لحق الآخرين فيها، ولكى يعيش الحياة التى يريدها هو لا تلك التى نريدها له نحن.

ثم بأن نهيىء لأطفالنا مدرسة وتعليما ومدرسين، يعلمونهم كيف يبدعون من خلال النشاط الحر الذى يمارسونه، ويكشفون لهم أنهم أيضا جزء من مجتمع فيه الاختلاف كما فيه الاتفاق.

مدرسة تعلمهم كيف يتقبلون أنفسهم بما فيها من مزايا وقصور ليكون هذا طريقهم لتقبل الآخرين وللتفاعل الإيجابى مع ما فيهم من مزايا وقصور أيضا، مدرسة تعلمهم، كيف يبحثون عن المعلومة، وكيف يستخدمونها وكيف ينتجونها، وكيف يتخذون القرار فى ضوئها فى الوقت المناسب، وكيف يكون لهم موقف نقدى من المعلومات والأفكار والنصوص التى تصل إليهم أو يصلون إليها من الماضى أو الحاضر؟

فإذا وجد تلميذ مثلا أن شاعرا كبيرا من أكبر شعراء أمته يقول :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

ذا عفة فلعـــلة لا يظـــــــلم

تحاور مع الأستاذ حول دلالات هذا البيت، وهل هو يصور حقيقة مطلقة أم رؤية إنسانية فى لحظة يأس. وأمثلة أخرى من أدبنا القديم والجديد وأمثلتنا العربية أو الشعبية كأن نقول لأطفالنا ونحفظهم: «اتق شر من أحسنت إليه». وهذه الدلالات السلبية التى تؤخذ على علاتها وإطلاقها تترك تراثا فى التكوين النفسى للفرد، وهو تراث مناقض بشكل ما لإيجابيات قبول الآخرين وقبول الاختلاف معهم وبالتالى قبول فكرة وممارسة الديمقراطية.

الديمقراطية فى تراثنا

سوف يحتاج المربى الذى يفتش فى تراثنا وفى تاريخنا

السياسى العربى عن نصوص أو وثائق أو وقائع يمكن أن تعزز الروح الديمقراطية - ولا أقول الشكل - فى نفوس طلابه إلى وقت طويل جدا قبل أن يجد بغيته، وباستثناء عهد الخلفاد الراشدين سيجد أن صورة المعارض العربى فى كتب التاريخ موصومة بالفساد أو الإفساد وربما بالكفر والزندقة، وأن مصيره فى الأغلب هو النفى أو القتل أو السجن أو التشريد وقد تعرض لكل ذلك مصلحون كبار فى تاريخنا العربى والإسلامى.

فإذا تعب هذا المربى من البحث فى كتب التاريخ السياسى وولى وجهه نحو تاريخ الأدب، فسيجد أن الفن الشعرى يقدم صورة فنية تستلهم الواقع وتنطوى على نزعة موضوعية هى فن الوصف، وسيجد أن الوصف يكاد فى معظمه يكون وصفا للطبيعة بما فيها من نبات وحيوان وأرض وسماء وبشر، فإذا واصل البحث عن الشعر الذى يتحدث عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم وعن البشر عامة، فسيجد نفسه أمام فن المدح وفن الهجاء، وكلاهما يقدم رؤية أحادية الجانب سواء للشخصية أو للقضية أو الموضوع المتصل بالشخصية، وفى الغالب فإن المدرس فى الفصل يحاول أن يقرب لتلاميذه صورة الماضى إلى الحاضر فيقول لهم:

«إن شاعر المديح كان يقوم فى الماضى بالدور الذى تقوم به

الصحف المؤيدة للحزب الحاكم اليوم، أما شاعر الهجاء فهو يمثل صحف المعارضة» ولكن التلميذ اليوم الذى يشاهد فى التلفاز عبر قنوات البث العالمى كيف تقدم الشخصية الواحدة أو القضية الواحدة - سواء فى مواسم الانتخابات أو فى غيرها - من خلال وجهات نظر متعددة دون أن يحاول أى منها إلغاء الآخر، مثل هذا التلميذ فى عصرنا سوف لا يكتفى بحكاية الحزب المؤيد والمعارض، ولعله سيعود إلى أستاذ التاريخ ليعرف منه قصة الطريق الطويل والدامى الذى تطورت خلاله الديمقراطية شكلا ومضمونا فى الغرب وعبر ما يزيد على ثلاثة قرون لكى تصل إلى هذه الصورة الوردية التى يراها فى التلفاز الملون.

نموذج إشكالية الجزائر

مع أن الإشكالية التى تقف فى طريق الديمقراطية فى أقطارنا العربية والتى نتعرض لها الآن لا تتصل بالجزائر وحدها، إلا أنها وجدت فى الجزائر بالفعل، بينما هى موجودة فى أقطار عربية أخرى بالفكرة. ولذلك قلنا إشكالية الجزائر، وفى الواقع أن تجربة الديمقراطية فى الجزائر كشفت بوضوح عن الفارق الكبير بين الديمقراطية كشكل وكإجراءات، وبينها كروح وقيم وسلوك وأسلوب حياة، فلقد أدت الإجراءات الديمقراطية فى الجزائر إلى أن يصبح الطريق إلى الحكم

مفتوحاً على مصراعيه أمام تيار سياسى سبق له أن أعلن أنه لا يؤمن بالتعددية السياسية، وإنه إذا تسلم الحكم - ولو عن طريق الانتخابات - فإن أول ما سيفعله هو إلغاء التعددية (!).

فكيف يمكن أن نواجه مثل هذه الإشكالية بأساليب أو إجراءات ديمقراطية، دون أن نمارس نحن العنف أو الشمولية التى نخشى من التيار القادم أن يمارسها حين يتسلم السلطة؟ وتتعدد الاجتهادات فى مواجهة هذه الإشكالية، والمطلوب منا جميعا، مفكرين وممارسين، أن نبحث عن مخارج وحلول لها. ولعل من أهم الاجتهادات بهذا الصدد اجتهاد الدكتور السيد ياسين مدير مركز الدراسات الاستراتيجية فى «الأهرام» سابقا، حيث يقول : (فى تصورنا أنه فى مرحلة الانتقال من السلطوية إلى التعددية لابد من إجراء حوار وطنى واسع ومسئول بين كل الفصائل والتيارات السياسية للوصول بالاحتكام ليس فقط «لإجراءات الديمقراطية»، وإنما «لقيمها أيضا» غير أن هذا الميثاق لكى يطبق بصورة واقعية ينبغى أن يتضمن من الآليات ما يسمح بعدم الخروج على الشرعية الدستورية. ويمكن فى هذا الصدد التفكير فى إنشاء مجموعة من الأجهزة الدستورية التى تراقب العملية الديمقراطية وتمنع الخروج على قواعدها، وبعبارة أخرى، نحتاج فى الوطن العربى إلى إبداع فكرى

لصياغة نموذج ديمقراطى صالح للتطبيق، لا يكون نقلا آليا لقواعد الديمقراطية الغربية من ناحية، ولا يخضع من ناحية أخرى للمواصفات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الناجمة عن التخلف السائد، نموذج ديمقراطى يتجه إلى المستقبل، بل ويعمل على تطوير الأوضاع).

نعم، نحن بالتأكيد محتاجون إلى إبداع فكرى بهذا الخصوص يلائم ما بين فكرة الديمقراطية وآلياتها، وهو ما يطرحه مفكر عربى آخر له باع فى القانون الدستورى هو يحيى الجمل ليؤكد على فكرة المؤسسات أو «المأسسة» والتى تأخذ تدريجيا مكان الأفراد فى الإدارة السياسية. وهناك اجتهادات عديدة لمفكرين عرب منهم: أحمد كمال أبو المجد ومحمد عمارة وآخرون آن لنا أن نجمع اجتهاداتهم ونحللها علنا نصل إلى تصور يضعنا على أول الطريق.

فى العالم الثالث

إذا كانت الديمقراطية الأوروبية تمثل سعيا إلى إيجاد السلام والتوازن بين فئات المجتمع فى داخله، فإن الديمقراطية فى الجنوب أو العالم الثالث نشأت كمطلب لشعوب لم تعان فقط من قهر داخلى، بل بالأساس من قهر جاءها عبر الحدود فى شكل مستعمر سلبها بشكل أو بآخر وبدرجة أو بأخرى حق المشاركة فى ثروتها الوطنية والسلطة

على أرضها.

لهذا نجد أن مطلب الديمقراطية فى المجتمعات الإفريقية كمثال جاء جزءا من ثقافة نشدان الاستقلال، ولهذا صح أن يطلق عليه «التوق إلى استقلال ثان»، وكما يشير الكاتب الإفريقى «ترونجولا ننالجا»: «لم يتطور مفهوم الاستقلال الثانى بواسطة علماء الاجتماع، بل بواسطة الناس العاديين فى إقليم «كويلو» فى زائير الشرقية، فقد كان الاستقلال بلا مستوى معيشة أفضل وحريات مدنية أوسع ووعد بحياة أفضل لأطفاهم لا معنى له بالنسبة للشعب. وبدلا من جعل المكاسب الموعودة فى متناول أيدى الجماهير، عاش السياسيون الذين ورثوا سلطة الدولة من البلجيكيين حياة مرفهة أكثر من أسلافهم الأوربيين واستخدموا العنف والقوة الغاشمة ضد مواطنيهم، وقد فشل الاستقلال الأول الاسمى، ومثل عدم اقتناعهم بدولة الاستعمار الجديدة الأساس لطموحهم باستقلال جديد وأصيل».

وفى تصور للديمقراطية هذا منشؤه يصير الحديث عن التنمية وعائدها على المواطنين لازمة لا غنى عنها لمطالب الديمقراطية البديهية كالمساواة أمام القانون مقابل ما كان من التمييز العنصرى فى الدولة الاستعمارية، وحقوق المواطنة للجميع بغض النظر عن العنصر واللون والجنس والمنحدر

الإثنى، وأهلية المواطنين للمساواة فى الحياة العامة. إن مطلب التنمية والتطلع إلى عائدها لدى هذه الشعوب تحول بين أيدى الحكام الجدد وورثة النظم الاستعمارية إلى سلاح يشهر فى وجه إفريقيا وغيرها فى إصدار مرسوم حظر العمل بالسياسة للتركيز على التنمية تحت شعار «الخبز قبل الديمقراطية»، ولم تتجاوز التنمية أو توفير الخبز فى عرف هذه الأنظمة أكثر من القيام بدور المستعمر القديم ولكن بطريقة أسوأ. ومن ثم نشأت مطالب شديدة التناقض وتولد صراع شديد القسوة من حركة انفصالية إلى إبادة إثنية وانقلابات عسكرية تتوالى ولا تنقطع.

سياسة الباب المفتوح

أمام ذلك كله أصبح الاستقرار السياسى وبأى ثمن هو نداء رجال التنمية فى العالم الثالث، حتى أن مفكرا سياسيا مثل «صمويل هنتجتون» على سبيل المثال راح يجادل فى أن الدولة فى الأقطار النامية لا تستطيع أن تحتمل سياسة الباب المفتوح إزاء المطالب التى ترفعها القوى السياسية المتنافسة من أجل تخصيص الموارد العامة أو التنموية الشحيحة، أى أن من ينادى بالتنمية ينادى بالتالى بقدر أقل من المشاركة السياسية فى المجتمعات النامية حيث تقود المشاركة السياسية حتما للتفكك السياسى فى ظروف كهذه، والديمقراطية بعبارة أخرى

هى نقيض للتنمية فى هذه المجتمعات حيث الدولة فى إفريقيا تحاكم بأدائها التنموى وليس بخطواتها فى توطيد مجتمع ديمقراطى.

وإذا كان هذا التصور يعززه تأثير الديمقراطية غير الحاسم على النمو الاقتصادى وبقاء اللاتكافؤ فى دول العالم الثالث على حاله، فإنه يغفل عن أن النماذج المطروحة هى نماذج غير ناضجة، ومن ثم تقود إلى الفساد الذى يجهز بدوره على كل تنمية، فالعيب ليس فى الديمقراطية ولكن فى نماذجها المشوهة، ومن المؤكد أن الديكتاتورية أعاقت التنمية لأنها وجهتها نحو خدمة ذاتها الضيقة أو طموحاتها القمعية.

نقطة انطلاق

قد يعنى ذلك نبذ الديمقراطية الليبرالية لضيق محتواها كما يقول «شفيجى» لكن المفكر الإفريقى «ثانديكا مكاندويرى» يرد على ذلك بالقول: إذا كانت الديمقراطية الليبرالية غير كفؤة (وهذا لا أعتقده) فهى نقطة انطلاق لأى إعادة صياغة مفاهيمية للديمقراطية فى هذا الجزء الأخير من القرن العشرين، فالفاجعة أن تزاح الديمقراطية الليبرالية بدعوى عدم كفاءتها لتفسح المجال للحكم الديكتاتورى. ولهذا يخلص «مكاندويرى» إلى «أن الديمقراطية جيدة فى حد ذاتها، إضافة إلى أن الفاشية بلا ريب لم يكن أداؤها التنموى أفضل من

نماذج الأداء التنموى فى ظل الديمقراطية».

لقد فرض على مفكرين عديدين فى العالم الثالث مناقشة صلاح أو فشل الديمقراطية كأسلوب للتنمية بسبب الإخفاق الشديد الذى لاقته تجربة الاتحاد السوفييتى بعد سبعين عاما من النظام الشمولى، الذى قلده كثيرون بشكل أو بآخر فى العالم الثالث، حتى أصبحت الديمقراطية لدى البعض منهم ليست وسيلة بحد ذاتها ولكنها هدف أيضا يسعون إليه.

مجتمع المعلومات الكونى

تتطور المجتمعات اليوم - على نحو غير مسبوق - وبدرجات مختلفة بفضل الثورة العلمية التكنولوجية نحو ما يسمى بـ «مجتمع المعلومات الكونى»، وهو وضع يمنح قوة غير محدودة لمن يمتلك الوسائط والقدرة على إنتاج المعلومات وحفظها واسترجاعها واستخدامها، وهو وضع يشكل تحديا خطيرا لفكرة الديمقراطية ذاتها، شكلا ومضمونا، فإذا كانت الديمقراطية تبنى على المعلومات الصحيحة والموثوقة، فإن فكرة الاختيار سوف تهتز من أساسها بالنسبة لمن لا يملك المعلومات، أو لا يمتلك وسيلة للحصول عليها. ومن هنا فإن النظام العالمى الجديد مطالب كأولوية مطلقة، وهو يؤكد حقوق الإنسان على نحو عالمى، أن يضع فى سلم هذه الحقوق حقه فى الحصول على المعلومات اللازمة لترشيد اختياراته. وفى

هذا الإطار يؤكد المهتمون بهذه القضية أن ديمقراطية المعلومات تنهض على أربعة أسس أولها حماية خصوصية الأفراد، وتعنى الحق الإنسانى للفرد فى أن يصون حياته الخاصة ويحجبها عن الآخرين، والثانى هو حق المواطن فى معرفة كل ضروب المعلومات الحكومية السرية التى قد تؤثر على مصائر الناس تأثيرا سلبيا، والثالث حق كل مواطن فى أن يستخدم شبكات المعلومات المتاحة وبنوك البيانات بسعر فى متناول قدرة الفرد فى كل مكان وفى كل وقت، والرابع - وهو يمثل ذروة مستويات ديمقراطية المعلومات - ونعنى به حق المواطن فى الاشتراك المباشر فى إدارة البنية التحتية للإعلام الكونى، ومن أبرزها عملية صنع القرار على كل المستويات المحلية والحكومية والكونية.

التجربة الكويتية

يقودنا هذا الحديث عن الديمقراطية إلى التجربة الكويتية والتى اكتملت بعد الخامس من أكتوبر (تشرين الأول) الماضى بالإعلان عن نتائج الانتخابات والعمل بالدستور الذى ارتضاه الجميع كعقد بين الحاكم والمحكوم ينظم سير المجتمع.

والتجربة الديمقراطية فى الكويت. كغيرها فى العالم الثالث، مرت بفترات عديدة من النمو والتقلص لأسباب داخلية

وخارجية مختلفة، وهى كجزء من تجربة العالم الثالث تحتاج أيضا إلى تأصيل فى الممارسة.

هذا التأصيل يتلخص فى كيف يمكن الحفاظ على الحوار الوطنى والسعى الجاد لتحقيق مصالح المجموعة مع وجود اختلافات ورؤى واجتهادات فردية أو لدى مجموعات من الأفراد، وكيف يستمر هذا الحوار وينجح دون أن يعطل أو يعاق، وكيف يمكن أن يستجيب فى بعض الأوقات وبشكل ناجح إلى مصالح قد تكون متناقضة؟

الديمقراطية فى الكويت هى مثال يتكون ويتلاءم ويزدهر نتيجة لفهم المشاركين فيها من مواطنين ومسئولين، ناخبين ومنتخبين أهمية أن تستمر وأن يحافظ على توازنها، نتيجة التجربة والخطأ ونتيجة فهم صحيح لتطور العالم من حولنا.

لقد كان مؤشر النجاح كبيرا عندما تمت الحملة الانتخابية دون تعكر، وكانت حملة انتخابية (متحضرة) إلى أبعد الحدود، وبرغم ما يشوب مثل هذه الحملات الانتخابية حتى فى البلدان الغربية من سلبيات، كانت السلبيات فى الكويت فى حدها الأدنى، وقد شارك عدد من المرشحين فى إلقاء المحاضرات مع مرشحين آخرين فى مقارهم الانتخابية، مع أنه كان بينهم تنافس انتخابى. وتكللت هذه التجربة بالنجاح عندما شارك عدد معقول من أعضاء المجلس المنتخب فى

الحكومة متحملين بذلك مسئولية مضاعفة دفعت بالديمقراطية إلى الأمام خطوة أخرى. إن أهمية التجربة الديمقراطية الكويتية هى أنها تقترب وتتحول إلى ترسيخ المؤسسات بدلا من اجتهاد الأفراد، ويقبل الجميع الحوار تحت قبة البرلمان، بل ويطالب المنتخبون بأن تقوم الصحافة وغيرها من المؤسسات الوطنية بأداء عملها الرقابى عليهم.

وكما أن لكل تجربة ديمقراطية خصوصيتها، فالتجربة الكويتية لها خصوصية أيضا، فهى من حيث الشكل مزيج بين ما يعرف بالنظام الرئاسى والنظام البرلمانى، وهى لا تعتمد الأحزاب المنظمة بل التيارات الفكرية، وهى أيضا تعيش فى وسط اجتماعى وسياسى صغير نسبيا وتنتمى إلى عالم عربى وإسلامى واسع، فيه من المشكلات والمحظورات الكثير.

ولكنها أيضا تجربة تترسخ وتتكيف وتتطور. وهى تأخذ أبعادا جديدة بعد كارثة الاحتلال التى تعرضت لها الكويت كدولة وكيان وشعب، فقد أرادت قوى الاحتلال العمياء أن تطمس هوية شعب صغير متآلف ومتصالح مع نفسه ومع شرعيته، جبل على الحوار والبحث عن الاستجابة للتحديات عبر التفاهم والاعتراف بالآخر، بينما بالمقابل كان يقوم فى الجوار نظام مستبد يعتمد التصفيات والعزل ومعسكرات الاعتقال وطوابير الإعدامات ومطاردة المعارضة حتى فى

الخارج. ومن هنا فإن التجربة الديمقراطية الكويتية كانت تشكل تحديا وتهديدا لذلك النظام فى أساس وجوده، ليس عبر وجود المؤسسات والهيئات الرسمية المنتخبة فحسب، بل وإنما عبر التقاليد الشعبية الراسخة، وفى طليعتها «الديوانية» المنفتحة والمفتوحة على الجميع، وكانت تشكل النقيض العفوى لسياسة سراديب التعذيب والحجرات المغلقة، والهوس الذاتى والطفرات الفردية.. وهو ما جعل من هذه الديمقراطية «المصنعة محليا» تجربة رائدة تحمل قدرا كبيرا من المناعة نتيجة لتراكم الخبرة، وتعتمد المشاركة الشعبية باعتبارها السلاح الأفضل والأفعل فى مواجهة تحديات العصر.

٣

كن شجاعاً واستخدم عقلك

بين نور التسامح وظلمة التعصب

يؤرقنا موضوع التعصب اليوم كما أرق آخرين من قبلنا منهم ابن منظور فى لسان العرب الذى يشرح التعصب فيقول: «وتعصب الرجل أى دعا قومه إلى نصرته والتآلب معه على من يناوئه سواء كان ظالما أو مظلوما. والناقة العصوب هى التى لا تدر لبنا. والعصوب هو الجائع الذى كادت أمعاؤه أن تتيبس من شدة الجوع. وجاء فى الحديث أن العصيب هو من يعين قومه على الظلم» ولا تنتهى معانى هذه الكلمة ومشتقاتها فى صفحات هذا المعجم القديم.. كأن هذه الكلمة كانت تؤرقه قديما بنفس القدر الذى تؤرقنا الآن. وكأنها كانت تضرب فى جذور عالمه المستقر كما نفعل فى عالمنا المعاصر الذى لا يكف عن التحولات ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين.

لقد عادت الكثير من الأمراض الوبائية. تحوصلت الجراثيم وغيرت من صفاتها وبذلك استطاعت أن تقاوم موجات المضادات الحيوية وأن تعود لفرض سطوتها من جديد.. فهل اكتسبت جرثومة التعصب نفس هذه الخصائص؟.. يبدو أن ذلك قد حدث بالفعل.. وإلا ما تفسير تلك الموجات المنتشرة من حركات التعصب والتطرف والإبادة التى تغمر كل مكان فى العالم الآن بدءا من الحركات المتطرفة فى العديد من أقطارنا العربية.. إلى صراعات التمييز العرقى فى الهند وكشمير. إلى

عمليات الإبادة الجماعية فى بورندى ورواندا وسياسات الاقتلاع فى فلسطين المحتلة وحرب الإبادة الدينية والعرقية التى مازالت تدور رحاها بشكل يومى فى البوسنة والهرسك. صراعات دامية لا تهدأ ولا تريد أن تهدأ إلا بعد أن ترى الآخر مقتولا أو مسحوقا أو مبددا. إن موجة التعصب التى تلطمنا الآن تأتى بعد أن فقدت روحها الإيجابية حين كانت دفاعا عن النفس وتجمعا لا مفر منه للذوات البشرية الضعيفة فى مواجهة طبيعية قاسية أو تسلط طاغ فى محاولة للبقاء والوجود. وهو التعصب الإيجابى الذى أنبت العديد من القوميات وحافظ على ثقافتها من الضياع. وتحول إلى تعصب سلبى يهدف إلى تحقير الآخرين وسلبهم حقهم فى العقيدة التى يؤمنون بها والأرض التى يعيشون عليها. هذه السلبية انبعث معها العديد من صيحات القومية الانفعالية التى تمثل خطرا داهما على بقاء الجنس البشرى مثلها مثل التلوث البيئى والانفجار النووى. فالحزازات العرقية التى نشهدها الآن هى تعبير عن عواطف الكراهية العميقة التى كان يكنها كل عرق فى مواجهة الآخر والتى فشلت محاولات بناء الدولة المعاصرة فى دفنها أو محوها.

التعصب إذن هو حركة رجعية مُتخلفة عن عقلانية القرن التاسع عشر. وهو فى حركته العشوائية المدمرة يمكن أن

يضرب خلاصة القوانين والأعراف والقيم التى يقوم عليها تماسك أى مجتمع من المجتمعات ويصيبه بالشروخ العميقة. وما الأفكار المتعصبة التى نسمعها إلا مجرد ضبابية لتبرير عدم العقلانية والجهل والخوف من مواجهة الآخر وعدم تقبله.

مفكرون عرب.. ضد التعصب

وعلى مستوى الفكر العربى الحديث شغلت هذه القضية بال المفكرين العرب على اختلاف البيئات التى جاءوا منها. وقد وقع فى يدى أخيرا وأنا أبحث فى هذه الظاهرة كتاب صغير ولكنه مهم فى موضوعه تحت عنوان «أضواء على التعصب» يحتوى على نصوص كتبها مفكرون عرب عاشوا فى أحقاب مختلفة. بدءا من أديب اسحق الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الماضى إلى فؤاد زكريا وحسن حنفى وناصيب نصار الذين مازالوا يمارسون دورهم التنويرى حتى الآن.

عند قراءة هذه النصوص يتبين لنا كم كانت قضية التعصب والتسامح مهمة بالنسبة لهم كما هى بالنسبة لنا الآن. وكيف أن هذا الموضوع لايزال فى حاجة إلى بحث ونقاش عميقين لفحص هذه الظاهرة الاجتماعية التى أصبحت تتخذ اشكالا عدوانية غاية فى الخطورة. ولعل اختلاف المراحل الزمنية لهؤلاء الكتاب العشرة واختلاف مواقعهم الفكرية مع اتفاقهم

على بحث ظاهرة التعصب يؤكد لنا مدى خطورتها كما تظهر من درجة اهتمامهم. فأولهم هو أديب إسحاق الذى ولد فى لبنان وعاش فى مصر يكتب من منتصف القرن التاسع عشر والعقول لم تتفتح بعد على التيارات الفكرية الحديثة ولم يتأكد للعالم - كما تأكد لنا بعد ذلك - مدى الخسائر التى يمكن أن يحدثها التعصب.

يقول أديب إسحاق: «حد التعصب عند أهل الحكمة العصرية غلو المرء فى اعتقاد الصحة بما يراه، وإغراقه فى استنكار ما يكون على ضد ذلك الرأى،حتى يحمله الإغراق والغلو على اقتياد الناس لرأيه بقوة، ومنعهم من إظهار ما يعتقدون، ذهابا فى الهوى فى ادعاء الكمال لنفسه وإثبات النقص لمخالفيه من سائر الخلق».

إنه إذن عدم قبول «الرأى الآخر» كما نفهمه اليوم. ويدلل أديب إسحاق على المضرة الناتجة من ذلك الموقف الفكرى حيث يقع معتنقوه فى إسار وهم من امتلاك الحقيقة الكاملة.

دليل أديب إسحاق أن التشبث بالرأى الواحد وتأكيد صحته المطلقة هو خطأ كبير لأن الإنسان ولكونه إنسانا يعجز فهمه عن إدراك الكثير من أسرار هذا الوجود، وأنه ككائن بشرى ممتنع عن الكمال، فقد كانت هناك (حقائق) فى عصر ما تبين أنها (أوهام) فى عصر آخر، ويدلل على ذلك بالقول

بسكون الأرض أو بانقسام البسيطة إلى سبعة أقاليم، هذه كانت حقائق فى وقتها، ظهر عدم صحتها فى وقت لاحق.. ويقول فى تعبير تشويه السخرية: «ماذا تقول أمم الذين تعصبوا لهاته الأوهام على من كان فى ريب منها فألزموه الصمت والخسف».

وفى التساهل أو التسامح يحدد أديب إسحاق فهمه له بهذا المعنى: «ورضاء المرء اعتقاد الصحة فيه (الرأى) مع احترامه لرأى سواه» أن هذا المفهوم «ترشد الحكمة إليه ولسوء الحظ تغلب الشهوة عليه» ويلمح الكاتب إلى صعوبة الأخذ به عند بنى البشر، فالتسامح «كالحرية يشتاقها الإنسان مرءوساً وينكرها رئيساً».

ولقد تنبه الكاتب إلى منعطف خطير فى موضوع التعصب والتساهل، وكأنه يدعو إلى محاولة ضبطه وإلا أصبح الأمر سجالا فهو يقول: «فلكم رأينا من فئة مستضعفين يطلبون التساهل ويدعون إليه بكل لسان ويثبتون له الوجوب من كل الوجوه، فلما أن قامت دولتهم وقويت شوكتهم وصار إليهم الأمر والقوة كانوا من الغلاة المتعصبين» ومخرجه من ذلك أن التسامح يجب ألا يكون صادرا من اللسان أو من عاطفة مؤقتة ولكن من واجب يتم «تقييده بمبدأ متين من الحق وتأييده بعماد مكين من اليقين».

وعندما ننتقل إلى مفكر آخر هو جمال الدين الأفغاني الذى انتُقىَ نصُّه من مجلة «العروة الوثقى» - التى أصدرها فى باريس بالتعاون مع الشيخ محمد عبده وعاشت ثمانية أشهر من مارس إلى أكتوبر ١٨٨٤ - نرى أن معالجة الأفغانى لموضوع التعصب والتسامح تأتى فى إطار حركة إصلاح أحوال المسلمين وقتها ومقاومتهم للاستعمار، كان الشيخ محمد عبده مصريا معتدل المزاج، إلا أن الناس اختلفوا فى الأفغانى ومازالوا، ولكنه كان ميالا إلى التغيير عن طريق السياسة. وفى معالجته للتعصب تراه يحبذ المعتدل منه فهو يقول: «التعصب وصف كسائر الأوصاف له حد اعتدال وطرف إفراط وتفريط» وبعد هذا نراه يحبذ التعصب بقوله: «فى التعصب وصف للنفس الإنسانية تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه» لأن التعصب فى رأيه يؤدى إلى التنافس. «والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص أعظم باعث على بلوغ أقصى درجات الكمال فى جميع لوازم الحياة بقدر ما تسعه الطاقة».

وعند إبحارنا فى النص الذى وضعه الأفغانى حول الموضوع نجد أنه يرى أن التعصب الدينى هو أحد شروط النضال ضد المستعمر فهو يستهجن قول المخالفين لذلك بكلمات قوية: «ثغثغ جماعة من متزندقة هذه الأوقات فى بيان

مفاسد التعصب الدينى، وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم لدفع ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف، هو الذى يصدهم عن السير إلى كمال المدنية، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم، ومن رأى اولئك المثغثغين أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية..».

وبرغم نظرة الأفغانى تلك التى تبدو كأنها دفاع عن التعصب، فإننا سرعان ما نراه يعود للدعوة إلى الاعتدال فهو يقر فى إكمال نصه السابق بالقول: «قد يطرأ على التعصب الدينى من التغالى والإفراط مثل ما يعرض على التعصب الجنسى (العرقى) فيفضى إلى جور وظلم وربما يؤدى إلى قيام أهل الدين لإبادة مخالفيهم».

بمقارنة النصين نجد أن الأفغانى له هدف واضح من الدفاع عن التعصب وذلك لنيل حقوق الناس ودرء المخاطر، لا إلى إلحاق الأذى بالآخرين أو إرهابهم، فهدفه فى ذاك النص واضح عندما يوجه خطابه المباشر إلى الأمة: «أيتها الأمة المرحومة، هذه حياتكم فاحفظوها ودماؤكم فلا تريقوها، هذه روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ولا تستهويكم الترهات، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم واعتصموا بحبل الرابطة

الدينية، التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها التركى بالعربى بالفارسى بالهندى، والمصرى بالمغربى».

من هذا المنطلق وفى ضوء الفروق الموضوعية والسياسية القائمة فى ذلك الوقت نظر الأفغانى إلى التعصب المعتدل كوسيلة لإنقاذ الأمة، وفسر عناصر التعصب المذموم والمغالاة فيه، وأظهر مساوئها وما تتركه من آثار سلبية.

الريحانى والتساهل الدينى..

نص آخر فى مطلع القرن لأمين الريحانى، وهو محاضرة حول التساهل الدينى ألقاها فى جمعية الشباب المارونيين فى نيويورك فى عام ١٩٠٠. والريحانى الذى أصبح كاتبا معروفا بعد رحلاته الشهيرة إلى جزيرة العرب ومؤلفاته عنها فى كتاب «ملوك العرب» الذى ترجم إلى العربية وذاع صيته وكذلك من خلال كتابه الأشهر «كتاب خالد» الذى لقى إقبالا لدى قراء الإنجليزية. هذا الكاتب الشهير يحدث بعض قومه من المهاجرين عن التسامح الدينى فيقول: «التساهل هو التسامح بوجود ما يخالفك، وهذا تحديد عام أما الخاص فهو إجازة العقائد والطقوس التى تخالف العقائد والطقوس المألوفة. التساهل الدينى هو الاعتبار والاحترام الواجب علينا إظهارهما نحو المذاهب المتمسك بها آخرون من أبناء جنسنا، وإن كانت هذه المذاهب مناقضة لمذاهبنا» ثم يذهب إلى القول:

«إن التساهل غير مطلوب فى الأمور الدينية وحدها بل فى كل الأمور التى تطرأ على عقول البشر ويعمل بها الكبار والصغار».

ويقارن الريحانى بذهنية ثاقبة بين التعصب والتساهل فهو يراهما أنهما «ضدان وثنيوية من ثنيويات الطبيعة كالنور والظلمة والخير والشر والعدل والظلم.. فلولا أحدهما ما كان الآخر».

وفى مقارنة أخرى يقول: «التساهل هو الابن والتعصب هو الأب وليس فى العائلة البشرية برمتها أب وابن غير منسجمين إلا هذان الاثنان، فاستعرت بينهما نيران الفتن وحمى وطيس القتال، وكان الفوز أحيانا لهذا وأحيانا لذاك».

وينتقل إلى مجال آخر من التعصب فيقول: «ابتلينا فى أيامنا هذه بتعصب سياسى أو دولى - إذا شئتم - لم نر له مثيلا فى التاريخ بأسره، فما هذه الحروب التى تشهرها الدول الأوربية على الشعوب الضعيفة والصغيرة إلا نتيجة التعصب الدولى»، ثم يضيف: «التساهل الدينى يشمل الآن الدول الأوروبية بمعاملاتها مع بعضها البعض ولكنه لا يشمل الشعوب التى يدعوها الأوروبيون متوحشة، فالدول لا تتساهل مع هؤلاء المساكين الضعفاء».

ترى ماذا كان الريحانى سيقول لو شاهد على شاشة

التلفاز الملون كيف تبقر البطون وتسبى النساء وتهتك الأعراض فى البوسنة على سبيل المثال لا الحصر؟!

ويعود الريحانى من جديد إلى الفكرة التى ناقشها أديب إسحاق وهى محدودية المعرفة الإنسانية ويستشهد - وهو المسيحى المارونى - بكتابات المسلمين كالسيوطى وابن دريد والأصمعى والأخفش وغيرهم الذين ناقشوا محدودية القدرة الإنسانية، ويروى الرواية التراثية الآتية: (قال الزعفرانى: كنت يوما بحضرة أبى العباس ثعلب فسئل عن شىء فقال لا أدرى، فقيل: كيف لا تدرى وإليك تضرب أكباد الإبل، فقال: لو كان لأمك تمر بقدر ما لا أدرى لاستغنت، سئل «الشعبى» عن مسألة فقال: لا أدرى فقيل له: فبأى شىء تأخذ رزق السلطان؟ فقال : لأقول فيما لا أدرى لا أدرى).

وتتواصل نصوص الكتاب، المقالات المعاصرة لكتّاب يشغلهم نفس الهم وتثيرهم تداعيات أزمة التعصب التى لم تعد تجدى فيها الكلمات.

التاريخ الدامى للتعصب..

كان تاريخ التعصب هو تاريخ من كان يصر دائما على احتكار الحقيقة واحتكار الحق الأوحد فى الحياة والبقاء. وربما كان ما مر فى التاريخ البشرى من آثار هذه الأزمنة هو بمثابة الإرهاصات الأولية للمجازر التى يشهدها عالمنا

المعاصر، فقد اثبتت الاختلافات الدينية والعرقية ان للثأر ذاكرة عنيدة لا يمحوها مرور الوقت ولا تبدل الدول ولا تراكم القوانين. كان دائما هناك احتكار للحقيقة فى وقت التحولات الدينية الكبير، وكان هناك احتكار للبقاء فى وقت الأزمات الاقتصادية والمجاعات.. وخلال هذه التحولات القسرية ارتدى التعصب مختلف الأقنعة وزين نفسه بمختلف الشعارات كى يبرز الطغيان الذى تقوم به جماعة ضد أخرى.

ولعل أقدم تاريخ للتعصب الدينى يعود إلى مصر القديمة عندما مارسه كهنة آمون سدنة الدين الرسمى ضد المتمردين عليهم من أنصار «اتون» أول دين قديم نادى بالتوحيد. منذ ذلك الوقت تشكلت ملامح التعصب الدينى بين الذين يحافظون على سطوتهم ومكتسباتهم ويأخذون من الدين ستارا للسلطة، وبين الثائرين الذين يطمحون إلى التغيير والتجديد. حدث هذا أيضا عندما ألقى أباطرة الرومان بالمسيحيين الأوائل للأسود الجائعة. ومارس المسيحيون الأوروبيون بعد ذلك ضد من خالفهم فى العقيدة وأبادوا الهنود الحمر فى العالم الجديد بحجة إدخالهم فى الكاثوليكية. ونهضت محاكم التفتيش وسط ظلمات العصور الوسطى على أثر سقوط الأندلس لحرق الهراطقة وإرغام بقايا المسلمين فى أسبانيا على التنصر.

وشهد التاريخ الإسلامى فى فتنته الكبرى أقصى أنواع الصراع المتعصب حين رفعت كل فئة القرآن على أسنة السيوف وهى تزعم أنها وحدها صاحبة الحق المطلق. ومازالت هذه السيوف بشكل أو بآخر مشرعة حتى اليوم.

وقد اتخذت اشكال التعصب الدينى طابعا مؤسسيا ودوليا حين سارت جيوش الفرنجة تحت راية الصليب كى تحرر الأراضى المقدسة فى فلسطين من «الكفرة»، وشنت فرنسا حملتها ضد رعاياها من البروتستانت المناهضين للمذهب الرسمى للدولة كى تجلوهم عن أرضهم وتنزع عنهم ممتلكاتهم. وفعلت إنجلترا العكس فأجلت الآلاف من الأيرلنديين الكاثوليك عن موطنهم كى تحل بدلا منهم رعاياها البروتستانت الطيبين.. ودائما كان التعصب الدينى قناعا تربض خلفه تلك الأطماع البشرية التى لا تقنع إلا بالاستيلاء على ما يمتلكه الآخرون.

ولم تهدأ أيضا الصراعات التى أثارها التعصب العرقى. بل لعلها كانت أشد عنفا حين اتخذت من الإبادة وسيلة أساسية لتدمير الآخر دون أى فرصة للتقارب بين الأعراق المتناحرة.. ولعل أول تعصب عرقى فى التاريخ هو الذى قام به الملك الآشورى بتجلاست فى القرن السابع قبل الميلاد حين قام بترحيل نصف سكان الأراضى التى غزاها ليحل بدلا منهم

أقواما من عرقه تابعين له. ومازالت عمليات الصراع العرقى تمارس فى نفس المكان مع الأسف الشديد عندما جففت بحيرات الأهواز لتهجير من يسكنون فيها.. وأبيدت القرى الكردية بالكيماويات على يد النظام العراقى.

لقد أبيدت بسبب التعصب العرقى حضارات كاملة كانت تمتلكها قبائل الانكا واليوكى والكوماتشى بعد اكتشاف أمريكا على يد الغزاة البيض، وشهدت أوروبا موجات متعاقبة من الصراعات شملت كل الأعراق والجنسيات التى عاشت فى دولها. وشارك الأتراك أيضا فى هذا التاريخ الدامى عندما حاولوا إبادة اليونانيين والأرمن والأكراد.

وارتفعت درجة التعصب العرقى إلى أقصى مداها مع اشتعال الحرب العالمية الثانية حين أعلن الجنس «الآرى» عن تفوقه مؤكدا ذلك من خلال الجيوش الألمانية التى انتهكت كل الحدود وبواسطة أفران الغاز التى حولت أجساد كل من يخالفهم فى العرق أو الرأى إلى رماد. لم يكن اليهود هم فقط وقود هذه الأفران. ولكن لابد أن آثار هذا التعصب الأعمى قد أصابتهم هم بلعنة العمى فأخذوا يسعون لنيل هذا الثأر من أجساد أطفال فلسطين الأبرياء.

إبادة واغتصاب..

وبرغم الثمن الذى دفع أثناء الحرب العالمية الثانية فلم تبرأ

أوروبا بعد من داء التعصب. وما يحدث فى البوسنة شاهد على ذلك. فقد امتزجت فى هذه الحرب التى تدور رحاها الآن عوامل التعصب العرقى والدينى معا. منذ ثلاث سنوات والأعراق التى كانت تضمها دولة واحدة لوقت قريب تتصارع بلا هوادة فتحرق القرى وتقصف المدن وتبيد السكان. إن الصرب الذين كانوا دوما محاطين بإمبراطوريات كبرى تشل طاقتهم العدوانية قد وجدوا الفرصة أخيرا لتفجير كل هذه الطاقات بأقصى قدر ممكن من الغضب ضد بنى وطنهم.. فقط لأنهم مخالفون لعقيدتهم.

أضاف «الصرب» لمستهم الخاصة لتاريخ الحروب العرقية حين طوروا حرب «اغتصاب النساء». وقد كانت النساء دوما من أبرز ضحايا الصراعات العرقية. ولكن هذه هى المرة الأولى التى أقيمت فيها معسكرات خاصة للاغتصاب. وعلى حد تعبير الجندى الصربى بوريسلان هيراك الذى تم أسره بواسطة البوسنيين: «لقد كان الأمر اليومى هو قتل الجنود واغتصاب النساء.. وكانوا يكررون علينا دائما حتى لا ننسى». وقد بلغ عدد النساء اللائى تم اغتصابهن حوالى ٥٠ ألف امرأة وتم حبس معظمهن تحت رقابة مشددة حتى لايجهضن أنفسهن، ولكى يلدن أطفالا يحملن الدماء الصربية. وهكذا شهد الصراع العرقى محاولة زرع السلالة المعادية فى

البطون التى ترفضها. وعلينا أن نتخيل صورة هذا الجبل من الأطفال الذين جاءوا إلى الحياة قسرا بهذه الوسيلة المروعة. وقد وجد «الصرب» أنهم أمام العديد من القرى التى لا يجدى معها استخدام المدافع فى تهجير السكان فيكون الاغتصاب سلاحا أكثر فاعلية، وهو الدرس الذى تعلموه وطوروه بعد أن مارسته العصابات الصهيونية من قبل مع سكان مدينة بئر سبع الفلسطينية.

بقعة ضوء للتسامح..

وسط هذا الوباء من التعصب بكل أشكاله وأنواعه.. هل توجد بقعة ضوء «للتسامح»؟.. هل يوجد صوت خافت فى صندوق «باندورا» الذى ألقى علينا كل هذا القدر من الآلام؟. يقول د.حسن حنفى فى تفسيره للتسامح : «إنه نقطة البداية للتعامل مع البشر. حين توجد أذهان متفتحة تمارس التسامح من تلقاء نفسها وتشعر بضرورة تجاوزه إلى درجة أعلى. وأكثر درجات التسامح إيجابية هو أن نترك للشخص حرية التعبير عن آرائه..».

ولكن التسامح أمر صعب، فالنفس البشرية التى جبلت على الصراع من الصعب أن تسلم به كحقيقة بديهية. فلا يمكن أن تكون متسامحا وسط مجتمع لا يتسامح معك، أو فى مواجهة بيئة طبيعية تناصبك العداء. إن محاولات الفلاسفة والمفكرين

لإرســاء قـيم التـســامح هى نفس المحـاولات الدءوب لتـحـويل حياتنا خـارج إطار الغـابة البدائية التى لا تـخـضـع إلا لقـانون البـقـاء للأقـوى. ونـحن فى أمس الـحـاجـة إلى التـسـامح، ذلك التسامح القوى، ذلك التسامح الذى لا يتحول فيه قبولنا للرأى الآخر إلى عـجـز عن مـواجـتـه، والتـعـايش مـع العـرقـيـة إلى نوع من الإذعان لسيطرتها.

إن الدين الإسـلامى من أكثر الأديان حـضـا على التـسـامح وهو الدين الـوحـيد الذى يعـتـرف بالأديان التى تخـالفـه ويطلق على أهلها «أهل الكتاب» إلا أن المجتمع الإسـلامى قد شـهـد، ومازال يشـهد، صورا من أسوأ أنواع اللاتسامح التى اقترنت بالعنف الدمـوى. وكـمـا يؤكـد الدكـتـور جـابر الأنصـارى أن المشكلة أساسا (ليس مشكلة العربى والمسلم فى التسامح مع غيره بقدر ما هى مشكلته أولا وقبل كل شىء فى التسامح مع نفسـه ومع أبناء جلدته وقومه ودينه، ومنذ القدم والعربى يتألم من «ظلم ذوى القربى الأشد مضاضة على النفس»).

إن البيئة تفرض ضرورتها على الناس وتشكل طباعهم. فى نظرتنا لمجتمعات التسامح يجب أن نفرق بين عربين - على حد تعبـيـر د.الأنصـارى - عـرب البيئـة الصـحـراوية الذين تعـودوا الصـراع اليومى من أجل البـقـاء بحـيث يصـبح التـسـامح هنا شيئا من التهاون فى حق الذات وحق الجماعة. فـهناك صراع

دائم على الماء والكلأ ورغبة عارمة فى الثأر حتى لا تضيع هيبة القبيلة وتهون على الناس وقديما سئل أعرابى: أيسرك أن تدخل الجنة وتتسامح مع من أساء إليك. فقال: بل آخذ ثأرى وأدخل النار.

وهناك عرب البيئات الحضرية أى الذين سكنوا تجمعات المدن الصغرى فى الوديان والواحات وعلى حواف الصحراء وكذلك عرب الطبيعة النهرية التى يتعامل فيها الناس مع نهر يمر عليهم قبل أن يمر على غيرهم. وعليهم جميعا أن يتفاهموا على تقسيم هذه المياه ولابد أن يسود بينهم مناخ من التسامح والتآلف يفرضه انتظار الفيضان ومواقيت الغرس والبذر والحصاد.

إن اقتنعنا بهذا المنطق فإن المجتمع المصرى العربى هو أقدم الأمثلة لحضارة النهر التى تؤمن بالتسامح والتكافل منذ آلاف السنين.. فكيف يمكن أن نجد التبرير لتلك الحركات المتعصبة وحوادث العنف التى أصبحت فى ازدياد مستمر والتى تهدد بالانتشار إلى دول عربية أخرى. هل أحدثت الأزمات الاقتصادية والضغوط الاجتماعية والعنت السياسى أنواعا من التشوهات على تلك الشخصية بحيث جعلها تخرج عن طبيعتها؟ هل تآكلت فى داخلها خلايا التسامح التقليدية بحيث أصبحت أضعف من أن تقاوم جرثومة التعصب

فانقادت له.. بل وبالغت فى هذا الانقياد..؟ إنه علامة إنذار خطيرة علينا أن ننتبه لها جميعا. فطبيعة الوادى الضيق فى مصر لم تعد متسامحة كما كانت وعلينا ألا نأخذ طباع الناس التاريخية نوعا من المسلمات.. بل علينا أن ندرك أن كل شىء قابل للتحول.. وللتشوه أيضا.

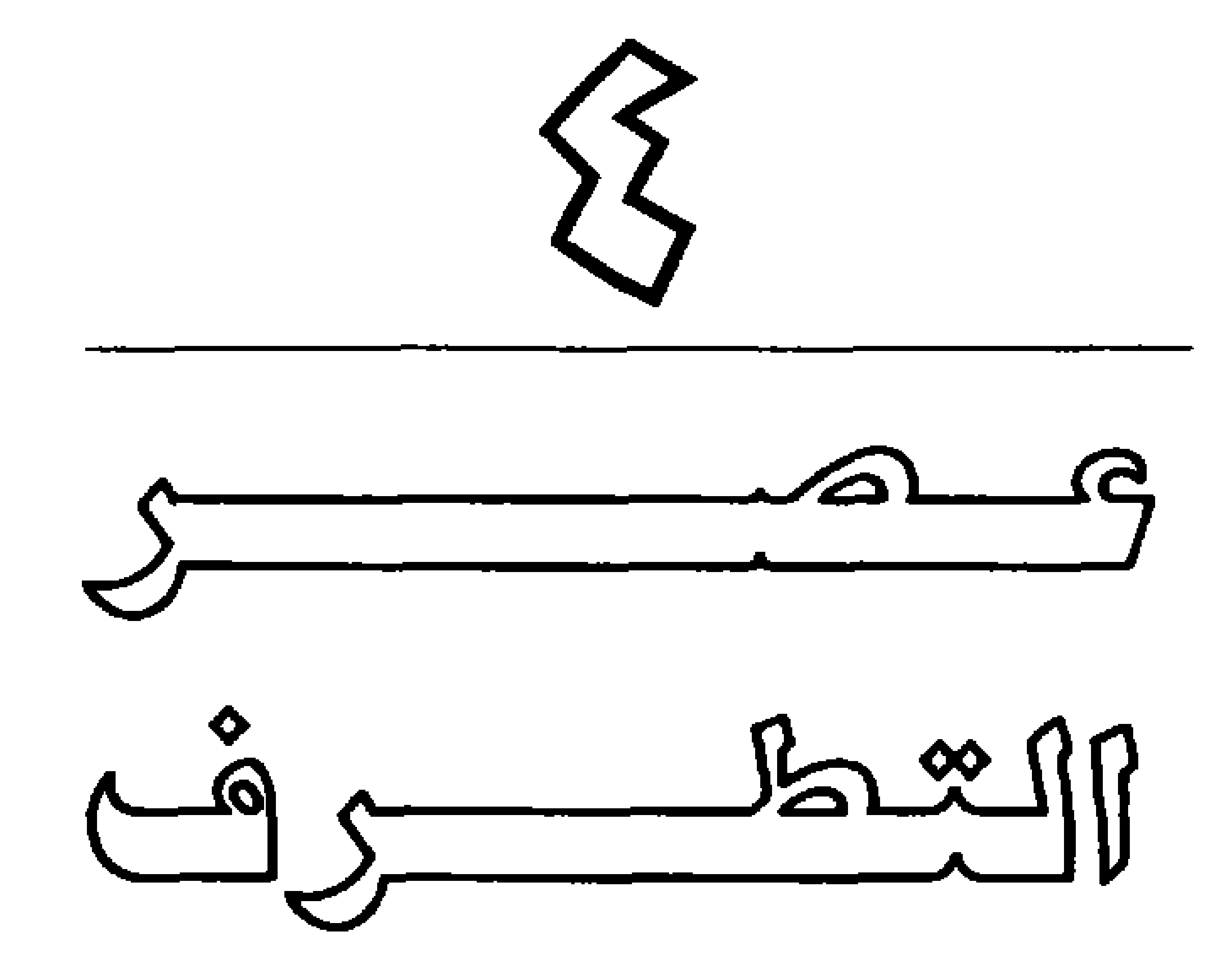
وطريق التسامح طويل. لا يبدأ فقط من إعادة النظر إلى المسلمات التى تتحكم فى سلوكنا كبالغين. ولكنها تبدأ أيضا من مراقبة السلوكيات العسكرية التى نزرعها فى نفوس أطفالنا وتزرعها مناهج الدراسة وكذا وسائل الإعلام. إن حب العرقية والاستعلاء قد يصيبهم بمشاعر من التفوق الزائف بحيث يتعاملون مع الآخرين كأنهم ينتمون إلى جنسيات أو أعراق أقل منهم.

إننا فى حاجة ماسة إلى مراجعة مناهجنا الدراسية وإلى استئصال الخطابات الإنشائية الوطنية الساذجة وألا نشجع نمو مشاعر العزل العنصرى بين الأطفال من جنسية وجنسية أخرى. كما أننا يجب أن نحثهم على تفهم الثقافات الأخرى وتذوق ما فيها من قيم جمالية وأخلاقية. فالتسامح فى حقيقته تربية مستمرة. فمشاعر ضبط النفس وقبول الآخر والإدراك بأننا نعيش فى عالم واحد تشترك فيه الأفكار المختلفة وتتعايش فيه الأعراق والجنسيات جنبا إلى جنب هو نوع من

التسامى فوق المطامع والمصالح الضيقة.. إن التسامح يقضى بأن نرى مصالحنا فى إطار مصالح الآخرين.

فالعصاب - كما قال ابن منظور فى لسان العرب - هو الرباط الذى يشد على العين فلا نرى من خلاله إلا الظلام.. ونحن فى أمس الحاجة إلى بقعة من الضوء.

لم أكتب ما كتبت كى أقارن فقط بشكل نظرى بين التعصب والتسامح ومنزلة هذا وذاك من الفكر والحضارة. بل لأؤكد أن الشجاعة فى استخدام العقل هى تحكيم بين الإفراط والتفريط، وإن دعوة التسامح هى الأكثر قدرة والأقوى منطقا لسبب بسيط وواضح هو أن التعصب يولد التعصب والتسامح يولد الألفة والمحبة والتعايش.


٤
عصر
التطرف

يميل الإنسان إلى تقسيم حياته إلى حقب ومفاصل تاريخية وضعها هو بنفسه ثم تقيد بها، وإذا كانت الحقب القصيرة لا تشعرنا برهبة عند مرورها، فمرور الساعة غير مرور الأسبوع ومرور الشهر غير مرور السنة، إلا أن الحقب الكبرى كمرور قرن من الزمان والحوادث الكبيرة كانتهاء حرب عظمى، تجعل الإنسان يقف أمامها متأملا محاولا سبر غورها أو الخروج بدروس مستفادة منها، ومع اقتراب القرن العشرين من نهايته نجد سيلا من الكتب تؤرخ لهذا القرن الذى عانت فيه الإنسانية من جهة وانتصرت فيه من جهة أخرى، كما لم تعان أو تنتصر من قبل فى تاريخ البشرية كله.

ويعجب المرء عندما ينظر إلى ما مر به - خاصة عندما ينتصف به العمر - فيجد أن عمره عبارة عن مجموعة من الحقب العشرية أولاها وثانيتها تربوية وثالثتها مرحلة تكيف مع مطالب الحياة ورابعتها وخامستها عمل وممارسة، ثم استعداد لمغادرة الأرض للانضمام إلى المتوفين تحت ثراها. وعادة ما يسأل الإنسان نفسه فى وقت من الأوقات: ماذا تركت كى يذكرنى الناس؟

ومعظم الناس تخبو ذكراهم بعد سنوات قليلة، إلا فى أضيق الحدود، فقط الشريرون والمصلحون تبقى ذكراهم أطول، وياللمفارقة!

وفى محاولة متميزة لكاتب متميز وقع بين يدى كتاب مثير للاهتمام، عنوان «عصر التطرف ـ القرن العشرون القصير». ولأن هذا القرن هو قرن الانتقال والاتصال، فحياة الكاتب تساوى، مع ذلك، مدة القرن القصير (الذى يعتقد الكاتب أنه فقط يزيد على العقود السبعة بقليل) بأمانة. فـ «إريك هبزبون» (Eric Hobsbawn) الذى ولد فى الإسكندرية سنة ١٩١٧ وتعلم فى فيينا وبرلين ولندن، كما عمل فى جامعات بريطانيا والولايات المتحدة، يعتقد أن القرن العشرين يتوازى فى جوهره مع حياته وهو مؤرخ ذائع الصيت له مجموعة كتب منها «عصر الثورة» و«عصر الرأسمالية» و«عصر الإمبراطورية»، و«عصر التطرف» وهو كتابه الأخير الذى صدر فى طبعته الأولى سنة ١٩٩٤.

ويبدو أن جهد الكاتب قد تركز فيما كتبه ـ سواء فيما سبق أو فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا ـ على تاريخ أوروبا، أو بالأحرى تاريخ الغرب وإفرازاته المختلفة على القارات الأخرى، حيث عالج فى كتاب «عصر الثورة» إرهاصات التحولات العظيمة فى أوروبا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بين نهاية القرن الثامن عشر، ومنتصف القرن التاسع عشر حيث واكبت التغيير الاقتصادى العميق والتوسع الاستعمارى مآس اجتماعية حتى فى داخل أوروبا

وولدت أفكار جذرية للتغير السياسى .

وفى كتابه «عصر الرأسمالية» عالج الفترة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهايته وما تلا ذلك من فتوحات واكتشافات جغرافية أوروبية فى العوالم الجديدة غير المعروفة، ثم فى «عصر الإمبراطورية» عالج الظاهرة التى انتهت - كما يرى - ببدء الحرب العالمية الأولى وهى صعود وسقوط الإمبراطوريات.

والعجيب أن هذا المؤرخ ينظر إلى تاريخ القرن العشرين على أن زبدته هى بين ١٩١٤ و١٩٩٠ أى بين تاريخ قيام الحرب العالمية الأولى وتاريخ انهيار الاتحاد السوفييتى، لذلك فإن العنوان الفرعى لكتابه وهو «تاريخ القرن العشرين القصير» يعبر تماما عن رؤيته.

وهو يرى فى هذا الفاصل الزمنى أهم وأعمق تطور تاريخى وحضارى شهده الإنسان حتى الآن. فالقارئ المعاصر للكتاب - كما يرى المؤلف - هو ذاته حصيلة هذه الفترة سواء ولد هذا القارئ فى فترة ما بعد الحرب الأولى أو بعد ذلك بعقدين أو ثلاثة، فلابد أنه تأثر بهذه الحوادث بشكل مباشر أو غير مباشر، واعتبر المؤلف أن الكتابة عن القرن العشرين وعن هذه الفترة خاصة، (بين ١٩١٤ و١٩٩٠) وكأنها تأريخ شخصى عاش وسمع وتعامل مع حوادثه وليس ككتبه

السابقة التى استند فيها على مراجع مكتوبة من أناس آخرين؛ فهو يقول: «إن فترة حياتى تتزامن مع معظم الفترة التى يعالجها هذا الكتاب، ومنذ نعومة أظفارى وأنا مهتم بالشئون العامة، بمعنى أننى راكمت وجهات نظر كمراقب أكثر منى باحثا، لذلك السبب فإنى فى كل عملى المهنى كمؤرخ قد تفاديت العمل والكتابة عن فترة ما بعد ١٩١٤، كما عملت فى تخصصى وهو القرن التاسع عشر، والآن أعتقد أنه بالإمكان دراسة الفترة بين ١٩١٤ (بداية الحرب العالمية الأولى) و١٩٩٠ (تفكك وسقوط الاتحاد السوفييتى) كتاريخ مختصر لكل حوادث القرن العشرين».

لماذا هذه الفترة؟

فى العلوم الاجتماعية يشيرون إلى (الملاحظ المشارك) وهو الشخص الذى يشارك فى حياة الآخرين ونشاطهم، وفى نفس الوقت يلاحظ هذا النشاط ويسجله وينقده أو يخرج بتعميمات حوله، لكن الأهمية التاريخية لهذه الخبرة (المشاركة) فى مواجهة القرن العشرين لا تعتمد على أن يكون الإنسان موجودا ومعايشا لمناسبات تاريخية عظيمة، أو حتى قابل أشخاصا ورجال دولة وصناع تاريخ، ولكن الأكثر فاعلية أن هذا القرن بالذات وما أنتجه من وسائل اتصال وتراكم معلومات من الخبرة فى الصحيفة إلى المقابلة التليفزيونية قد

مكن المؤرخين من الاستفادة من تراكم معلوماتى لم يسبق له مثيل، وكذلك الاستفادة من مساحة الحرية فى الكتابة لم تكن مسبوقة، فلم يعد الشرط التقليدى لكتابة التاريخ أن نكتبه بعد انقضائه، بل إن توافرت لنا الشروط الموضوعية نكتبه ونحن نعايشه.

لقد لعبت الصحافة دورا بارزا فى توثيق حوادث القرن العشرين كما لم يلعبها أى مصدر وحيد لتسجيل حوادث فى أحقاب تاريخية أخرى، لذلك نجد الكاتب يعتمد اعتمادا كبيرا على مصادر المعلومات فى الصحافة إلى درجة أنه يعترف بأنه لا يمكن كتابة تاريخ التغير الاقتصادى والاجتماعى والثقافى لهذه الفترة دون الاعتماد على هذه المصادر.

لقد كانت السنوات الأولى من القرن العشرين تابعة لحوادث القرن التاسع عشر، ووقوعها حسابيا فى القرن العشرين لا يعنى أن بدايته كانت هناك. بداية القرن العشرين كانت فى تفجر الحرب العالمية الأولى والصراع الدولى الصاخب على المستعمرات والأسواق الجديدة، كما أن نهايته هى سقوط وتفتت الاتحاد السوفييتى لأن ما سيحدث فى السنوات التى تلى ذلك من بقية القرن ما هى إلا نتائج مباشرة أو غير مباشرة لذلك السقوط المدوى. هذه الفترة الحرجة والحيوية من تاريخ العالم هى القرن العشرون بكل إيجابياته وسلبياته،

وكى يدلل الكاتب على دقة اختياره يفتتح الكتاب بالإشارة إلى زيارة الرئيس فرانسوا ميتران فى ٢٨ يونيو ١٩٩٢ غير المعلنة، وغير المتوقعة، إلى مدينة سراييفوا التى كانت وقتها بؤرة حرب البلقان الحديثة وقد سفحت عندها دماء أكثر من ١٥٠ ألف ضحية من الأطراف المختلفة.

وكان هدفه تذكير العالم بجدية ما يحدث فى البوسنة، لقد أعجب العالم بشجاعة ميتران ومرافقيه القليلين فى زيارة مدينة محاصرة قد تتعرض للنار فى أية لحظة، لكن الأهم من ذلك والذى لم يلاحظ فى حينه، هو: لماذا اختار ميتران زيارة سراييفو فى ذلك اليوم بالذات ٢٨ يونيو؟ لأن ذلك اليوم هو تاريخ اغتيال شخصية أخرى وقع فى ١٩١٤ فى سراييفو، حيث اغتيل ولى عهد النمسا والمجر (الارشيدوق) «فرانز فرديناند» الذى قاد اغتياله فى ظرف أسابيع قليلة إلى حرب عالمية ضروس. وعند أى مثقف أوروبى كالرئيس ميتران فإن العلاقة بين التاريخ والمكان والتذكير بالكارثة التاريخية السابقة هو تذكير للعالم بأن الأخطاء السياسية والحسابات المغلوطة قد تقود إلى كارثة أخرى جديدة، لكنها هذه المرة يمكن أن تكون أعظم وأكثر تأثيرا. وما هى الخطوة الأكثر لفتا للأنظار لخطورة ما يحدث فى البوسنة أكثر من أن يختار رئيس جمهورية فرنسا زيارة رمزية كتلك التى قام بها، ولكن

لم ينتبه لهذه اللفتة غير بعض كبار السن وبعض المؤرخين، لأن الذاكرة التاريخية لم تعد نشطة.

السؤال الكبير

تحطيم الماضى أو تحطيم الآلية الاجتماعية التى تربط بين خبرة حديثة وأحداث ماضية مشابهة عاشها جيل آخر هى إحدى ظواهر نهاية القرن العشرين، فمعظم الرجال والنساء فى نهاية القرن العشرين عاشوا فى حالة من الانقطاع عن حوادث التاريخ السابقة. هذا يجعل المؤرخين والذين عليهم أن يتذكروا ما نسيه الآخرون متهمين فى نهاية الألفية الثانية أكثر من أى وقت مضى باستعادة ما وقع من أحداث سابقة.

لقد وضع الكاتب أمامه سؤالا حاول أن يجيب عنه، والسؤال هو: لماذا أخذت حوادث القرن العشرين الطريق الذى أخذته وكيف ترابطت مع بعضها البعض؟

إنها محاولة لإنعاش وتصحيح الذاكرة العامة، لأن الكاتب - وكثيرا من القراء - قد عاشوا هذه الحوادث، ولأن المؤرخ ينظر إلى الأمور من منظور الحوادث الرئيسية، لأنها (أى هذه الحوادث) هى التى تبقى فى الذاكرة ويرددها الناس وتتسمى بأسماء أبطالها أو ضحاياها الشوارع والميادين وترفع النصب التذكارية. كما أن التأثير الشخصى له قدر كبير فى البقاء فى قاع الذاكرة، كما يذكر المؤلف كونه ابن الخامسة

عشرة لن ينسى ٣٠ يناير ١٩٣٣ فقد عرف - بينما كان هو وأخته الصغرى عائدين من المدرسة - من عناوين الصحف أن هتلر قد انتخب مستشارا لألمانيا!

العالم الذى تشرذم فى نهاية الثمانينيات من هذا القرن هو نفسه الذى تكون وتأثر بقوة بالثورة الروسية سنة ١٩١٧، لقد تأثرنا جميعا بها، وكمثال فقد تمحور تفكيرنا فى وصف الاقتصاد «الصناعى الحديث» بمفهومين متخالفين (الرأسمالية) و(الاشتراكية). مفهومان ينقض أحدهما الآخر، واحد يُفهم على أنه الاقتصاد الذى ينظم على شاكلة الاقتصاد فى الاتحاد السوفييتى والثانى بقية الدول الغربية. ولابد من القول إن ذلك التقسيم كان عشوائيا وإلى حد ما سطحياً والذى يمكن أن يفهم فى ضوء مفهوم تاريخى محدد ولكنه السائد.

نحن لا نعرف ماذا سيقدم لنا التاريخ والسلوك فى المستقبل، ولكننا نعلم بشىء من اليقين أن الفترة الموجزة الباقية من القرن العشرين سوف تؤثر فى حوادث المستقبل، ولا يجادل أحد أن نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات هى نهاية فترة تاريخية وبداية أخرى. وهذه معلومات أساسية لمؤرخى القرن العشرين ولأولئك الذين يميلون لتوقع المستقبل، وعلى كل حال فإن ما عرفناه من توقعات فى الثلاثين أو

الأربعين سنة الماضية كان خاطئا إلى درجة أنه لا يوجد غير الحكومات والمعاهد الاقتصادية هى التى تتظاهر بثقتها بها.

تقلبات القرن

يصف الكاتب كتابه وكأنه ثلاثى الأبعاد، أو (سندويش تاريخى) على حد تعبيره، فهو ثلاثى الأقسام، فى القسم الأول يتناول «عصر الكوارث» أو الإخفاق، ويتكون من سبعة فصول هى: الحروب، والثورات، واقتصاد الهاوية، وفشل الليبرالية، والوقوف ضد عدو واحد، والفنون، ثم نهاية الإمبراطوريات. أما القسم الثانى فقد سماه المؤلف «العصر الذهبى» ويتكون من ستة فصول هى: الحرب الباردة، والسنوات الذهبية، والثورة الاجتماعية ١٩٤٥ ـ ١٩٩٠، والثورة الثقافية، ثم العالم الثالث، وأخيرا الاشتراكية الحقيقية.

أما الجزء الثالث فقد سماه الانزلاق وهو أيضا يتكون من ستة فصول هى: تآكل الأزمة، والعالم الثالث والثورة، ونهاية الاشتراكية، والرواد فى الفن (الفن بعد سنة ١٩٥٠)، والعلوم الطبيعية، باتجاه الألف الثالثة.

هذه الأبواب الثلاثة التى تبدأ بعد الحرب العالمية الأولى حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية والتى واكبها نمو اقتصادى نشط وتغير اجتماعى هائل، والتى ربما غيرت

المجتمع البشرى أكثر من أية فترة تاريخية أخرى، يعتقد الكاتب أنها الفترة الذهبية فى التاريخ البشرى والتى وصلت إلى نهايتها فى بداية التسعينيات، أما الجزء الأخير من القرن فهو عصر التفكك وعدم الاستقرار والانزلاق نحو الأزمات، وبالتأكيد ينطبق هذا على جهات عديدة من العالم مثل إفريقيا والاتحاد السوفييتى السابق والدولة الاشتراكية السابقة فى شرق أوروبا، فنهاية القرن كما يراها الكاتب شكلت عصر الكوارث والإخفاق. وعندما انقضت الثمانينيات لتدخل البشرية التسعينيات من هذا القرن كان شعور معظم من كتبوا حول قضايا القرن هو الإحباط.

من منظور التسعينيات فإن مختصر القرن العشرين يوضح أنه مر بفترة ذهبية قصيرة العمر، ثم أصبح يتنقل من فترة أزمة إلى فترة أزمة أخرى سائرا إلى مستقبل إشكالى، وكما أن بعض المؤرخين يحبذون استخدام أفكارهم القطعية كالقول بنهاية التاريخ، فإن التاريخ لا ينتهى، سوف يكون هناك مستقبل، لأن الشىء الوحيد والأكيد فى التاريخ أنه مادام هناك بشر سوف يستمر التاريخ.

الكتاب يبدأ بأحداث الحرب العالمية الأولى التى يعتبر الكاتب أنها فككت الحضارة الغربية كما عرفت فى القرن التاسع عشر، هذه الحضارة كانت رأسمالية فى هيكلها

الاقـتـصـادى، وليـبـرالية فى هيكلهـا القـانونى والدسـتورى، وبرجـوازية فى شكلـها الاجـتمـاعى، ومنتـعشـة بتـقـدم العلوم والمعـرفـة والتـعليم وبالتطور المادى والأخـلاقـى، وفـخـورة بل مؤمنة بتقدم قارة أوروبا التى قـام جنودها بإخضـاع واحتلال معظم أقطار الدنيا، والتى زاد عدد سكانها حتى أصبح يشكل ثلث عدد البشـر فى العـالم أنذاك (لقد فـاض عدد السكان فى أوروبا وتحول إلى تدفقات مـهاجـرين إلى الأراضـى الجديدة فى أمريكا وأستراليا والبلاد الخـاضعـة للاستعمار). أوروبا هذه تحكمت فى نظام العالم السياسى والقانونى، وبدا وكأنها سوف تقود العالم فى القرن الجديد.

عقود النكبات الأربع

العقود التى بدأت مع تفجر الحرب العالمية الأولى وانتهت فيما بعد الحرب العالمية الثانية كانت عصر الكوارث لأوروبا القائدة. ولأربعة عقود انتقلت أوروبا من نكبة إلى أخرى. وجاء عليها حين من الدهر حتى الأذكياء لم يكونوا ليراهنوا على بقائها وخروجها من هذه النكبات. لقد اهتزت تحت أقدام حربين عالميتين فقدت فيهما الملايين من البشر ثم دخلت فى عصر هو خليط من الانتفاضات والثورات العالمية التى جاءت إلى السلطة بنظام ادعى بقوة أنه البديل التاريخى للبرجوازية والمجتمع الرأسمالى، وهو الشيوعية، وانتشر هذا البديل أولا

على مساحة سدس أراضى العالم، ثم بعد الحرب العالمية الثانية حاز على عقول وقلوب ثلث سكان العالم، وبدأت الإمبراطوريات العظيمة - التى بنيت فى فترة زمنية طويلة وبدا فى وقت ما أنها الشكل الطبيعى للعلاقات الدولية - بدأت تهتز ثم تتساقط وتذروها الرياح، نظام الإمبراطوريات الذى كان يبدو راسخا وقويا وشامخا عندما توفيت الملكة فكتوريا (١٩٠١) والتى توسعت تحت ظل حكمها الإمبراطورية البريطانية، سرعان ما ذاب وتبخر فى حياة جيل واحد، كحياة ونستون تشرشل ١٨٧٤ - ١٩٦٥.

أكثر من ذلك فإن أزمة اقتصادية عالمية غير مسبوقة فى عمقها واتساعها ركّعت أقوى الاقتصادات الرأسمالية على ركبتيها وهى الولايات المتحدة، وبدت وكأنها آلية عكست ما اعتقد أنه اقتصاد عالمى موحد الذى كان فخرا وإنجازا لمرحلة الاقتصاد الليبرالى للقرن التاسع عشر، وحتى الولايات المتحدة التى كانت فى مأمن من الحروب والثورات وصل اقتصادها إلى حدود الانهيار، وكان منظر الذين ألقوا بأنفسهم من النوافذ العليا فى مقر الرأسمالية الجديدة نيويورك حزنا وهلعا على الانهيار الكبير فى البورصة فى نهاية العشرينيات تأكيدا لا يقبل الشك على قرب الانتصار لدى أولئك الذين بدأوا يبنون نظاما اشتراكيا طوباويا جديدا.

مع ترنح البنى الاقتصادية فإن المؤسسات الديمقراطية الليبرالية اختفت بين ١٩١٧ و١٩٤٢ إلا من بضع دول فى أوروبا وأمريكا الشمالية واستراليا حيث بدأت النازية والفاشية وحلفاؤهما والحركات الشمولية تتقدم جميعا وتتسع فى دول كثيرة، ومن الملاحظة التاريخية اللافتة أن ما أوقف هذا التقدم هو التحالف المصلحى بين الرأسمالية الليبرالية والشيوعية ضد العدو المشترك. هذا التحالف هو الذى أنقذ الديمقراطية!، ولم يكن بالاستطاعة هزيمة هتلر إلا بهذا التحالف، ولم يكن الانتصار ليتحقق ضد النازية الألمانية إلا من خلال الجيش الأحمر، بطريقة ما . هذا التحالف الديمقراطى الليبرالى مع الشيوعية ضد الفاشية - فى عقدى الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن - شكل العامل الحاسم لتاريخ القرن العشرين ولحظته الفاصلة، بأشكال عديدة هى لحظة تناقض تاريخى فى علاقات الرأسمالية بالشيوعية والتى كانت فى عداد تناقض لا يمكن حله، عدا تلك الفترة القصيرة.

فوائد للتناقض

انتصار الاتحاد السوفييتى على هتلر حققه نظام وصل إلى الحكم بسبب ثورة أكتوبر ١٩١٧، وبمقارنة ما حققه هذا النظام من انتصار اقتصادى وعسكرى - أنذاك - بالفشل الاقتصادى والعسكرى الذى منيت به روسيا فى الحرب

العالمية الأولى، تحت القيادة القيصرية من «آل رومانوف» تظهر قوة الاقتصاد السوفييتى، ودونه ربما أصبح الغرب اليوم (خارج الولايات المتحدة) يتكون من دول شمولية وفاشية بدلا من دول ديمقراطية وليبرالية. إنها واحدة من تناقضات هذا القرن العجيب. فإحدى النتائج الدائمة لثورة أكتوبر الاشتراكية التى كان هدفها الإطاحة بالرأسمالية وقبرها فى العالم أن تنقذ عدوها فى مرحلة فاصلة من التاريخ فى الحرب أولا وفى السلام ثانيا، أنقذته فى السلام عندما قدمت له الدافع والخوف لإصلاح نفسه بعد الحرب العالمية الثانية، وعندما قدمت فكرة التخطيط الاقتصادى أعطته آلية مقارنة لإصلاح نفسه.

لذلك فإننا نجد أنه بعد الحرب العالمية الثانية تبنت الديمقراطية الغربية أفكارا جديدة فى الاقتصاد والرعاية الاجتماعية والتعليم والرعاية الصحية فطورت من مفاهيم ليبرالية القرن التاسع عشر.

ومع ذلك وبرغم أن الرأسمالية الغربية بالكاد تخطت الأخطار الثلاثة ـ أى الكساد الاقتصادى، والفاشية، والحروب ـ إلا أنها ظلت تواجه تقدم الثورة العالمية التى أصبحت تعتمد على ـ وتتمحور حول ـ الاتحاد السوفييتى الذى ظهر بعد الحرب العالمية الثانية دول عظمى.

ومع ذلك ـ كما يمكن لنا أن نشاهد اليوم ـ فإن قوة التحدى الاشتراكى للرأسمالية كانت نابعة من ضعف الغريم، فدون ضعف المجتمع البرجوازى للقرن التاسع عشر فى عصر الكوارث، لم يكن من الممكن أن تحدث ثورة أكتوبر الاشتراكية، أو يتكون الاتحاد السوفييتى. كان النظام الاقتصادى المعتل والمرتجل فى ريف روسيا الأوروبية تحت حكم القياصرة أرضا خصبة لظهور دعوى الاشتراكية ونظامها السياسى والاقتصادى.

لقد كانت الأزمة الاقتصادية العميقة فى الثلاثينيات التى أصابت الاقتصاد الرأسمالى تظهر الاقتصاد الاشتراكى» وكأنه منافس، كما كان التحدى الفاشى مبررا لجعل الاتحاد السوفييتى عنصرا لا يستغنى عنه فى الحرب ضد هتلر ثم هزيمته. وبعد ذلك تحول الاتحاد السوفييتى إلى قوة دولية عظمى سيطر الخوف منها على العالم الرأسمالى كله فى معظم النصف الثانى من القرن العشرين.

وفى الوقت نفسه ـ كما نستطيع أن نحكم الآن ـ وازنت هذه القوة النقيض الميزان السياسى الدولى، ولم يكن يستطيع الاتحاد السوفييتى أن يجد نفسه على قمة المعسكر الاشتراكى لعقد ونصف من السنين، ويحتوى على ثلث سكان العالم لولا أن اقتصاده ظهر لفترة قصيرة وكأنه يمكن أن

يتغلب على الاقتصاد الرأسمالى.

عود على بدء

كيف وجدت الرأسمالية نفسها بعد الحرب العالمية الثانية - وأمام تعجب الجميع بما فيها الدول الرأسمالية ذاتها - تحقق نموا غير مسبوق وغير متوقع وربما دخلت فى عصر ذهبى بين سنوات ١٩٤٧ - ١٩٧٣. ربما كان ذلك سؤالا مركزيا يواجه مؤرخى القرن العشرين، وحتى الآن لا يوجد اتفاق على الإجابة الشاملة والمقنعة عن هذا التساؤل.

ثم أعقبت العصر الذهبى عقود من الأزمات، ومازالت هذه العقود معنا لم تكتمل بعد، لكن ما يمكن قياسه فى هذه العقود - بوثوق كبير - هو المستوى العظيم من التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى غيرت من المجتمع البشرى.

وربما يرصد المؤرخون فى القرن القادم بوضوح أكثر التغيرات العميقة التى أحدثها العصر الذهبى فى القرن العشرين، لقد غير من حياة الشعوب إلى درجة لا يمكن التراجع عنها، وهذه التغيرات مازالت مستمرة. الفلاسفة والمؤرخون الذين نظروا إلى الوقائع على اعتبار أن ما حدث هو نهاية التاريخ عند سقوط الاتحاد السوفيتى كانوا على خطأ. إن الربع الأخير من القرن العشرين يشكل نهاية سبع

أو ثمـانمائة سنة من تاريخ البـشـرية والذى بدأ باكـتـشـاف الزراعة فى العـصـر الحـجرى، وربما أن هذه الفتـرة فقط هى نهاية عصر طويل كانت فيه البشرية تعيش على زراعة وتربية الحيوانات، ولكنها ليست نهاية التاريخ.

مـقـارنة بذلك فـإن تاريخ الصـراع بين الرأسـمـاليـين والاشـتـراكـيـين ـ مع أو دون تدخل الدول والحكومـات مـثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ـ ربما يبدو ذا اهتمام تاريخى محدود فى المستقبل، مقارنة ـ فى المدى الطويل ـ بالحروب الدينية أو الصليبية فى القرنين والسادس والسابع عشر.

وبرغم أن نتائج سقوط الاشتراكية السوفييتية حتى الآن لم تحسب بدقة، إلا أن نتائجه السلبية هى التى أفرزت عقود الاضطراب التى أعقبت العصر الذهبى، هذه الأزمات تؤثر فى العالم بأشكال ودرجات مختلفة اليوم.

فى السـبعـينيـات ظهرت أزمـة الاقتـصـاد الدولى وسـارعت الدول فى البحث عن حلول لها لعل هذه الأزمة تكون مؤقتة، وعندما طالت توجهت الدول إلى سياسات جذرية اعتمدت السياسة المالية المطلقة مع تخلى الدولة عن مسئولياتها وإطلاق آليات السوق، وما لبث أن ظهر قصور هذه السياسة وعمق الأزمة الاقتصادية، ووجد العالم الديمقراطى فى

الثمانينيات والتسعينيات نفسه يصارع مشكلات اقتصادية مشابهة لسنوات ما بين الحربين العالميتين. وأفاق السياسيون والمنظرون على أن العصر الذهبى قد انتهى. فهناك تضخم فى أعداد المتعطلين عن العمل، أزمات دورية ومتتالية للكساد الدولى. وتنامى ظهور المشكلات الاجتماعية، وظهرت فى شوارع مدن أوروبا الكبرى أعداد من الناس لا مساكن لهم وآخرون يستعطفون الناس العطاء، أى عادت تلك الظواهر التى كانت قد تلاشت منذ قرن، ثم انفجرت الصراعات العرقية لتزيد الصورة تشاؤما.

ميراث القرن العشرين

كيف يمكن مقارنة عالم ١٩١٤ بعالم التسعينيات، عالم التسعينيات يحوى خمسة أو ستة بلايين من البشر، ربما أكثر ثلاث مرات مما كان فى العالم من بشر عند بدء الحرب العالمية الأولى، هذا برغم أنه فى تاريخ القرن العشرين المختصر قُتل أو سمح بأن يموت من البشر - بقرار من البشر - أكثر من أى فترة فى تاريخ الإنسان.

فى تقدير أخير فإن ١٨٧ مليونا من البشر قتلوا أو ماتوا بسبب قرار بشرى، فى هذا القرن، وهذا الرقم يساوى واحدا من كل عشرة أشخاص كانوا يعيشون فى سنة ١٩٠٠. معظم الناس فى التسعينيات أطول وأثقل من والديهم، يأكلون بشكل

أفضل ويعيشون مدة حياة أطول، ولكن المآسى التى حدثت فى إفريقيا وأمريكا اللاتينية وبلدان الاتحاد السوفييتى السابق فى الثمانينيات والتسعينيات تجعل ما قلناه فى السابق صعب القبول.

العالم أكثر غنى بشكل لا يقارن مع السابق من حيث قدرته على إنتاج السلع والخدمات بأشكالها المختلفة، ولو لم يكن كذلك لما استطاع استضافة عدد من السكان مضاعف عدة أضعاف، ولم يسبق لهذا العدد الضخم أن عاش فى نفس الوقت على الكرة الأرضية من قبل. معظم الناس فى الثمانينيات عاشوا أفضل من أسرهم، وفى الاقتصادات المتقدمة عاشوا أفضل مما توقعوا أن يعيشوا أو حتى تخيلوا أن يعيشوا.

ولعدة عقود فى وسط القرن اعتقد البعض أن العالم وجد طرقا لتوزيع الثروة العظيمة بدرجة معقولة من المساواة والعدل للقطاعات العاملة فى الدول الغنية، ولكن فى نهاية القرن فإن عدم المساواة أخذ المكان الأعلى.

البشرية أكثر تعليما مما كانت عليه سنة ١٩١٤، وربما لأول مرة فى التاريخ فإن معظم البشر يمكن أن يوصفوا بأنهم يقرأون ويكتبون - على الأقل فى الإحصاءات الرسمية - على الرغم من أن نتائج هذا الإنجاز هى أقل وضوحا عنها فى

نهاية القرن.

العالم ملىء بالثروة والتقدم العلمى المبنى على انتصار العلوم الطبيعية التى كانت متوقعة سنة ١٩١٤ والتى كادت تظهر فى ذلك الوقت وربما كانت أكبر خطوة جبارة فى هذا الإطار هى التقدم التقنى فى المواصلات والاتصالات التى قصرت الوقت والمسافة بين البشر والعالم، إنه عالم يوفر المعلومات والترفيه لمعظم الناس يوميا وساعة بساعة وفى كل منزل، وهى ميزات لم تكن متاحة إلا للقياصرة والأباطرة من قبل. الآن نرى الناس يكلمون بعضهم بعضا عبر المحيطات فور الضغط على بعض الأزرار، وفى معظم البلدان أسقط التقدم التقنى الفوارق الشاسعة بين المدينة والريف.

لماذا إذن ينتهى هذا القرن دون الاحتفال بهذه الإنجازات العظيمة وغير المسبوقة، بل بحالة عدم ثقة بالمستقبل؟ ليس هذا مرجعه إلى أن هذا القرن قد ذُبحت فيه من البشرية أعداد هائلة، وليس لأن الحروب البشعة التى خاضها البشر خلال سنواته قد أضنتهم. ولكن أيضا للمآسى غير المسبوقة فى الحجم والتكرار من المجاعات والقتل المنظم الذى لم يسبق له مثيل فى قرون سابقة، وليس كالقرن الطويل - القرن التاسع عشر - الذى شهد تطورا غير منقطع فى التقدم المادى والثقافى، والذى حقق تطورا فى الحياة المتحضرة.

ماذا بعد الوحشية ؟

لقد علمنا هذا القرن، وهو مازال يعلمنا، أن الإنسان يمكن أن يعيش تحت ظروف وحشية، ونظريا تحت حالات قاسية كان يمكن أن يصفها من عاش فى القرن التاسع عشر بأنها بربرية عارية.

ما يفرق بين بداية القرن عن نهايته أنه لم يعد ذا مركزية أوروبية، لقد تحقق فيه ضعف وسقوط أوروبا التى كانت مركزا لتاريخ العالم لقرون عديدة خلت، وظهرت دول عظمى خارج أوروبا بعد الحرب الثانية. لقد سقط الاتحاد السوفييتى وانتهى القرن بوجود دولة عظمى واحدة ولكنها أيضا تعانى من ضعف داخلى.

أما عن التغيرات العظمى والأكثر تأثيرا، فإن العالم أصبح وحدة مترابطة كما لم يكن فى سنة ١٩١٤، خاصة فى الشئون الاقتصادية العالمية أو الدولية وهى الظاهرة الأكثر وضوحا اليوم، ولم يعد هناك اقتصاد وطنى كما كان متعارفا عليه قبل عقود، تعبير القرية الدولية الذى ظهر فى الأدبيات فى الستينيات أصبح حقيقة واقعة، ولم تعد كثير من الشعوب نقية كما كانت بل أصبح هناك اختلاط فى الأعراق والأجناس، وكلها تشارك فى الاقتصاد الدولى وسرعة الاتصال والتواصل.

أما أكثر التغيرات إثارة فهو تحلل الرباط الاجتماعى التقليدى، مظهرا الاختلاف بين الأجيال أى بين الماضى والحاضر، خاصة فى الدول الغربية حيث أصبحت الفردية الغارقة فى مصالحها هى الأيديولوجية السائدة. ولعل هذا هو الجذر الحقيقى للتطرف. لكنها تطرفات لم تتوقف عند سلوك الأفراد أو الجماعات، بل هى تطرفات حتى فى سمات الإنجاز العلمى والتقنى تخيف لأول وهلة من يتأملها بعيون الحنين إلى الماضى. فهل يهذب القرن القادم من ملامح تطرف قرننا الذى يوشك على الانتهاء؟ لنأمل، وننتظر .

٥

بعد محاولة اغتيال نجيب محفوظ

هل أصبح اغتيال المثقفين هو «الفريضة الغائبة» ؟

ليس هناك أكثر سوداوية وتشاؤما مما يجرى على ساحتنا العربية من اغتيال رموز التنوير وقيادات المجتمع المدنى، مثقفى العرب وحاملى راياته الإنسانية.

علينا أن نتخيل هذا المشهد المروع..

خمسة من صغار الشباب يتقدمون من شيخ طاعن فى السن لا تحمله قدماه إلا بصعوبة، وبرغم ذلك فهو يتوقف لتحيتهم. يضع يده على قمة رأسه ويحنيها قليلا كما هى عادته المتواضعة فى تحية الآخرين، ويبتسم لهم ابتسامة واهنة لا نظير لها إلا فى نقوش الفراعنة المحفورة على الجدران أو فى مخيلة العربى المسلم لشيوخه العلماء. ولكن الشبان يلتفون حوله بحيث يعزلون رؤيته عن الطريق ويبادره أحدهم بطعنة فى العنق يريد أن يقطع بها الشرايين التى تغذى أنسجة المخ. ويسقط الشيخ متخبطا فى دمه بينما يهرع الشبان إلى الهرب بعد أن أتموا عمليتهم، التى اعتقدوا أنها جريئة.

أى حادث مفزع مثل هذا يمكن أن يحدث لشيخ فى الثالثة والثمانين من العمر؟. فما بالكم - ثبت الله عقولنا وعقولكم - إذا كان هذا الشيخ هو نجيب محفوظ؟!. أشهر الأدباء العرب، بل والعربى الوحيد الذى حصل على جائزة نوبل فى الأدب عن جدارة واستحقاق.

لست فى حاجة إلى أن أعيد تقديم نجيب محفوظ إلى القراء فمعظمهم يعرف سجله الحاشد، فهو إن لم يقرأ ما كتب فقد شاهده فى التلفاز، وإن لم يشاهده فقد علم به، ولا أن أكرر عبارات الاستنكار ضد هذه الجريمة، فلعله وهو راقد فى فراش المرض الآن يدرك أن هذا بعض من «عبث الأقدار» التى تعودت أن تعبث معه كثيرا.. فحين ترددت الأنباء أن اسمه قد وضع ضمن قائمة الأشخاص المطلوب اغتيالهم من قبل الجماعات الأصولية المتطرفة، رفض أن يعين له حارس وقال بسخريته المعهودة: «الحارس فى حاجة لمن يحرسه»! كان واثقا من أن بساطته - التى هى جزء أصيل من بساطة الشعب العربى المصرى - كفيلة بحمايته. ولكن الأمور أصبحت أكثر تعقيدا مما يتصور، فهذا «المعتدل الأعظم» فى حياتنا الأدبية والفكرية لم تحمه شيخوخته من نيران التطرف، برغم أنه كان حريصا طوال عمره ألا يقاد إلى معركة جانبية يمكن أن يبدد فيها موهبته، فقد وجد نفسه فى آخر أيامه يدفع ثمن معركة التنوير ككل.

الاعتدال.. موقف عقلانى

حاول نجيب محفوظ أن يصنع من «الاعتدال» درعا يحمى به موهبته. استفاد من قراءته الطويلة فى التراث العربى عن تلك العلاقة الشائكة بين المثقف والسلطة، وكذلك من مثلين

كبيرين كانا معاصرين له: أولهما عميد الأدب العربى طه حسين وصدامه مع القوى المتحجرة التى أرغمته على التراجع عن كل الآراء التى ذكرها فى كتابه «فى الشعر الجاهلى»، وثانيهما معاصره الأصغر منه سنا «يوسف إدريس» ذو الموهبة الغزيرة، التى استهلك جزءا كبيرا منها فى معارك جانبية مع أنصاف الموهوبين من محترفى السلطة والثقافة. كان الاعتدال هو السلاح المحفوظى حتى لا يجر إلى مذهب سياسى لا يؤمن به، أو إلى معركة لم يكن مقتنعا بجدواها، مع صغار نفوس، المصادفة وحدها أوقعت القلم فى أيديهم.

والاعتدال هنا لم يكن موقفا سلبيا. بل إنه موقف متوسط بين اللامبالاة والتهور. مثلما الفضيلة هى وسط بين رذيلتين. فقد كان نجيب محفوظ هو نتاج ثورة ١٩١٩م المصرية الوطنية التى أنجبت كوكبة من الرجال الذين يؤمنون بقدرة العقل، وأهمية ألا ينحاز المرء إلى رأى واحد ويقصى الرأى الآخر، ولكن عليه أن يأخذ بقية الآراء الأخرى فى قائمة الاعتبار ويمحصها، وأن يحاول الوصول إلى صيغة إجمالية لها. إنها نفس نظرية التعادلية عند توفيق الحكيم أو «التوفيقية» فى فكر رجال النهضة، وفقا لمصطلح صديقنا الباحث الدكتور محمد جابر الأنصارى.

وهذا الموقف لم يمنع نجيب محفوظ من أن يكون شاهد

عصره بحق. فمن خلال هذا الموقف العقلانى أتيح له أن يقوم بتحليل مفردات الواقع وإعادة تكوينه بصورة مغايرة، وبذلك رأى ما لم يستطع غيره أن يراه. فقد رصد ملامح الانتهازيين الذين ورثوا ثورة ١٩ فى رواياته «القاهرة الجديدة»، و«الثلاثية» الشهيرة. وأبدى مخاوفه من الحكم الشمولى وصعود الزعيم المطلق فى «أولاد حارتنا». وانتقد الخلل الاجتماعى وافتقاد العدالة فى «اللص والكلاب» ووجه انتقادا قاسيا لتنظيم الاتحاد الاشتراكى، الذى لم يكن أحد وقتها يقدر على المساس به فى «ميرامار»، وقدم مرثية للثوريين القدامى الذين تغير العالم من حولهم، بينما وقفوا هم عاجزين عن الحركة فى «السمان والخريف»، و«الشحاذ»، وتعرض لأزمة الضياع لجيل ما بعد حرب ١٩٦٧ فى «تحت المظلة» و«حب تحت المطر». لقد أقام نجيب محفوظ فى رواياته، ومن خلال الموقف العقلانى الذى يؤمن به، حوارا دائما .. حوارا مع النفس من خلال النقد الذاتى، والعكس أحيانا، وحوارا مع القراء بمحاولة تبصيرهم بالواقع الذى يحيط بهم بحثاً عن الحقيقة المطلقة، حتى ولو كانت تخالف المنظور الذى تعودوا عليه. لم يصنع من نفسه قاضيا ولا حكما، ولكنه وضع نفسه حيث وضعه الله، واحدا من عباده يصيب ويخطىء. بينما نصب الذين حاولوا اغتياله أنفسهم قضاة وجلادين. فأى

الموقفين كان على حق؟!.

لم يقرأوا روايتي..!

ما أريد أن أصل إليه هو أن نجيب محفوظ لم يكن في يوم من الأيام طرفا في أي خصومة سياسية، برغم اتهامه باتهامات سياسية، في بعضها متناقضة، ولم يكن جزءا من سلطة. وحتى في عموده اليومي الصغير الذي تعود على كتابته في صحيفة الأهرام بشكل شبه روتيني كانت آراؤه عادية، محايدة، تدعو للتفاهم وتغليب صوت العقل. لقد أخفى كل ما رآه مهما وجادا ومحدودا في ثنايا رواياته الزاخرة، في ذلك العالم الخصب من العلاقات الإنسانية التي دأب على كشفها وتعريتها. وربما كان نجيب محفوظ من أوائل الكتاب الذين كشفوا الغطاء عن جذورهذه الجماعات المتطرفة في روايته «السكرية»، ولكنه بالتأكيد لم يكن يتوقع أن ينتشروا الآن بيننا كالجراد، وأن يكون هو نفسه ضحية من ضحاياهم!.

لقد اختار الذين حاولوا قتله ذكرى اليوم الذي فاز فيه بجائزة نوبل عام ١٩٨٨ - أي منذ ستة أعوام - كأنهم يعلنون احتجاجهم على قبوله هذه الجائزة. والحقيقة أن قيمة محفوظ هي أكبر بكثير منها، وإذا تأملنا قائمة الأسماء التي فازت بنوبل في الآداب في العقد الأخير لوجدنا أنه كان أفضلها.

ففى السبعينيات عندما بدأت كتاباته تخترق جدران «العالمية» الصلد، وترجمت أعماله إلى الألمانية، قال الناقد الألمانى الشهير «هنريش فوج»: «لو كان عندنا أديب مثل نجيب محفوظ لدفعنا من أجله الملايين وترجمنا أعماله إلى كل اللغات حتى يفوز بجائزة نوبل». وعلى مدى العشرين عاما التى مرت لم يفعل أحد ذلك لنجيب محفوظ، ولم يطلب هو شيئا ولكنه بالإصرار والدأب أنجز لنفسه كل شىء وعندما جاءته الجائزة كان هو أكبر منها بكثير.

ولا يستحق الأمر الرد على التهم الرخيصة التى تقول عن علاقته بإسرائيل، أو ببعض الأكاديميين اليهود. فلم يكن لنجيب محفوظ أى دور سياسى أو ثقافى فى الصلح أو خلافه، ولم يذهب لزيارتهم. وإذا كان بعض النقاد أو الصحفيين الإسرائيليين قد حضروا جلسته الأسبوعية فهى جلسة مفتوحة فى أحد المقاهى العامة يجلس فيها من يشاء وأى قادم إلى القاهرة، كعادة المصريين الكرماء، وهى ليست بالتأكيد مبررا للقتل بأى حال من الأحوال.

القتل فى النهاية، كمحاولة، هو تعبير عن رفض الآخر عقلياً وبدنياً، رفض الحوار ثم رفض الوجود . ومحاولة قتل نجيب محفوظ تثير أكثر من إشكالية حول دوافع هذه الجماعات التى تطلق على نفسها أصولية وتدعو للعودة إلى الدين عن طريق

القتل والإرهاب. وقد شجب فعلها الآثم كل صاحب ضمير حي.. لقد قال نجيب محفوظ وهو في المستشفى الذى نقل إليه جريحاً معلقاً على روايته «أولاد حارتنا»، التى صودرت لأنها تنتقد الأديان كما ادعى البعض: «إن الذين أهدروا دمى لم يفهموا روايتى ولم يقرأوها.. لقد سكتوا عنها منذ ١٩٥٩، وهو العام الذى ألفتها فيه وهى تدعو للعودة إلى الدين وانتصار الخير وهزيمة الشر، وهى لا تمس الأديان من قريب أو بعيد..» هذا هو إعلان نجيب محفوظ وعلينا إذن أن نبحث عن الدوافع الخفية خلف اصطياد المثقفين، ولماذا تصاعدت هذه الظاهرة بتلك الصورة الحادة خاصة في مصر والجزائر وبعض الدول العربية الأخرى؟!.

السيف والفكر

لقد استدار الزمن دورته الغريبة، وبعد أن كانت خشية المثقف العربي من سيف السلطان وجبروته أصبح الخطر ماثلا أمامه من الناس الذين خرج من بينهم، والمفروض أنه كان يجسد أحلامهم ويتحدث بلسانهم. لقد كانت القبيلة العربية وسط صحراء الشظف تقيم الاحتفالات لمولد شاعر، لأن هذا الشاعر سوف يرفع ذكرها فوق بقية القبائل. وكان هذا يعنى الاحتفال بخصوبة العقل البشرى الذى يجود بما بخلت به الصحراء، وكانت القصيدة تحفظ وتكتب وتعلق

وتصبح علامة فارقة فى زمن الرمل الرتيب. وقد سن الرسول الكريم تقليدا جديدا لتكريم الشعراء فخلع بردته وكساها كعب بن زهير، ولكن الكثير من حكام المسلمين فيما بعد وجدوا أنفسهم غير قادرين على اتباع هذه السنة الحميدة .
لقد حدث التناقض المؤسف والدائم بين سلطتين: سلطة الحاكم التى تريد أن تطوى الجميع تحت جناحها بلا استثناء، وأن تحول هذا المفكر سواء كان شاعرا أو عالما أو فقيها إلى موظف فى معيتها، وسلطة المثقف الذى يرى أن من حقه أن يكون مستقلا فى الرأى قادرا على الحلم معترضا بالنقد،ومبادرا صادقا بفضح الزيف.

وظل الحاكم يقدم الإغراءات المتواصلة من خلال مناصب الدولة: الوالى، القاضى، جابى الضرائب. ولكن عدد الذين كانوا يعتذرون عن عدم قبول هذه المناصب كان دائما أضعاف الذين يقبلونها، كان الشاعر يرى نفسه فى منزلة أعلى من كل هذه الوظائف، وكان المفكر الدينى يشعر أنه ينتمى إلى الإسلام، الحقيقة الإلهية المطلقة التى تعلو أى سلطة زمنية مهما كانت قوتها، وهو يكتسب شرعيته من مدى إطاعته لأوامر هذه السلطة الربانية وليس السلطة الزائلة.

لقد كان بنو أمية قساة وهم يطاردون الفقهاء والشعراء والمفكرين، فقد كانوا يريدون منهم الشرعية التى يفتقدونها،

والتأييد الذى يتوقون إليه. لذا فقد اعتزل واصل بن عطاء الجميع حتى لا يتورط فى تأييد سلطة لا يراها ملازمة لحكم الله، ولبس عامر الشعبى جبة منقطة وتظاهر بالجنون حتى لا يتولى منصب القضاء، وهرب الكميت الشاعر من سجن الحجاج بعد أن ارتدى زى زوجته وتركها خلفه فى السجن، ووجد الحجاج نفسه محرجا للمرة الأولى فى حياته، فلم يقدر على قتل امرأة واضطر للإفراج عنها، ولكنه لم يجد حرجا فى قتل الفقيه سعيد بن جبير، ولم يكن محرجا فى حصار عبد الله بن الزبير والتمثيل بجثته بعد أن حاصر مكة وضرب الكعبة.

كان الحكم يعتبر المفكر دائما «شخصية قلقة» ولا يكون علاج هذا القلق أحيانا إلا الموت. ولم ينج من هذا القلق حتى كبار الفقهاء وأصحاب المذاهب الأساسية فى الإسلام: فالإمام أبو حنيفة مات فى غياهب سجن الخليفة المنصور بعد أن رفض أوامره بتولى القضاء، واختفى سفيان الثورى تماما لنفس السبب. أما الإمام ابن حنبل فقد وقع فى يد الخليفة المعتصم وبقى محتجزا فى سجونه ثمانية وعشرين شهرا كاملة، لأنه رفض الموافقة على رأيه فى خلق القرآن. وسميت هذه الفترة بمحنة الفقهاء، لأنها طالت كل فقهاء ومفكرى العصر.

واختار أبو حيان التوحيدى أن ينفى نفسه من بغداد بعد أن أحرق كل كتبه، ولم يبق من تراث هذا الأديب الكبير سوى كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، وهو الذى لم يتمتع بأى شىء من هذين، حيث اضطهده الوزير المهلبى أيما اضطهاد. وكذا اختار أبو العلاء المعرى أن يحبس نفسه فى بلدته الصغيرة «معرة النعمان»، بعد رحلة فاشلة إلى بغداد، لقى فيها سخرية الأمراء والوزراء من عماه وكلماته الغامضة، والعسل الذى يسيل على لحيته. وجرب الفقيه الكبير ابن تيمية ـ وهو الذى تقتدى به الآن كثير من الجماعات الأصولية ـ مرارة السجن والمطاردة بسبب مواقفه الفقهية. وقضى الحسن بن الهيثم أيامه الأخيرة منبوذا على باب الجامع الأزهر يعيد نسخ المخطوطات مثل أى كاتب بائس، بعد أن غضب عليه الحاكم بأمر الله وحرمه كرامة التكسب. ولم يمنع انشغال السلطان الناصر صلاح الدين بحرب الفرنج من صلب السهروردى، ونفس المصير لقيه الحلاج الصوفى بعد أن أغضبت أشعاره فى الوجد الإلهى الولاة والحكام وتخلى عنه رفاقه.

ولم يتوقف هذا السيل من الأسماء المضطهدة حتى بعد أن بلغنا مشارف العصر الحديث. فمازال الفكر جريمة لا تغتفر فى نظر بعض الحكام والجماعات، إذا لم يأت طائعا وراضيا ومبررا لأفعالهم وأطروحاتهم ولا نريد أن نقع فى مصيدة

غضبهم فنذكر بعض أسماء الذين رحلوا.. أو الذين كانوا ضيوفا مكرهين داخل الزنازين.. ناهيك عن حالات الاختفاء التى لا يوجد لها سبب أو مبرر.

لم تكن حياة المثقف العربى سهلة، فقد جعلته «جرثومة» الفكر التى ابتلى بها كمن يسير على حافة السيف، كل خطوة تدمى قدميه، وكل خاطرة تقربه من مصيره المحتوم. لقد سبب هذا المناخ القاسى ضغوطا كبيرة على نفسية المفكر العربى، وحلت مشاعر الخوف بدلا من لمعات الإبداع واختفى من حياتنا شطر مهم من التفكير الحر، الذى ينقد ويرشد الناس للعسف الواقع عليهم ويبين لهم طريقة الخلاص من هذا العسف.

فما القول إذن إذا انتقلت هذه الرؤية الأحادية والسلطة القمعية إلى بعض الجماعات المتطرفة ومارستها دون رابط؟، أى مناخ من الخوف والرعب يمكن أن يسود بدلا من منطق التسامح الاجتماعى، الذى يمكن أن يعطى الفرصة لتفتح كل الأفكار؟. هذا هو الكابوس الذى نعيشه هذه الأيام والذى كانت محاولة اغتيال نجيب محفوظ إحدى حلقاته، وهى ليست الأخيرة بكل تأكيد، لأن قوى الشر والظلام مازالت مطلقة العقال.

امتياز قتل المثقفين

انتقل امتياز قتل المثقفين والكتاب من يد الحكام إلى

الجماعات المسلحة بشكل شامل، إبان الحرب الأهلية اللبنانية التى بدأت عام ١٩٧٥. ولم تمارسه فقط المليشيات اللبنانية باقتدار، ولكن شاركتها فيه المخابرات الإسرائيلية بتفوق. حفنة من العصابات والقتلة تصارعوا على ساحة الوطن الصغير، تقاتلوا وتخالفوا واختلفوا ثم عادوا للتقاتل من جديد. وفى كل مرحلة كانت الرصاصات تقتل حملة القلم والفكر، رصاصات تقتل دون تعقل، وكتاب يموتون لأنهم عزل إلا من فضيلة التعقل.

ولقد تعددت أساليب الاغتيال وارتفعت درجة الابتكار فيها عاليا. من أول السيارة المفخخة التى أودت بغسان كنفانى وابنة أخيه، إلى اغتيال كامل مروّة داخل مكتبه، إلى حرق أصابع سليم اللوزى، ونسف الشاعر عبد الوهاب الكيالى وزوجته دفعة واحدة واغتيال العلامة حسين مروّة وهو ممسك بقلمه فى مكتبه ببضع رصاصات لا تساوى ثمن علبة سجائر!. وقائمة طويلة من المبدعين قتلوا أو هاجروا وأصبح وضعهم يثير الأسى والحنق والمرارة، كأنما كتب على المثقفين أن يدفعوا ـ قتلا أو تشريدا ـ ثمن هذه الحرب المجنونة التى لم تُجد الكلمات فى إيقافها. تغلبت روح العصابات الشرسة وغياب منطق الدولة وواصل العرب لعبتهم القديمة فى اغتيال الأفكار تحت أقنعة جديدة وإن كانت ترفع نفس الأفكار

القديمة.

من الفراغ إلى الازدحام

فى الجزائر يقولون إن الوضع أسوأ. وفى مصر يقولون إن ما يحدث هو مجرد استثناء وسط قاعدة راضية وقانعة، وأنهم أفضل حالا من بلدان أخرى. والحقيقة أن الوضع سيىء بما يكفى الجميع. فالمد الأصولى لا يقتصر على هاتين الشقيقتين العربيتين، ولكنه يمتد مثل سرطان خفى إلى كل جسد العالم الإسلامى، مع اختلاف درجة العنف.

فى السودان هناك تحالف غير مقدس بين العسكر والأصوليين، وفى تونس كفوا عن إثارة المتاعب مؤقتا، وفى إيران استطاعوا أن يقفزوا إلى قمة السلطة، وفى أفغانستان يتصارعون فى الشوارع تحت أشد الأفكار السياسية تخلفا وأحدث الأسلحة فتكا، وحتى فى ماليزيا البعيدة والمشغولة بالتحول إلى نمر اقتصادى جديد تبحث هذه الجماعات عن مخالب لها.

ولكن خصوصية ما يحدث فى مصر والجزائر أن المثقفين والكتاب أصبحوا هم الهدف يدفعون غاليا ثمن هذا الجنون اليومى، وقد استمد الأصولى عنفوانه من تشابك الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى البلدين: ففى الجزائر تعانى الأجيال من «فراغ ثقافى» سببه افتقاد الهوية العربية

الواضحة، هوية تربطهم مع تاريخ ما قبل الاستقلال الذى لم يكتب بعد، وغلبة الثقافة «الفرانكفونية»، واستيلاء ما يطلق عليه «حزب باريس» على مؤسسات الحياة العامة مما جعلهم جميعا يلجأون للبحث عن هوية مفارقة، أصيلة ومقدسة أيضا، يضاف إلى ذلك فشل الحكومات فى وضع حلول للمشاكل الاقتصادية. فالجزائر التى يمثل تصدير البترول والغاز العمود الفقرى لاقتصادها، قد وجدت نفسها فى خضم المتاعب مع انهيار الأسعار العالمية، وبرغم كل خطط التنمية الطموح فيها لم تستطع أن تعتمد على مصادر أخرى بديلة. وهكذا خلق نوع من «الفراغ الاقتصادى» يضاف إلى «الفراغ الثقافى» الذى سبقه. وبتراكم العاملين معا حاول الأصوليون العودة إلى شبه الأصول، لعلهم يجدون سندا فى مواجهة كل هذا الفراغات اللانهائية. واختلطت الأفكار السياسية برغبات أفراد وجماعات الخارجين على القانون والمهربين، ومن يريدون أن يكون لهم مقعد فى كل عرس، واتسعت أعمال العنف حتى لم يعد يعرف أحد أى فريق هو القاتل أو المقتول.

وفى مصر لم يكن الفراغ خلف هذه الظاهرة بقدر ما كان الازدحام. ففى بلد لا يعيش إلا على٤٪ من مساحة أرضه الكلية يتحول الانفجار السكانى إلى قنبلة موقوتة، فقد تسبب ذلك لا فى تدهور الحالة الاقتصادية أو تدنى الخدمات العامة

فقط، ولكن فى ظهور عدد كبير من الأحياء العشوائية والقرى والنجوع التى لا تحظى بأى خدمات أو وجود للسلطة المركزية. وإضافة إلى الازدحام السكانى هناك ذلك الازدحام التاريخى والمثقل بعوامل القمع والإحباط. وعلى حد تعبير نجيب محفوظ نفسه: «مما لا شك فيه أن المجتمع المصرى تنقصه العدالة. كما أن الحكم غالبا ما يكون قمعيا وغير فعال والفقراء هم غالبية الشعب المصرى، والفقر يجعلهم معادين للسلطة ومنطق الدولة. إنهم يريدون أن يأكلوا ويعملوا ويعلموا أولادهم، وهم يجدون فى الأصوليين ليس عونا فعليا أو بديلا عن الدولة، بل يرون فيهم قوة لها نفس قوة الخصم، وهى قوى مجهزة بالإسلام فوق ذلك..».

لا شك أن هذا الوضع غير السوى لم يكن السبب الرئيسى، ولكن استفادت منه القوى السياسية الغاضبة وغير القادرة على إدارة حوار صحى واستعاضت عن الكلمة بالرصاصة، وهكذا سقط فرج فودة، ونصبت الفخاخ للكثير من المثقفين المصريين.

إنها سنوات طويلة من العنف والعنف المضاد منذ أن قررت هذه الجماعات أن تتحول عن المناداة بإصلاح المجتمع، بالحث على المعروف والنهى عن المنكر، إلى تغييره بالمدفع والقنبلة والسيارة المفخخة. بل وتحولت هذه الجماعات من صراعها

التقليدى مع أدوات السلطة من مسئولين ورجال شرطة، إلى محاربة المفكرين سواء منهم الذين يخالفونهم فى الرأى أو الذين يحاولون تجنبهم.

أسباب وراء القتل

إن اغتيال كل هذا العدد من المثقفين يهدف فى المقام الأول إلى استفزاز النظام وإظهاره بمظهر الضعف، فقد تحولت عمليات الثأر اليومية من رجال الشرطة والضباط إلى خبر عادى من كثرة تكراره. وأصبح الهدف هو إثارة أكبر قدر من «الفرقعة» لإرغام السلطة على التفاوض معهم أو الأفضل التنازل لهم. ويلاحظ أن تصاعد هذا النوع من الاغتيالات كان لا يتم إلا بعد كل محاولة للمصالحة أو رغبة فى إقامة حوار وطنى، وعندما تفشل هذه المحاولات يكون هذا هو ردها العنيف على السلطة والنظام.

والجماعات التى تقتل رموز الفكر إنما تقتلها عن جهل بقيمتها أولا، وكجزء من حربها القذرة ضد السلطة ثانيا، وربما يمثل هذا الأمر صورة أكثر أهمية من ضرب السياحة والأجانب لأنها تضرب بذلك «المتغربين» داخل المجتمع والذين يحملون القيم الغربية التى يرفضونها بلا أسباب مقنعة. وهى أيضا محاولة مستمرة لإجهاض حركة التنوير، وإيقاف المد الديمقراطى الذى يمكن أن يحمله هؤلاء الأشخاص. فإقرار

الديمقراطية فى أى بلد يتطلب تهيئة البيئة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، أو المناخ المناسب لهذه التجربة، ولقد نشأت الديمقراطية فى أثينا القديمة على أيدى الفلاسفة لا الحكام. وقامت الثورة الفرنسية أيضا، وأقرت مبادىء العدل والحرية والمساواة من قبل رجال الفكر قبل أن يهبط الثوار إلى الشوارع. وقد استهدفت الاغتيالات شخصيات كانت تمثل نموذجا للعمل التنويرى العام - ومن هؤلاء من كان نشاطه قدوة تحتذى فى التواضع وإنكار الذات - كتابا ومثقفين وقضاة وأطباء وباحثين.

ففى الجزائر على سبيل المثال اغتيل الدكتور الجيلالى البعيس مدير معهد الاستراتيجية العليا فى الجزائر، وقتل خليفته فى المنصب الدكتور بوخبزة، وارتفعت درجة الوحشية فى الاغتيالات عندما قتل الدكتور الهادى بونيس والدكتور صبيحى أمام أفراد عائلتيهما. وتواصلت القائمة العشوائية لتصيب عالم الاجتماع جيلالى اليابس وزير الجماعات الأسبق، ومحفوظ بوسيتى أستاذ ورئيس قسم الطب النفسى بجامعة الجزائر، والطاهر جعوط الكاتب والشاعر الحائز على جائزة البحر المتوسط عن روايته «المتيقظون». أما آخر من لقى مصرعه حين كتابة هذا المقال فقد كان فرح زيان رئيس تحرير مجلة الثورة الأفريقية التى تصدر بالفرنسية، وبلغ عدد

الصحفيين بذلك ٢١ صحفيا ومازالت القائمة مستمرة.. ومفتوحة للمزيد.

وفى مصر القائمة ليست بهذا الطول، ولكنها مؤثرة، فقد كان عدد الذين نجوا من الاغتيال أكبر نسبيا، ولكن التأثير كان كبيرا نظرا لوقوع هذه الشخصيات فى دائرة الضوء. ولا يمكن الربط بين كل الأسماء التى تعرضت لهذه المحاولات إلا أنها كانت تمثل بعض دعامات المجتمع المدنى الذى يقوم بدوره الفعال وسط الرأى العام دون أن يرتبط بشكل مباشر مع الدولة ودون أن يكون جزءا من سياستها. والمجتمع المدنى هو خطوة مهمة للديمقراطية التى نفتقدها، وكأنما لا تكفى مؤسسات المجتمع المدنى الضربات التى كالتها لها السلطات المتوالية، فها هى تتلقى ضربات أخرى موجعة على أيدى هؤلاء الأصوليين.

واغتيال الفكر بشكل عام هو تعبير عن عدم ثقة هذه الجماعات فى نفسها. فهى تحاول أن تقيم فكرها الخاص بالعودة إلى منابع الإسلام الأولى منفصلة عن السياق التاريخى الذى عاشته هذه المجتمعات، فهى تتجاهل ١٤ قرنا من التاريخ المتصل بكل ما فيها من اجتهادات وأحداث. وفى مواجهة المجتمع الحديث فإن الذين يطالبون بتغييره يعانون من غياب الفكر البديل لكل الأشكال التى يرفضونها، لذا فهم

يكتفون بالرفض وتدمير ما هو موجود، وتدمير المؤسسات التعليمية، وعرقلة البنية الاقتصادية، وقتل الفكر والمفكرين، كلها فى سياق واحد هو عدم وجود رؤية واضحة وعدم الرضا عن أى رؤية بديلة.

بالإضافة إلى كل ما سبق فقد أصبحت هذه الجماعات تفتقر إلى العدو الحقيقى، العدو الذى تتجسد فى مواجهته كل دعاوى الجهاد «الفريضة الغائبة»، فقد كان الجهاد ضد الاستعمار الأجنبى فى إحدى الفترات يمثل هذا الهدف، ثم تحولت درجة العداء إلى العدو الصهيونى فى العالم العربى وإلى معاداة الشيوعية فى أفغانستان، ولكن مع كل ما حدث فى العالم من تغيرات، فإن هؤلاء الأعداء قد ابتعدوا عن خطوط التماس. دخل العالم العربى فى مفاوضات الصلح الشامل مع إسرائيل. وانسحبت بقايا القوات الشيوعية من أفغانستان، قبل أن يتحلل الاتحاد السوفييتى نهائيا ويندثر . وهكذا بحثت هذه الجماعات عن عدو يزيد من تماسكها الداخلى ويبقى على القوة الدافعة لاستنفارها، وكان الحل هو محاربة المجتمع وبالتحديد رموز الفساد فيه مرة بدعوى أنهم شيوعيون قدامى، ومرة بدعوى أنهم من أعضاء الصلح مع إسرائيل. ويبدو أنهم اكتشفوا أن الفريضة الغائبة هى قتل المثقفين والمفكرين!.

مستقبل رمادى

هل هناك أمل للخلاص من هذا المأزق؟.

إننا أمام مستقبل رمادى ملىء بالعنف ونذر الانهيار. فأسطورة العودة الضبابية إلى الأصول لم تتضح معالمها فى يوم من الأيام، وعلينا إذا حاولنا أن ننظر لها كظاهرة سياسية لها جذورها أن نبحث أسباب الغضب والإحباط والقهر الاجتماعى والقمع السياسى والغبن الاقتصادى، إلى كل الأسباب التى دفعت بهذه الجماعات إلى الخروج واختيار طريق العنف الصعب والمسدود فى آن.

ولا تكتمل حلقات الخروج من هذا المأزق إلا بتطوير العملية التعليمية، والتى هى أساس التقدم والانتماء إلى العصر، وإحياء قيم الثقافة والحضارة الإسلامية المتسامحة والمواكبة للتغيرات. إن علينا أن نعيد النظر فى كل المناهج الدراسية التى تبتعد عن العقلانية، وتجنح إلى الأسطورية، بما فى ذلك أحداث التاريخ والتغنى بالانتصارات غير الحقيقية والابتعاد عن المنطق فى تقييم الإنجازات. إننا فى مواجهة ظاهرة تعادى العلم والثقافة، أى تعادى العقل، وعلينا تأكيد قيمة هذا العقل.

ثم يأتى الوعد الذى طال تأجيله طويلا.. الديمقراطية.. القضية التى يجب أن نتعامل معها بجدية وليس بإطلاق الشعارات حول الحرية والتعددية والوفاق الوطنى، كل هذه

الترهات التى لم تنتج إلا المزيد من التردى والاغتراب، الديمقراطية التى تتيح المشاركة لكل القوى الوطنية دون استبعاد أو هجر، وترفع من درجة الحس النقدى، وتدعم آليات الرقابة.

لقد بحت أصواتنا، ولكن البعض لا يسمع هذه الأصوات، ولا أصوات دوى المتفجرات فى الشوارع،ولا يرى أجساد المثقفين الذين يسقطون بلا ثمن. إن المستقبل الرمادى ينتظر الجميع - الحكومات والجماعات، وأصحاب الفكر - ما لم نأخذ الخطوة المناسبة فى مواجهة هذا العنف الذى لم يهدأ حتى الآن.

٦

القمع والتجاهل

ازدواجية المثقفين في مواجهة البطش

فى لحظة معينة من لحظات الاحتدام التاريخى تتحول الهموم العامة، سياسية كانت أو اجتماعية، إلى هموم ثقافية. وعندما يتعلق الأمر بخصوصية البشر وكرامتهم وحريتهم فإن هذا الهم العام يدخل فى جوهر العملية الثقافية. ويكون الخطاب الذى يبدو سياسيا، فى القلب منه، خطابا ثقافيا، فما الثقافة إلا كونها معارضة للقبح كشكل من أشكال مؤازرة الجمال، مؤازرة إنسانية الإنسان.

أقول هذا بمناسبة ما أثارته داخلى من شجون قراءة كتاب يستحق التأمل. وعنوان الكتاب، إذا ما أردنا ترجمته مباشرة، هو: «القسوة والصمت» وكاتبه مؤلف عراقى عرف باسمه المستعار «سمير الخليل» لفترة، عندما كتب فى أواسط الثمانينيات كتاب «جمهورية الخوف» ثم باسمه الحقيقى «كنعان مكية» عندما كتب الكتاب الأخير فى جو عام أقل خطورة من السابق بالنسبة للمعارضيين العراقيين المنفيين لا إراديا أو إراديا فى الخارج. حيث قلمت، بعد حرب تحرير الكويت، مخالب جهاز القمع العراقى الذى يقوم بالتصفية الجسدية للمعارضين خارج العراق.وكنعان مكية أحدهم إذ إنه يعيش منفيا بين الولايات المتحدة وبريطانيا، وقد سبق أن أصدر النظام العراقى حكما بالإعدام ضده.

الكتاب بالإنجليزية ويبدو أنه سوف يصدر بالعربية ولغات

أخرى. وقد حصل الكتاب على بعض المراجعة فى عدد قليل من المنشورات العربية، وكل ما اطلعت عليه من تلك المراجعات كانت سلبية، بل بالغة السلبية، وذلك من حق المراجع أن يرى فى الكتاب ما يراه.

ولكنى أعتبر هذا الكتاب وثيقة ليس لإدانة ممارسات النظام العراقى ضد العراقيين فقط، فهى ممارسات يصفها الكاتب مباشرة نقلا عن أولئك الناس الذين وقعت عليهم تلك الممارسات، ولكنها أيضا وثيقة إدانة لمجموعة كبيرة من المثقفين العرب الذين إما وقفوا مع تلك الممارسات بشكل أو بآخر أو على الأقل فشلوا فى إدانتها إبان إعجابهم (المرضى) بالشخصية الدكتاتورية.

الكيل بمكيالين

ينقسم الكتاب إلى قسمين يضمان عشرة فصول، الأول مكون من ستة فصول يأتى على الخبرات البشرية المتنوعة التى قاست العذاب والقمع والقسوة من النظام العراقى، معظمهم من الشعب العراقى نفسه والذى قتل النظام منه عددا أكبر مما خسره فى الحروب العبثية الأخيرة سواء كانت مع إيران، أو فى مغامرته العبثية عند غزو الكويت واحتلالها ومن ثم الخروج منها صاغرا.

أما القسم الثانى والمكون من أربعة فصول فإنه يأتى على

المواقف الأيديولوجية والثقافية التى شكلت بوتقة القمع والقسوة فى الحياة العربية، وموقف أو مواقف بعض المثقفين العرب الذين فجرت فيهم قضية احتلال الكويت المواقف المكبوتة، وهو فى هذا الجزء يناقش ليس فقط مواقف الأفراد ومدى التناقض الذى يحمله الواحد منهم تجاه القضايا المتشابهة عندما يحين وقت الصدق والكشف عن المخبوء، بل أيضا وفوق ذلك يناقش موقف المثقف العربى تجاه قضايا أمته. وهو بذلك يضع أمامنا قضية جديرة بالاهتمام لا لتفسير تاريخنا الماضى وحسب، ولكن أيضا من أجل أن نفهم تطورنا المستقبلى كعرب.

فالمثقف يفترض ويتوقع منه أن يحمل ثقافة الخطاب النقدى، وليس الانسياق مع القطيع أو السلطة، مهما كانت توجهاتها، كما أنه من المفروض ألا يكيل بمكيالين أحدهما مستوف لنفسه والآخر منقوص لغيره.

يذكرنا طرح كنعان مكية بخيانة المثقفين الذين يتخلون عن نداء الفكر وإعمال المبادىء، ويساومون عليها ويناصرون فى العلن ما يسبونه ويحتقرونه فى السر!

وكنعان مكية مثقف مستقل يقدم لنا رواية مستقلة ـ غير أيديولوجية ـ ولكنها مرتبطة بمصالح أغلبية شعبه، يأخذ على المثقفين العرب الذى صفقوا ومازال بعضهم يصفق للنظام

العراقى الدكتاتورى، يأخذ عليهم أنهم لم يذوقوا، لا هم ولا ذووهم أو معارفهم، أشكال القمع التى ذاقها الشعب العراقى، كما يأخذ عليهم الابتعاد عن مناقشة المشكلات الحقيقية بالتستر وراء شعارات قد تكون براقة ولكنها ليست واقعية. كنعان يمثل المثقف الملتزم بشكل عضوى بهموم شعبه، ولو أنه يؤكد فى ثنايا كتابه أنه يكتب لنفسه لا للغير، يكتب لأنه وجد قضية تستحق الدفاع عنها، كما أنه يكتب بصراحة، ما له وما عليه، ويأخذ الكاتب على معظم المثقفين العرب أنهم ينخرطون فى «الكورس» ليقدموا المدائح، وذلك ليس فعل المثقف الحقيقى فالمثقف الحقيقى عليه واجب تقديم النقد والإشارة إلى الأخطاء.

الطليعة المثقفة الواعية والناقدة تعتبر قيمة لا تقدر بثمن، إن هى قامت بواجبها تجاه مجتمعها خلال فترة القسوة والشدة وفسرت المشكلات التى يواجهها ذاك المجتمع تفسيرا حقيقيا، بعيدا عن رغبة السلطة ومواقف «الجوقة». وهى تقوم بخيانة كبرى لنفسها ولشعبها إن فعلت عكس ذلك وتغاضت عن ارتكاب الجرائم الإنسانية، وبررت تلك الجرائم بمبررات أيديولوجية وتاريخية عصبوية، فإن جرمها عندئذ يكون أشد من جرم النظام الدكتاتورى نفسه.

كنعان مكية تغلب على الميل الطبيعى للتردد واختيار

الكتمان لدى المثقف، وأفصح عن رأيه المضاد للجوقة ونقد نقدا وافيا وجليا كبار من يدعون فى الساحة العربية بأنهم مثقفون. وأبان تناقض مواقفهم الذى يدعو إلى السخرية وربما الاشمئزاز.

حكايات القسوة والقمع

وقبل الدخول فى تفاصيل ذلك النقد لنقم بجولة سريعة فى ثنايا هذا الكتاب الذى وضع صاحبه بين دفتيه عددا من القضايا العربية التى تحتاج إلى طول أناة وتفكير لأنها قضايا عامة وليست خاصة.

فى الاستهلال يقول الكاتب إن كتابه «القسوة والصمت» أراد به أن يكون تسجيلا للتاريخ الشفهى للانتفاضة التى قام بها الشعب العراقى فى الجنوب والشمال مباشرة بعد وقف إطلاق النار - فى حرب تحرير الكويت - أى الفترة التى امتدت من أواخر فبراير ١٩٩١ إلى منتصف مارس من ذلك العام، ولكنه عندما أوغل فى الكتاب وجد أن الموضوع متشعب وأن من واجبه تجاه نفسه أن يحيط بظروف ما قبل تلك الحوادث وما بعدها مشيراً إلى موقف المثقفين العرب، ويخص بالذكر منهم أولئك القادرين على أن يقولوا وجهة نظرهم دون خوف من حساب، خاصة من يعيش منهم فى أوروبا حيث تتوافر حرية الرأى والكتابة ويُكفل حق الاختلاف.

يختار الكاتب مجموعة من القصص الواقعية ويسردها على لسان أصحابها مع تغيير أسمائهم لأسباب معروفة (حيث تسقط لدى النظام الدكتاتورى عادة التقاليد القانونية فى الفصل بين «المتهم» وأهله وذويه إذ يطول البطش عشيرته من الأقارب والأباعد)!! ولأن القصص التى يرويها الكاتب فى كتابه تأخذ أسماء: خليل، أبوحيدر، عمر، مصطفى، تيمور، وكل واحد من هؤلاء له قصة خاصة مع القمع والقسوة، وبعضهم يمثل فئته الاجتماعية سواء كان فى العراق من الطائفة السنية أو الشيعية أو من الأكراد، فإن قصصهم وخبراتهم مع النظام العراقى تتجاوز أشخاصهم، وتغلف دائما بقسوة منقطعة النظير فى بلاد حولها حكامها إلى سجن كبير لا يأكل أهله فقط ولكنه يأكل جنوده ومناصريه بعد فترة. يقول الكاتب: «فاضل البراك وهو المدير العام للأمن الداخلى العراقى فى الثمانينيات ألف كتابا حاول أن يوثق فيه كيف أن القوى التوسعية الشيطانية تعمل على زرع جواسيس ومخربين لها بين اليهود العراقيين والمدارس الإيرانية، مع قائمة طويلة أخرى بالاتهامات. واختلف حظ البراك بعد حرب تحرير الكويت، وسقط من نظر رؤسائه من البعث العراقى، وتحت التعذيب الذى أجاده جهازه فى الماضى اعترف أنه هو نفسه جاسوس للاتحاد السوفييتى السابق وألمانيا! وفى

صيف ١٩٩٢ وصل جثمانه إلى أهله فى تكريت داخل صندوق مشمع».

سياسة الصمت

صمت المثقفون العرب بشكل عام على سياسات النظام العراقى القمعية تجاه شعبه. وابتكر بعضهم خرافة اسمها «صدام المثقف» مع خرافات أخرى أن هناك مؤامرة غربية ضد العرب وكانت هذه الاختلاقات هى وجه العملة الآخر لصمت المثقفين وتجاهلهم للحقائق الموضوعية، وكذلك التخلى عن دورهم الحقيقى، على أساس الموافقة الضمنية أو على أساس عدم فضح النفس أمام الغير، كل ذلك قاد إلى كارثة سيظل العرب لفترة طويلة يعانون من آثرها. وإن كان الاختلاف من حق الجميع فى تفسير الأحداث فإن الكاتب يواجهنا بحقيقة مفادها أن من حقنا جميعا أن نختلف حول ما هى الحقيقة، ولكن لا أحد يختلف حول ما هو القمع!!

تتباين قصص القمع الطويلة التى يعرضها لنا الكاتب فى القسم الأول من كتابه، وهى كما قلت آنفا ليست قصصا فردية وإن بدت كذلك، فلها بعد عاطفى وعرقى وأيديولوجى وهى تتراوح بين ضرب النجف وكربلاء وسكانهما بالنابالم بل وبصواريخ «سكود» إلى اغتصاب الفتيات أمام أعين آبائهن حتى فضل بعضهم الانتحار على مواجهة الحياة بالعار الذى

لحق بهم. وتتوالى وقائع البطش من حرق المكتبات فى المدن المقدسة التى لا تقدر موجوداتها بثمن إلى القتل الجماعى، حتى أن جون سمبسون مراسل الـ B.B.C (الإذاعة البريطانية أكد نقلا عن أحد كبار المسئولين العراقيين أن عدد قتلى الانتفاضة فى الجنوب أكثر من الجنود الذين قتلوا فى الحرب (حرب تحرير الكويت).

عمـــــر

ولأن القصص كثيرة فإنه يكاد يصبح لكل عراقى مع هذا النظام القمعى قصة، ولكن قصة عمر هى مثال لما يمكن أن يحدث لمواطن فى هذا السجن الكبير، عمر استطاع أن يروى قصته لأنه أوقف فقط لمدة اثنين وأربعين يوما فى مبنى المخابرات وحقق معه. عمر من حى الأعظمية فى بغداد، الحى الذى تسكنه الطبقة الوسطى وسكانه غالبا ليسوا موضع شبهات كبيرة كسكان حى الثورة مثلا أو بقية المناطق الأخرى الأكثر تبنيا للأفكار المناهضة للنظام، عمر أصغر الأبناء فى عائلة تضم ثلاثة أولاد وثلاث بنات، والده ضابط متقاعد اشترك فى ثورة رشيد عالى الكيلانى عام ١٩٤١ وسجن أربع سنوات فى سجون ذلك العهد وهو الآن قعيد الكرسى المتحرك.

عمر بعد تخرجه من كلية الهندسة فى السبعينيات استدعى

للدخول فى الجيش وسرح من الخدمة بعد خمس سنوات وسبعة أشهر، وكان اشتراكه فى الحرب عملا مرغما عليه «كرهت كل دقيقة فيه» كما يقول، وبعد خروجه إلى الحياة المدنية عمل مشرفا هندسيا على أحد المبانى الحكومية المهمة، وكان يقضى أوقاته بعد ذلك مع رفاقه ليروح عن نفسه ويبحث عن لذة تبعده عن التفكير فى حاضره وحاضر بلده. وفى ليلة من ليالى الشتاء القاسية فى نهاية الثمانينيات رجع إلى البيت متأخرا. وما أن أوقف سيارته حتى انقض عليه أربعة مخبرين من كل جانب وسمع أمه تقول هلعة: انتبه يا عمر لقد أخذوا أخاك!! ويصف عمر كيف اقتيد إلى مبنى المخابرات معصوب العينين، ثم تبين أن معه مجموعة كبيرة أخرى منها أخوه الأكبر الذى ترك زوجته، وأدخلوه إلى حجرة التحقيق معصوب العينين. سألوه سؤالا واحدا: ما الذى كنتم تتآمرون عليه؟ وعندما تبين أنه قد فوجىء بهذا السؤال بدأت أسئلة أخرى عن علاقاته الشخصية، وعرف أن هناك عينا قد وشت به وكان الواشى ملفوفا بدثار فى قاع السيارة التى اعتقل فيها.

أمر عمر بأن ينزع ملابسه.. كل ملابسه حتى أصبح عريانا كما ولدته أمه، لم يعذب عمر كما يقول، بل ضرب وركل وأهين وشتم شتيمة مقذعة، لم يعذب لأن التعذيب فى هذه المؤسسة

شيء آخر عرف عنه بعد ذلك.

أودع عمر الزنزانة مع مجموعة أخرى من المسجونين ليبيت ليلته، وأدخل أخوه زنزانة أخرى وكذلك بقية المقبوض ليهم، وفي الزنزانة المكتظة بالنزلاء لم يكن عمر يكلم أحدا... بادره شخص أبيض البشرة بالحديث، فلم يرد عليه حيث خمن أنه «عين» أخرى للسطة، في الزنزانة هذه المرة.

ولكن هذا الأخير لم يأبه بصمت عمر فقال له خذ هذه الخرقة وغط عورتك، وهي خرقة من بقايا ثوب كان يمسح فيه قيء ودم السجناء بعد حفل التعذيب.

وقال المتحدث لعمر: «أنا عراقي كنت أعمل مع المعارضة العراقية في إسبانيا ومتزوج من إسبانية.. في يوم دعيت للسفارة العراقية هناك من أجل التفاهم! وشربت كأسا من الشاي ثم فتحت عيني ووجدت نفسي هنا في هذه الزنزانة!! غدا سوف يقومون باستجوابك سوف تجد مسجلا أمام المستجوب لا تأبه به.. وعليك أولا أن تنادي المستجوب بـ (يا سيدي) في كل مرة، وسوف يقومون بتهديدك، أنت لست مضطرا أن تقول شيئا لا تريد أن تقوله، فكلما قلت اسما طال عذابك وبقاؤك هنا.

هنا في هذا السجن هناك قواعد عليك أن تلتزم بها، فإن أردت أن تذهب إلى الغائط فإن المدة لا تتجاوز عشر ثوان فلا

تتجاوز ذلك وإلا ذقت الضرب والإهانة، كما أن الذهاب إلى الغائط وأنت عار يكون ركضا «كالقرود» يداك مدلاة إلى الأرض ووجهك ناظر إلى أسفل، وإياك : أن تتعدى الثوانى العشر، اقض حاجتك واغسل ماعون الأكل الذى تأكل فيه»، كل ذلك فى عشر ثوان!!

الموت على كلمة!

كانت تهمة عمر أنه يحضر مع آخرين اجتماعات سياسية، أما المبلغ عنه فهو واحد ممن كانوا يغشون «شلة الأنس» وهو كردى هارب من الجيش كان يريد الهرب من العراق.

وبعد استجواب طويل وقضاء اثنتين وأربعين ليلة فى السجن فى وضع أقل من إنسانية الإنسان، عاريا فى برد قارس مع آخرين، وبعد أن تشكك فى كل الأصدقاء والمعارف، لأنه رأى البعض يعترفون على البعض الآخر ظلما فى محاولة لإنقاذ النفس، ينتهى الأمر إلى أن المحققين يطلقون عددا قليلا من المتهمين من بينهم عمر ويسجن أخوه خمس سنوات ويعدم ثلاثة ويسجن الباقون لفترات مختلفة. ويصف عمر مهزلة خروجه من السجن إذ أبلغوه أنه سيخرج على أن يقول هو وغيره من الذين أطلق سراحهم إنهم كانوا فى إجازة!! وسأل أحدهم الضابط: سيدى أنا موظف حكومة هل هناك ورقة لرؤسائى تبين سبب تخلفى؟ قال الضابط: كل شىء قد أعد

سلفا، فقط اذهب إلى عملك غدا وقل لكل من سألك لقد كنت في إجازة!!

يصف عمر بعض أقرانه في السجن بمن فيهم مجموعة تسمى سخرية «جماعة العفو» فالنظام العراقي بين فترة وأخرى يصدر قرارا بالعفو عن الهاربين ومن تركوا البلاد لأن وطنهم بحاجة إليهم!!

ويصدق بعض السذج تلك الإعلانات ويعودون إلى العراق، أو يبادرون إلى تسليم أنفسهم إن كانوا فارين في أرجائه، ويُختار منهم القليل لإظهار صورهم في التليفزيون وكيف أن النظام عفا عنهم وينتظر الأغلبية في «جماعات العفو» طابور طويل في السجن تمهيدا لإعدامهم!!

تبين عمر فيما بعد أن القضية كلها التي أعدم بسببها ثلاثة وسجن وعذب عدد كبير من المواطنين كان سببها زلة لسان في إحدى السهرات عندما ناقش البعض «صعوبة عودة الفاو» بعد أن سقطت في يد الإيرانيين!!

الكلمات فقط قد تؤدي بك إلى المهالك والموت في عراق صدام حسين فما باك بالأفعال، ناهيك عن أنه في بعض الأوقات يكون الحساب على النوايا؟!

ويذكر الكاتب في الفصل نفسه قصة أخرى: كانت هناك امرأة تريد الطلاق من زوجها فلم تتمكن من ذلك لرفضه،

وعندما ضاق عليها الأمر جاءت بمسجل وسجلت له فى وقت غضب شتمه للنظام ولصدام حسين وقدمت ذلك التسجيل إلى السلطات فقبضت على الزوج وتم إعدامه، وأصبحت طليقة وتزوجت من تريد!!

هذان المثالان مجرد نموذجين مخففين مما يحفل به الكتاب من قصص دامية ومريرة تنمو فى قلب المأساة التى يوسع رقعتها باستمرار نظام صدام حسين . وفى مثل هذا النظام تتحول العلاقات الإنسانية إلى علاقات مشوهة: الزوجة تتخلص من زوجها والأطفال يشون بآبائهم، ثم يصفق بعض المثقفين العرب خارج نطاق سجن العراق الكبير لمثل هذا النظام.

قصة عمر رويتها باختصار وكذلك الزوجة التى وشت بزوجها، أما قصص الإبادة فى الجنوب والشمال والاعتقال العشوائى فى بقية مدن العراق فإن لها مكانا موثقا فى صلب الكتاب الذى نحن بصدده، فمئات الآلاف من الأكراد الذين هجروا مناطقهم وقراهم ومئات الآلاف من الشيعة والسنة، وأشكال القمع التى تأخذ الطابع الجماعى وتسمى بتسميات العمليات العسكرية مثلما سميت حملة إبادة الأكراد فى الشمال ١٩٨٨ باسم «عملية الأنفال»، وكل هذه الفظائع ارتكبت تحت مظلة أيديولوجيات وأسماء براقة، ودفع

العراقيون أثمانا باهظة من حياتهم فيها.

ليس الماضى فحسب هو ما يؤرق الكاتب، ولكن يؤرقه أيضا - وأحسب أنه يؤرق كل صاحب ضمير - المستقبل، فقد بنى النظام العراقى إحدى استراتيجياته الشيطانية على استخدام الفئات المختلفة عرقيا وطائفيا ضد بعضها مما سبب ألما وجرحا مازال ينزف وجعل التربص وعدم الثقة بين هذه الطوائف والأعراف كالقنابل الموقوتة.

ويعتقد الكاتب أن الخطوة الأولى لتجاوز ما حدث هى الاعتراف به.

«لقد صوت العراقيون بأقدامهم» كما يقول المثل الغربى، فهناك حوالى المليونى عراقى خارج العراق، معظمهم من المثقفين والفنيين والفنانين وأصحاب الرأى موزعين فى دول عديدة، هذه الهجرة القسرية وترك البلاد والنفى لها دلالة عميقة لما يجرى فى العراق، لقد بعثر النظام العراقى خيرة أبناء العراق فى الشتات، ولا يوجد إلا الخوف حتى بين من هم فى السلطة اليوم، فالواحد منهم لا يعرف متى سوف يتخلص منه وترسل جثته فى صندوق مقفل ويمنع أهله حتى من إقامة شعائر جنازته!!

لقد أخرج النظام العراقى فى بداية الحرب العراقية الإيرانية عشرات الآلاف من العراقيين إلى إيران بحجة أنهم

من «أصول إيرانية» ضارباً عرض الحائط بالواقع القانونى والشرعى لمثل هؤلاء، والتجأ إلى قوات التحالف الدولى عشرات الألوف من الجنود دون أن يطلقوا طلقة واحدة هربا من جحيم القمع ولايزال بعضهم يفتش عن مكان يلجأ إليه غير وطنه، وتشوهت صورة الأطفال العراقيين نتيجة القمع المنظم، فالقلق والضغط والسلوك المرضى من الظواهر المعروفة عند الأطفال العراقيين.

وأثبتت دراسة لمتخصصين فى علم النفس - كانوا جزءا من فريق دولى - أن ثمانين بالمائة من العينة التى قابلوها من أطفال العراق يعيشون فى خوف يومى من فقدان عائلاتهم بالموت أو الفراق، وحوالى الثلثين منهم لا يعرفون إن كانوا سيصلون إلى سن الرجولة أم لا! وأطفال العراق هم الأحياء الأموات نتيجة العصف والقمع والحروب التى تحشرهم فى نيرانها مغامرات هذا النظام الدكتاتورى.

خوف المؤلف - وخوف العقلاء أيضا - يكمن فى أن مخلفات صدام سوف تعيش بعد ذهابه. لقد زرع الخوف والقسوة التى تولد بدورها الخوف والقسوة والقمع، فإن هاجمت شخصا لأنه كردى أو لأنه شيعى - يقول المؤلف - فإن تلك المواقف لا تتلاشى، فهى تتجمع فى الشعور الجماعى للطائفة أو العراق وينتج عنها رد فعل فئوى وطائفى جماعى، من أجل الدفاع

عن الذات العرقية أو الطائفية، فماذا سيحدث فى عراق الغد؟ يجيب المؤلف - فى معرض تأمل الاحتمالات - أن القومية الكردية على سبيل المثال هى أقوى اليوم مما كانت فى السابق، مثلها مثل القومية الفلسطينية التى تأكدت وأخذت شكلها الواضح بعد ظهور دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨، وتلك قضايا لا يصح تجاهلها عندما يطرحها كاتب مثل مكية يعرف أكثر من غيره ماذا يدور داخل العراق!!

تجاوز حدود الخوف

لقد تمخضت حرب تحرير الكويت عن «حرية جديدة» للمعارضين العراقيين فمن كان يتظاهر بالصمت ويتحدث من خلف الكواليس أو يكتب بأسماء مستعارة أصبح يجاهر بوضع اسمه على ما يكتبه ولا يخاف إرهاب الدولة العراقية، ليس لأن هذه الماكينة قد تآكلت فقط، ولكن لأن هناك وعيا جديدا بأن الأمور لا يمكن تغييرها إلا بالحديث عنها فى العلن، ولم يعد العراقيون فى المنفى يخبرون أصدقاءهم أن ينتظروهم خارج مبنى السفارة أو يبلغو عن اختفائهم إن هم تأخروا فى الخروج من المبنى لفترة. لم يعودوا يخافون الصناديق المغلقة التى تطير من العواصم إلى بغداد حاملة نعوش من جاهروا بآرائهم وتعرفت ماكينة القمع الصدامية عل أسمائهم.

الخـوف أن هذه المعـارضـة مـازالت «عـاطفـيـة» بمعنى أن بعضـهـا لا يريد أن يتجاوز حدود الخوف الأيديولوجى، مثل الاعتراف بالحدود الدولية بين العراق والكويت،والعمل بشكل جاد والتعاون مع المجتمع الدولى للإطاحة بملامح هذا النظام. وهو خوف نفسى مبنى على تثقيف خاطىء بما هو الوطن وما هى مـصلحـة المواطنين. النظام العـراقـى لم يبن حـتـى دولة تقليدية فى العراق، الدولة التقليدية العراقية فى كل مراحلها كانت تحترم حقوق الأقليات وتحترم حماية هذه الأقليات أو المجموعات العرقـيـة والطائفـيـة المختلفـة، إضـافـة للاحـتـرام التقليدى للاتفاقيات والقوانين الدولية.

دولة البعث العراقى ضربت بعرض الحائط الحدود الدنيا التى كانت الدولة العراقية التقليدية تحترمها. النظام العراقى يطلب من كل العراقيين أن يصبحو ممتثلين ومطيعين لأوامره، إن لم يكن بالحسنى فبالقمع والسجن والقتل. وهذا ينطبق على كل الفئات وكل المجموعات الاجتماعية فى العراق. «المجتمع المدنى» فى العراق نتيجة الهجوم عليه من كل جانب فى العشرين سنة الأخيرة تكسر واختفى، وورط النظام مجاميع من كل الفئات فى جرائمه، وأصبح العراقى مُنفذا وضحية لهذا النظام فى الوقت نفسه.

من هنا يبرز منطق المعارضة العراقية فى الداخل والخارج،

فبدون نقد لما هو قائم ليس فقط نقدا للأشخاص وإنما للممارسات والمواقف والأهداف التى قامت عليها الدولة العراقية تحت قيادة البعث العراقى، دون ذلك ليس هناك آفاق مؤملة قريبة لنظام عادل ومتوازن داخليا وإقليميا فى العراق.

من أجل زيادة العزلة القانونية والنفسية حول معارضيه سن النظام العراقى مجموعة من القوانين تستهدف إخراج البعض من حق المواطنة، وحددت هذه القوانين هؤلاء بأنهم «الذين يأخذون مواقف سياسية واقتصادية أو ثقافية معادية للثورة وبرنامجها» وهذا النص حتى فى ظاهره يقف ضد فكرة الدولة التى يؤمن بها - ظاهريا - ذلك النظام! المطالبة بالنقد هى أحد المسارات الأساسية لفكرة الكاتب للخروج من جحيم هذا النظام ولكنه يعود إلى لوم المثقفين العرب على تقاعسهم عن ذلك لأن (أعظم تهديد للنقد والنظر إلى الأمور بمنظار عقلانى يأتى من أولئك الذين من المفروض أن يقودوا المجتمع المجتمع العربى، وهم الذين نصبوا أنفسهم كمثقفين عرب).

من هو المثقف العربى ؟

لعل النقد السلبى الذى حظى به الكاتب والكتاب الذى بين أيدينا هو موقفه من بعض المثقفين العرب، فهو يطرح بكل وضوح الدور المتقاعس لجمهرة من المثقفين العرب وتناقضهم

الداخلى وكيف أنهم سكتوا عن ممارسات دكتاتورية قمعية للنظام العراقى ضد شعبه أولا بينما يدافعون عن سياساته العامة ويبررونها، هذا الكشف الذى يواجه النفس بمرآة مكبرة تظهر عورات الادعاءات الكاذبة لدى البعض، ففى الوقت الذى يقف فيه مع حقوق الإنسان والديمقراطية والتعددية يقف فيه أيضا مع الدكتاتورية ومسخ الإنسان بالبطش والقمع.

يشير الكاتب - كمثال للتناقض الحادث للمثقفين العرب - أن عددا من أكثر المثقفين تحمسا للديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان تحولوا إلى ناقدين قساة للمساهمة العربية فى تحرير الكويت بحجة «مجابهة الغرب»، ومن بين هؤلاء من كتب قصيدة أسماها «صرخة فى متاهة» يزعم فيها أنه يضع نفسه مع الوطن حتى لو كان هذا الوطن «بيتا للذبح»!

إنها فكرة خداع النفس فى الاضطرار للتعامى عن الحقائق فى سبيل أيديولوجيا غامضة ونقص فى شجاعة القول. المنصف المرزوقى وهو رئيس جمعية حقوق الإنسان التونسية - من المفروض فيه بداهة أن يدافع عن حقوق الإنسان - تشكل عليه الرؤية فيطالب بالإبادة للآخرين! أثناء حرب تحرير الكويت وما بعدها أصبح بعض دعاة الحرية «كائنات منقرضة» بينما انخرط كثيرون فى الغناء مع الجوقة لصالح

الدكتاتورية وإن تحت شعارات خادعة.

هشام جعيط مؤرخ تونسى عرف بمواقفه المتحررة يقف مع المبررين للاجتياح مدافعا عن فعل «غابة الجماجم» فى العراق.

مرارات السكوت

لقد حصل لكثير من المثقفين كما يقول الكاتب «تحجر عاطفى» بصرف النظر عن موقفهم السياسى، فالشيخ التميمى قائد جماعة الجهاد الإسلامى فى الأردن ينتقل بعد سنوات من تأييد إيران إلى تأييد صدام حسين لأن الأخير أظهر «يقظة إسلامية»!

أسماء عديدة يأتى على مواقفها الكاتب بجانب من ذكرت، وقفوا ذلك الموقف المتجاهل للحقائق وبدلوا عقلهم الناقد بعواطفهم المشبوهة فسقطوا فى جب المغالطات.

بعضهم أراد أن يزيح المسئولية عن عقله وضميره فألحقها بالغرب وحماقاته ومؤامراته وبعضهم تناقض مع المنطق فراح ينتقد مجتمعات لم يزرها ولم يعاينها بل سمع عنها سماعا عابرا من طرف ثالث !! فنفى عن هذه المجتمعات ـ ظلما ـ أنها عربية!!

أمثلة عديدة لأسماء براقة ونماذج موثقة من كتاباتهم المتناقضة والمنطفئة ذكرها الكاتب للدلالة على الخلط الكبير

الذى وقع فى ساحة الثقافة العربية فى مواجهة أزمة عربية واضحة المعالم لكل ذى بصر فما بالنا بأصحاب البصيرة!

حملة المؤلف على بعض المثقفين العرب وموقفهم المساند للنظام العراقى إذن، هى حملة مبررة لأنه وجد أن هناك تناقضا بين الدعوة لحقوق الإنسان والحرية والديمقراطية والتعددية وبين تأييد غير مشروط لنظام هو قمة فى الدكتاتورية والقمع، إلا أن الأسباب التى يرجعها المؤلف لتلك المواقف هى أن العديد من المثقفين «المؤيدين» كانوا نتاجا لسنوات الحرب الباردة وهزيمة ١٩٦٧ والحرب الأهلية فى لبنان وسنوات الثمانينيات وآثار الاحتلال الإسرائيلى المدمرة.

وإذا كانت تلك أسبابا خاضعة للتحليل إلا أن مركزية النقاش الذى يقودنا إليه الكتاب تشير إلى أنه لو وقف المثقفون العرب مع ضمائرهم وابتعدوا عن «شعور القطيع» وأنصفوا الحق وشجبوا - سياسيين ومثقفين - هجمة النظام العراقى على الكويت، لو وقفوا ذلك الموقف بدلا من تبريره لدى البعض والدعوة إليه لدى البعض الآخر لكانت المرارة أقل مما هى الآن لدى كثيرين.

إن المثقفين فى الأوقات العصيبة غالبا ما يتطلع إليهم قومهم كى يمثلوهم ويتحدثوا باسمهم ويشهدوا بالحق ضد عذاباتهم ويرفعوا عنهم ظلم الظالمين.

وهل كان هناك ـ ومازال ـ أظلم من ممارسات صدام القمعية ضد مواطنيه، وضد جيرانه بل ضد الحلم العربى برمته؟!

لا أظلم ولا أقسى. فما أشد جرم السكوت.

٧

إشكالية النساء والسلطة

هل من المحبب أن تحكم المرأة العالم؟

عندما كانت سيدة أمريكا الأولى هيلارى كلينتون تزور إحدى المؤسسات الطبية فى إطار حملتها من أجل الرعاية الصحية قال لها أحد المديرين مرحبا: «إننى سعيد جدا لأنها المرة الأولى التى يزورنا فيها رئيس الولايات المتحدة الأمريكية». وسواء كان هذا القول على سبيل المزاح المحبب أو من قبيل زلة اللسان، فهو تعبير عن جزء من حقيقة أن هذه السيدة القوية الشخصية هى شريكة فعلية لزوجها فى سلطة حكم أقوى دولة فى العالم. لقد كان شعار كلينتون فى حملته الانتخابية للرئاسة «انتخب واحد تفز باثنين»، يعنى أنه إذا أعطى الناخب صوته لكلينتون فسوف يفوز بهيلارى وكلينتون معا، وعندما أبدى الناخبون اعتراضهم على الطابع التسويقى فى هذا الشعار أسقطته الحملة من شعاراتها ولكن من الواضح أن السيدة هيلارى لم تتراجع ولم تقبل بالانضواء تحت الواجبات الاجتماعية والخيرية الضيقة التى تفرضها عليها ظروفها كزوجة للرئيس، ولكنها اختارت قطاعا مؤثرا هو الرعاية الصحية فى أمريكا، ودخلت فى معركة سياسية سوف تغير مفهوم الرعاية الصحية فى الولايات المتحدة للقرن المقبل.

لم تكن السيدة الأمريكية الأولى هى الوحيدة التى تتصدر نشرات الأخبار العالمية، بل إن هذه النشرات حافلة أيضا

بالرئيسات الحقيقيات اللاتى صعدن إلى الحكم بصناديق الانتخابات وليس عن طريق الدبابات،وهن يمثلن بذلك عنوانا لنهاية القرن العشرين الذى أطلق عليه بعض الكتاب إنه قرن المرأة، ففيه استطاعت أن تصعد وأن تبرز وأن تمارس السلطة، ليس فى بلاد الغرب فقط ولكن فى صميم البلاد الإسلامية أيضا، فهل يمكن أن تحكم المرأة العالم؟

من المجتمع الأمومى إلى هزيمة الأنثى

إنها إشكالية السلطة والمرأة، واحدة من أقدم أشكال الصراع بين الرجل والمرأة حول من يفرض السيطرة ويشكل صورة المجتمع، وقد تشكل هذا الصراع وفق علاقات الإنتاج داخل المجتمع وأثر هذا بدوره على القيم الجنسية السائدة بين الطرفين.

ويمثل علماء الأنثروبولوجيا إلى اعتبار أن العالم بدأ مع مرحلة السيادة (الأمومية) عندما كانت الأرض مشاعا وكان الرجل يرحل إلى الصيد أياما طويلة، تكون المرأة فيها مطالبة بالمحافظة على الكهف وما فيه من أطفال ومتاع، ويقال إنه فى هذه الفترة أيضا استطاعت المرأة أن تخترع اللغة من خلال تفاعلها الاجتماعى المستمر مع غيرها من النساء الوحيدات، وإذا كانت وظيفة الرجل وهو فى مكمنه لساعات طويلة يترقب الفريسة تحتم عليه أن يصمت تماما وأن يكتفى فقط بتبادل

الإشارات والإيماءات مع أقرانه، فإن المرأة قد قضت الجزء الأكبر من وقتها فى الثرثرة وتسمية الأشياء بأسمائها، وبذلك أكسبت العالم طابعها الخاص وزادت نسبة الأسماء المؤنثة كثيرا على الأسماء المذكرة وكان اللأولاد ينسبون لها عادة.. وقد أكدت الأبحاث العلمية هذا الأمر عندما أثبتت أن المرأة تستخدم كل مخها عند الحديث بينما تقتصر مراكز الكلام عند الرجل على الجانب الأيسر.

ولكن هذه السيطرة لم تدم وبدأت الهزيمة الطويلة للأنثى مع اكتشاف البرونز، فقد أعطى هذا السلاح للرجل قوة إضافية لقوته العضلية، وبواسطة هذا السلاح استطاع أن يغزو الأقوام الأضعف منه، ويستأثر بالأراضى الواسعة ومناطق الصيد الغنية، وأكدت هذه الهزيمة ظهور الملكية الخاصة وتحولت المرأة إلى كائن مستلب، تخضع مثل بقية الممتلكات لسلطة الأب ـ الإله الحاكم، وبعد أن كانت الديانات القديمة تنصب من الآلهة ذكورا وإناثا، وتمجد الخصب واستمرار دورة الحياة أدى ظهور الطبقات إلى أن بدأت الشعائر الدينية فى التركيز على الموت والدمار وتأثيم العلاقة بين الرجل والمرأة والتفرقة بين العقل والجسد.

ورغم أن تاريخ مصر القديمة شهد مولد ملكتين بارزتين، وهى نسبة ضئيلة فى تاريخ مترامى القدم، يبلغ عمره حوالى

٥ آلاف عام، فإن عهود هاتين الملكتين كانت مليئة بالفتن والاضطرابات، فقد قتلت حتشبسوت على يد أخيها تحتمس الثالث، وذاقت نفرتيتى السم على يد كهنة آمون بعد أن ثارت على دياناتهم.

وقد تأثرت الفلسفة بذلك التراث من السيطرة الأبوية، وانتقل التجسيد الآسيوى للمرأة كإنسان مدحور ومستلب إلى الفكر الغربى، وبرز واضحا فى فلسفة أرسطو الذى جرد المرأة من كل دور يمكن أن تقوم به حتى دورها فى عملية التناسل وبقاء النوع حين وصفها بأنها مجرد وعاء سلبى يحتوى حياة الكائن المنوى الذى يجود به الذكر، وقد كان أرسطو هو المنظر الكلاسيكى لسلطة السيادة الأبوية حين وضع المرأة مع العبيد فى مرتبة واحدة بالنسبة للرجل.

الفصل بين الروح والجسد

ومع ذلك يبدو موقف أرسطو هينا ومعقولا بعض الشىء أمام الموقف المتزمت والقاسى الذى وقفه فيلسوف إغريقى آخر هو فيثاغورث الذى ميز بين الأدوار المختلفة التى تقوم بها المخلوقات، فهناك مبدأ الخير الذى خلق النظام والرجل، ومبدأ الشر الذى خلق الفوضى والمرأة.

وهكذا سادت فى المجتمعات الإغريقية والرومانية من بعدها نظرية الفصل بين العقل والجسد، العقل بما يمثل من سمو

الفكر والروح، والجسد بما تطغى عليه من نزعات وشهوات وغرائز، وقد اعتبر الرجل رمزا للعقل والحكمة وقوة الإرادة التى تستحق التمجيد، بينما اعتبرت المرأة ممثلة للجسد الذى يتبع أهواءه ولا تستحق سوى التحقير، وبدأت شعائرية الطقوس فى التحول التدريجى من احترام المرأة إلى الهروب الصوفى منها.

وقد أضفت الديانة المسيحية فى العصور الوسطى شرعية دينية على هذه النظرة الأبوية البدائية وأكد الفيلسوف توماس الإكوينى أن الرجل قد خلق لكل الأنشطة النبيلة مثل الفكر والحكم، وأن المرأة لا تعدو أن تكون وسيلة للتناسل، بل إنه نزع منها حتى مهمة تعليم الأبناء لأنها غير مؤهلة لذلك بخلاف الرجل الذى يملك القوة والسيطرة والحكمة اللازمة للتعليم.

ولم تخل المجتمعات العربية قبل الإسلام من هذه النظرة، ورغم ظهور عدة ملكات فى التاريخ العربى القديم مثل بلقيس والملكة خلدا والزباء ملكة تدمر، إلا أن عملية وأد البنات التى كانت تمارس فى الجاهلية الأولى لم تكن تنشد الخلاص فقط من متاعب الأنثى والعار الذى سوف تجلبه عندما تكبر، ولكن كان الهدف الأساسى هو الحفاظ على الثروة حتى تورث للذكر وحده دون أن تبددها الأنثى عندما تتزوج من غرباء..

لقلة عقلها!.

ومن جهة أخرى فقد كانت المرأة تتمتع بقسط وافر من الحرية فى الجاهلية فقد كان له مالها الخاص الذى تتاجر به، بل ويحق لها أن تطلق زوجها حين تدير له فقط باب خيمتها كى تعبر له عن أنها لا تريده، وأن عليه أن يستدير إلى خيمة أخرى، ورغم ما أعطاه الإسلام من حقوق للمرأة فإن منظر المرأة الملكة كان مشهدا عبثيا ومثيرا لسخرية الآخرين، وعندما تولت شجرة الدر حكم مصر بعث إليهم الخليفة العباسى يقول لهم إنهم إذا كان قد عدموا الرجال فإنه يسعده أن يرسل لهم رجالا من عنده يتولون الحكم.

وفى إنجلترا التى حكمتها الملكات طويلا فإن مأساة الملك لير الحقيقية أنه لم ينجب ولدا ذكرا يرث كل شىء، وحين قسم لير المملكة بين بناته الثلاث وقعت الحروب بين البنات وأزواج البنات، وأغرق غياب الحاكم الذكر البلاد فى بحار من الدم.

هرمونات مسالمة.. وأخرى عدوانية

إنه تاريخ طويل من الإبعاد والاستئثار بالسلطة المطلقة داخل البيت وخارجه، على العقل والروح والجسد معا، وقد صنع هذا تاريخا معقدا من الفعل ورده، يمكن أن يوصف فى عقدة «اللااستحقاق» التى تترسب فى أعماق المرأة والتى

قاست طويلا من الكبح المستمر بحيث أفقدها إرادتها وأصبحت تستمرىء العذاب والإخضاع القسرى، وتغلف هذه القسوة الداخلية التى تحسها تجاه الرجل بمزيج من الغيرة والاستعلاء.. والثأر فى بعض الأحيان.

ولكن.. ما الذى يقوله العلم فى هذا الشأن؟!.. ما هى حصيلة التحليل النهائى للفروق بين الجنسين، هل يؤثر التكوين الداخلى وإفراز الهرمونات وحجم المخ على الدور الذى يقوم به كل جنس بحيث يعطى القيادة للرجل، والتبعية والانصياع للمرأة؟.

وسط الحقائق العلمية القليلة عن الفروق والاستعدادات بين الجنسين هناك كثير من الهراء غير العلمى بصورة متحيزة، فقد كانت كل الأبحاث فى القرن التاسع عشر تميل إلى أن مخ المرأة هو أقل حجما من مخ الرجل، وبالتالى فإن الوظائف التى يقوم بها أقل فى العدد والكفاءة، وبناء على ذلك فإنه الأقدر على تسيير أمور الفكر والسياسة وشئون الدولة المعقدة، بينما لا يتيح مخ المرأة لها سوى فرصة الاهتمام بشئون المنزل وتربية الأطفال.

وفى الستينيات أكد علماء البيولوجيا الاجتماعية أنه لا يوجد أى فروق حقيقية بين الجنسين، وأن كل ما فى الأمر هو نوع من الانتخاب الاجتماعى تم عبر ملايين السنين أرغمت

فـيـه المرأة على أن تربض بجـوار النـار بينمـا يسـعى الـرجل حـامـلا رمـحـه فى أعـمـاق الغـابات، ويبـدو أن هذا التـراث «الجينى» مـازال يفرض قـانونه الأزلى، ويعلى من قدر البـيئة والتنشئة على عوامل البيولوجيا.

ولكن من المؤكد عمليـا أن هناك فـرقـا بين الجنسـين، ومن المؤكد أن الاختلافات الهرمونية عند الرجل تجعله أكثر نزوعا إلى العنف واستخدام القتـال، ويتمـثل ذلك فى ازدياد نسـبة هرمون (التستـرون) الذى يجعل الذكـر عدوانيا، بينمـا يميل هرمون (البرجستـرون) إلى جعل المرأة أقرب إلى الدعة وأداء الأعمال النمطية، ولكن هذا ليس نمطا ثابتا، فالمخ قابل للتغير، والعـادات تتبدل بتبدل بيئتها أولا، ولأنها ثانيا تدخل فى نوع من الدورات اليـومـيـة والشـهـرية تتـزايد فـيـهـا نسـب هذه الهرمونات وتقل فى الدوران داخل الدم.

إن بعض العلمـاء ينتقدون سلوك المرأة وخـاصـة فى فترة مـا قـبل الطمث عندمـا تتـزايد هرمـونات (البـرجـسـتـرون) فى جسدها، وينعكس هذا على تصرفاتها بحيث تقف بها أحيانا على حـافة الجنون وتصبح غير مسئولة عن أعمالها، ويعللون ذلك بعدم قدرتها على القيـادة واتخـاذ القرار فى هذا الوقت بالذات، ولكن بالمقابل اكتشف العلماء أن هرمون (التسـترون) فى جسم الرجل له دورة يومية فهو يصل إلى أدنى مستوياته

فى المساء ويزداد مع ساعات الصباح الأولى، وتقول الدكتورة جين راينيش أخصائية الغدد الصماء فى معهد ماكيفرى بالولايات المتحدة: «إذا ما قال العلماء إنه لا يمكن الثقة بالنساء بسبب دورة الطمث الشهرية فإن الرجال لهم أيضا دورة يومية، لذلك أحرى بنا ألا نسمح لهم بالتفاوض لعقد معاهدات السلام إلا فى المساء فقط، عندما يقل مستوى هرمون التسترون ويكونون بذلك أقل عدوانية». وبغض النظر عن قوانين البيولوجيا الصارمة فإن علاقة الرجل بالسلطة وتنازعها مع المرأة هو ميراث ثقافى مثقل ومتعدد الألوان، ميراث من الحصار والإحباط والكبت مارسه الرجل ضدها بحيث أرغمها على كبت مواهبها وقدرتها على ممارسة السلطة، وبذلك فإن جزءا من طبيعة المشكلة يكمن فى تسلط الذكر الذى ينزع إلى تفضيل الأنثى التى تمنحه هذا الإحساس بالقوة والذكاء.

ولكن القرن العشرين ـ وخاصة نهايته ـ يمثل التجربة العلمية التى تجعل هذا النمط من التفكير على وشك الاختفاء، فالمرأة تحكم ولم تعد تحتل وزارات هامشية، كما لايزال يحدث حتى الآن فى عالمنا العربى، ولكنها تحكم وهى على رأس السلطة وبشكل مباشر فى بلاد تحتوى على كتل كبيرة من البشر، وفى بلاد ذات ثقل سياسى كبير وبلاد تحكمها

تقاليد إسلامية صارمة أو شرقية آسيوية.

الرغبة فى الانتقام

من الغريب أن تأتى ثورة النساء الحاكمات من داخل آسيا التى كانت تتهم بأنها منبع «النمط الآسيوى» فى الإنتاج الذى يتم فيه استلاب المرأة، ووضع أقدامها داخل قوالب الحديد ووضع عقولها تحت تسلط المفاهيم شديدة الانغلاق، فما هى قصة النساء الحاكمات فى آسيا، وعلى رأسهن السيدة التى عادت إلى الحكم حديثا بى نظير بوتو، هل تحركها الرغبة الملحة فى إثبات تفوق جنسها، وقدرته على قيادة هذا العدد الضخم من الذكور، أم أنها تسعى بدافع أنثوى محض إلى الانتقام؟.

«إذا قتلت يوما فإننى سوف أستمر فى الحكم حتى وأنا فى القبر..».

كانت هذه نبوءة الزعيم الباكستانى ذو الفقار على بوتو وهو ينتظر حكم الإعدام، كان الصراع بينه وبين الجنرال ضياء الحق قد وصل إلى تناقض لا يحله سوى الموت، وكانت ابنته بى نظير البالغة من العمر وقتها ستة وعشرين ربيعا تزوره للمرة الأخيرة يوم ٣ أبريل عام ١٩٧٩، وتستمع إليه وتدرك أنه يحملها كلمات لن تقدر حبال المشنقة على محوها.

هكذا بدأت الفتاة الصغيرة التى ولدت عام ١٩٥٣ وتلقت

تعليمها فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية رحلة الانتقام لمقتل والدها، وهى بذلك تتبع واحدا من المبادىء التى أصبحت ثابتة وأساسية فى تلك المنطقة المزدحمة بالسكان والمشاكل والصراعات، والتى تسمى جنوب آسيا، وهى نفس المنطقة التى شهدت أكبر مجموعة من النساء العاملات فى حقل السياسة، وسط ظروف غاية فى التخلف تجعل الرجل فى حالة شبه عبودية، فما بالك بعبدة العبد. هكذا صعدت كوكبة من النساء تحركهن رغبة الانتقام المريرة فى مواجهة الذين تسببوا فى فقدهن لآبائهن أو أزواجهن أو أقاربهن، وبالنسبة لحالة بى نظير بوتو فإن رغبة الانتقام عندها لم تخفت حتى بعد أن مات عدوها الأول ضياء الحق فى حادث طائرة، وظهر لها عدو جديد هو نواز شريف رئيس الوزراء الأسبق الذى زج بزوجها زاد دارى فى السجن.

هل كانت الجماهير تكفر عن إحساسها بعقدة الذنب حين عادت بى نظير إلى بلادها كى تجد اللافتات الباكية فى استقبالها وهى تعلن «سامحينا لأننا بقينا صامتين عندما قتل أبوك».. أم أن ذلك الإرث السياسى الثقيل كان يحتم عليها أن تواصل هذه المسيرة الصعبة وأن تتغلب على فشلها الأول وموت الحلم كى تعيد إرادة التغيير من جديد؟.

فى كتابها «ابنة الشرق» الذى روت فيه بى نظير بوتو رحلة

عشـرة أعوام من عمـرها منذ اعـتقال والدها عـام ١٩٧٧ إلى زواجها عام ١٩٨٧ تبدو تلك المرأة النحيلة الطويلة القامة ذات الإرادة الحديدية، أرستقراطية ومـثقفة وتملك حسا شعبيا أيضـا، يطلق عليـها أنصـارها لقب «بى. بى» تمثـلا بممـثلة السـينما الفـرنسـية بريجيت باردو بسـبب بشـرتهـا الوردية، ورغم أنها تعلمت فـى أمريكا وبريطانيا إلا أنها بدأت حياتها السـياسـية بالاشـتـراك فى مظاهرات سـياسـيـة تندد بحـرب فيتنام، وتحلم بأن تمثل دورا شبيـها بدور أنديرا غـاندى فى الهند، وعندما سئلت عن سبب دخولها معترك السياسة قالت: «الشـعب يعتـبرنى شـقيـقة له، ويعاملنى على قدم المسـاواة، ويعـرف أن والدى شـهيـد وزوجى سُجن ظلمـا، وواجـبى أن أكافح ضد الظلم واللاعدل الذى حاق بى وبأسرتى».

إنه الإحـسـاس القـوى بالأسـرة والعـائلة، وهذا هو سـر قـوة النسـاء فى آسـيـا، فـالإحـسـاس بدرجة المواجـهة ضـد القسـوة والوحشية يمنحـهن أسـبابا إضـافيـة للقوة، كان هـذا واضحـا أيضــا فى قطبى الحكم فـى بلد مـسلم آخـر هـو بنغـلاديش، وبقدر ما ظهر واضحـا فى المرأة التى تمسك بدفة الحكم، بدا بنفس الصــورة فى المرأة التـى تعــارض أيضــا، فــالذى دفع البيجوم خـالدة ضـيـاء إلى تحدى الرجـال فى عـالم السـياسـة كان اغتيال زوجها الرئيس السابق ضياء الرحمن فى انقلاب

مضاد، كذا فإن زعيمة المعارضة الشيخة حسينا واجد لاتزال تحمل ذكرى والدها مجيب الرحمن مؤسس بنغلاديش والذى قُتل على أيدى ضباط صغار قاموا بانقلاب ضده، وقد قامت معارضة السيدة أساسا ضد حكم العفو الذى صدر بحق قتلة والدها.

ويمتد هذا التراث الآسيوى للدفاع عن العائلة والأسرة والانتقام من العنف الموجه لها إلى سريلانكا التى تحاول فيها هيما أرملة الرئيس بريما داسا الانتقام من الذين فجروا موكبه بقنبلة موقوتة، وإلى الهند حيث تحاول مينا زوجة أحد ابنى أنديرا غاندى النهوض بعد موت زوجها سنجاى الابن الأصغر فى حادث طائرة، إلى بورما حيث لا تفارق مخيلة زعيمة المعارضة زونج سان سو كاى الفائزة بجائزة نوبل للسلام ذكرى والدها الجنرال أونج سان الذى كان زعيما معارضا وتم اغتياله على يد السلطات فى بورما عام ١٩٤٧.

الإرث العثمانى

وتعطينا تركيا نموذجا آخر للمرأة التى صعدت إلى سلم الحكم، إنها تانسو تشيلر رئيسة الوزراء التى تثير جدلا شديدا على المستوى الأنثوى المحض، وعلى المستوى السياسى أيضا، فقد أثار جمال السيدة تانسو الواضح جدلا كبيرا فى تركيا عندما أعلن المخرج السينمائى سنان تشتيين

أنها أجمل امرأة في تركيا، بل إنها أجمل من ممثلة تركيا الأولى هوليا إفشار، فوجهها جميل ومعبر وابتسامتها ساحرة وإدراكها للأمور صائب ودقيق، من هنا فإن جمال السيدة تشيلر طبيعي وأخّاذ.

ومن ناحية أخرى تثير سياستها بالتوجه إلى أوروبا، ومحاولة لعب دور متميز في آسيا الوسطى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي جدلا واضحا، ويمكن القول بشكل أو بآخر إن صعود السيدة تانسو هو ثمرة التعددية والانفتاح اللذين أخذت بهما تركيا بشكل متقطع منذ ثورة أتاتورك، ولكن الوضع اختلف أخيرا وأصبح هناك مد أصولي يعم تركيا، وتواصلت أصداء المتشددين داخلها بالإضافة إلى الدور الذي تحاول أن تلعبه تركيا وسط الجمهوريات السوفييتية الإسلامية باسم الإسلام.

إن أستاذة العلوم السياسية السابقة والمتخرجة هي أيضا من الجماعات الأمريكية تواجه إرث الإمبراطورية العثمانية العريق، فهي تحاول أن تواجه واقعا اقتصاديا أخذ في التراجع بعد أن بلغ نسبة كبيرة جدا من النمو، وتواجه مشاكل حادة مع جيرانها الأوروبيين وخاصة مع ألمانيا التي بلغ عدد الأتراك العاملين بها حوالي ١,٨ مليون عامل مهددين بالطرد، والنزعات العنصرية، وبالصراع مع روسيا

حول النفوذ فى منطقة القوقاز، وهو نفس السبب الذى يدفعها إلى صراع وتنافس مع إيران أيضا، وهناك خلاف آخر بينها وبين جيرانها العرب فى الجنوب حول حصة كل طرف فى مياه نهر الفرات، بالإضافة إلى خلافاتها التقليدية والمستمرة مع اليونان حول جزيرة قبرص، أضف إلى كل ذلك القنبلة المتفجرة فى داخل تركيا نفسها والتى يطلق عليها (حزب العمل الكردستانى) الذى يسبب صداعا مستمرا ويهدد الاستقرار السياسى. وهى تقترب الآن من حافة الصدام الخطرة مع العسكريين.

هل يمكن للزعيمة الجميلة ذات السبعة والأربعين عاما أن تحل كل هذه المشاكل، إنها مثقفة، تتبع الأسلوب الغربى فى النظر إلى الأمور، ومن خلال عملها فى الجامعة وآرائها السياسية خسرت - كما تقول استطلاعات الرأى - تأييد ١٥٪ من الشعب التركى يتبعون التيارات الأصولية المتشددة، ولكنها لا تبالى بذلك «إنها تسير بسرعة، وتتحدث بسرعة، وتأخذ قراراتها بسرعة أيضا، وهذا ما يخالف النمط التركى فى تقرير الأمور» على حد تعبير أحد العاملين معها.

ورغم هذه النظرة الغربية فهى لا تملك إلا أن تكن احتراما عميقا للقيم الإسلامية التى تحكم مجتمعها، والمشكلة الملحة الآن هى كيف توفق بين متطلبات التحديث السريع والحفاظ

على توازن المجتمع التركى.

ثلاث نساء و٣٠٠ مليون مسلم

هكذا تصبح أمامنا خريطة إسلامية جديدة فى مجال الحكم، ثلاث نساء يحكمن حوالى ٣٠٠ مليون مسلم وسط مد أصولى يدعو بشكل مباشر أو غير مباشر إلى عودة المرأة إلى المنزل وإلغاء بعض من حقوقها الاجتماعية، فما بالك بالسياسية؟!

إن فوز هاته النساء الثلاث هو الرد الطبيعى على ادعاءات الإعلام الغربى حول نظرة المجتمعات الإسلامية المتخلفة للمرأة والقول بأنها تميل إلى قهرها وإبقائها خلف الحجاب، فإذا كان هذا الرأى يمثل وجهة نظر بعض المجموعات فإنه لا يمثل رأى التيار العام الذى حمل هاته النساء إلى قمة السلطة.

وهذا هو جزء من سحر الديمقراطية، فحين يتوافر جزء معقول منها تستطيع الجماهير أن تتحرك وأن تصل إلى الاختيارات الصائبة، ولاختارت الجماهير أكثر العناصر اعتدالا، ولم تخضع لوهم التسلط الجنسى، وبحثت عن البرنامج السياسى الذى يقدم حلولا واقعية لمشاكلها بغض النظر عمن يقف وراءه.

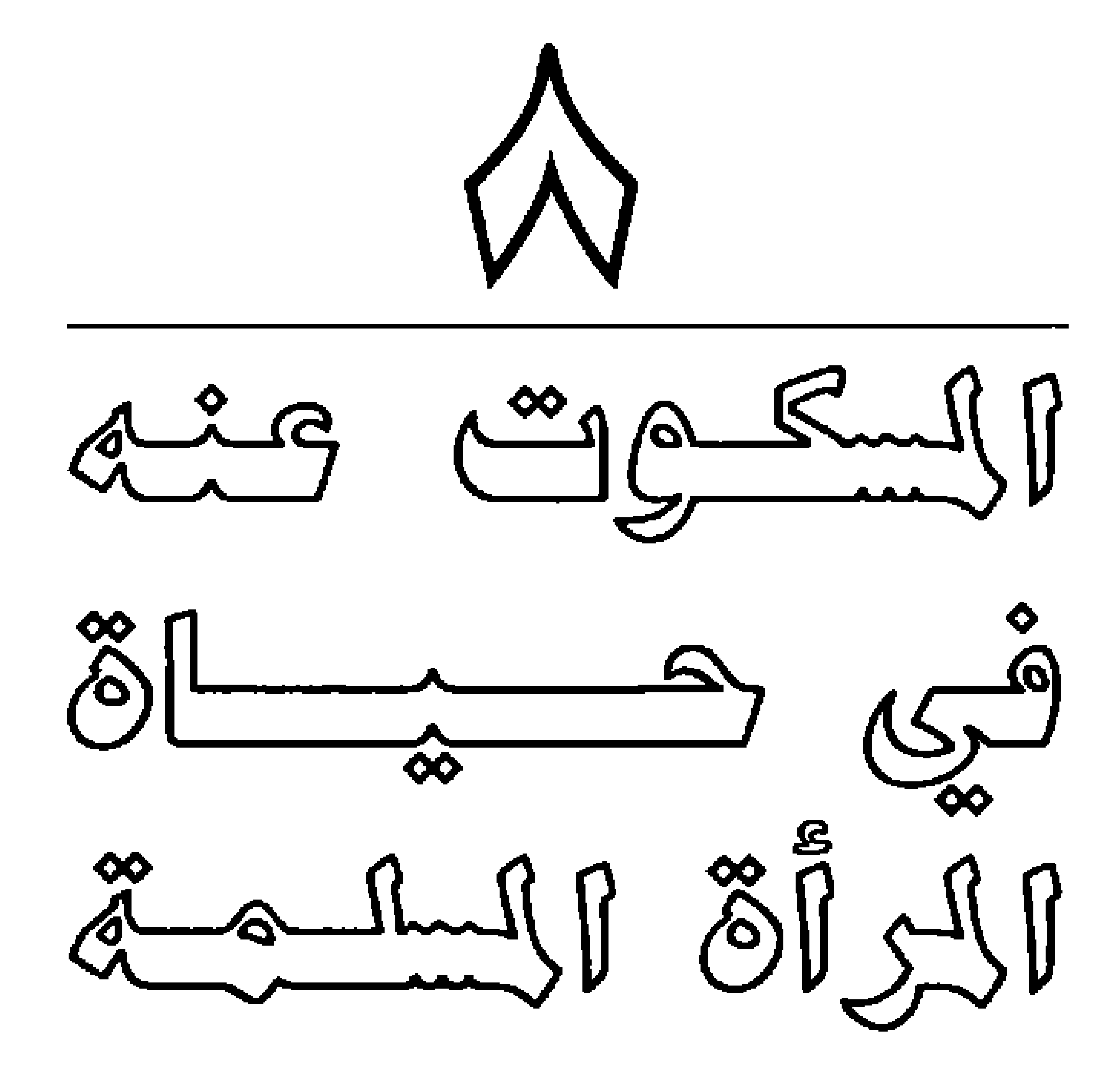
وهو أيضا جزء من مرونة الإسلام العظيم الذى يتيح للمرأة

إذا توافرت لها القدرات العقلية والإمكانات العلمية أن تعلو وأن تتحمل المسئولية في مواجهة كل الفتاوى القاصرة والمتحفظة.

وهو أيضا جزء من تيارات الانفتاح التى تعم العالم الآن، والتى هبت بريحها على العالم الإسلامي فأصابت ثلاثا من أكبر الدول بها ومازالت تتسع، وأكدت على حقوق الإنسان، ومن ضمنها حقوق المرأة سواء كانت روحية أو اجتماعية أو سياسية.

إن ريح الانفتاح تهب فى كل مكان، وقد مست حتى مياه الخليج الدافئة ففى الكويت تتولى رئاسة جامعتها سيدة هى الدكتورة فايزة الخرافى، وتتولى وكالة وزارة التعليم العالى بها سيدة أخرى هى الدكتورة رشا الصباح.

وتبقى هذه الظاهرة التى أهداها العالم الإسلامى إلى العالم دليلا على حيوية الإسلام وتفتحه وتقبله لكل تيارات العالم المعاصرة.


٨
المسكوت عنه
في حياة
المرأة المسلمة

منذ فترة والكتابات الغربية فى معظمها تبشر بواقع جديد للعالم، ولعل أهم نظريتين جرى طرحهما حتى الآن هما نظرية «فوكوياما» حول نهاية التاريخ ونظرية «صامويل ب. هنتجتون» فى صراع الحضارات. النظرية الأولى تفترض أن التاريخ قد انتهى بانتصار النموذج الليبرالى الغربى فى علاقات السوق الحرة وأن الحرية الفردية والديمقراطية ستضمنان دوما بقاء الحضارة الغربية التى نعرفها اليوم والتى تتحول لتكون النموذج المحتذى لكل الشعوب.

أما هنتجتون فقد قال فى مقاله الشهير «صراع الحضارات» الذى نشره فى دورية (الفورين أفيرز) فى صيف ١٩٩٣ إن خطوط الانقسام الحضارى/ الثقافى ستكون المصدر الرئيسى للنزاعات المقبلة فى العالم وإن الحضارة/ الثقافية يمكن أن تحتضن مجموعة متعددة من الشعوب وأن تنقسم إلى فروع تضيق أو تتسع، إلا أن الاختلاف بينها جوهرى من ناحية اللغة والتاريخ والدين، وينقسم العالم فى نظره إلى سبع أو ربما ثمانى حضارات هى: الغربية، والكونفوشية، واليابانية، والإسلامية، والهندية والسلافية، والأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية وربما الإفريقية.

ومنذ أن انطلقت هاتان النظريتان وهناك نقاش حضارى وتاريخى يدور بين المطلعين والمهتمين فيما إذا كان هذا الطرح

الحضارى/ الثقافى هو شيئا لابد من أن يواجهه العالم أم أن النظريتين تحضران وتمهدان لقبول تفوق الغرب خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفييتى.

فى «صراع الحضارات» يدافع هنتجتون عن فكرته بالقول إن التمايزات الثقافية تبدو أعمق من تلك التمايزات المتصلة بالسياسة والاقتصاد وإنه فى نهاية المطاف سيتحول الصراع الإنسانى الذى عرف أشكالا عديدة منها محاولة التوسع الإمبراطورى والاستعمارى، ومنها الصراع الأيديولوجى، إلى صراع حضارى قادم، خاصة بعد أن ضاقت الأرض بما عليها من بشر وأصبح انتقال الأفكار والأنساق أسهل وأسرع مما كان فى أى مرحلة تاريخية سابقة.

الكتابات التى ناقشت فاكوياما وهنتجتون عديدة، بل لقد أفردت الدوريات الثقافية المحترمة عددا كبيرا من صفحاتها فى السنوات الأخيرة لمناقشة أو نقد الأفكار التى طرحها الكاتبان. وما يهمنا فى الأمر الإشارات إلى الإسلام والمسلمين والعرب فى ضوء هذه الكتابات وما أتى بعدها سواء العام أو المتخصص.

بادىء ذى بدء لابد من القول إن هناك نماذج فكرية قد طرحت لتفسير مسيرة التاريخ العالمى الحديث وعلاقة الشعوب المتبادلة. هذه النماذج قد أصبحت عاجزة اليوم عن

تفسير التغيرات الكثيرة التى تحدث. لذلك فإن محاولات فوكوياما وهنتجتون تظل فى المجال الذى ناقشاه، والاهتمام الكبير الذى لقيته آراء هذين الكاتبين يعنى - من جملة ما يعنى - أننا نبحث عن نموذج فكرى جديد يحل محل النماذج التقليدية السابقة ويفسر الحقائق التى نراها أمام عيوننا سواء كانت حقائق اقتصادية أو ثقافية أو سياسية بطريقة أكثر مدعاة للرضا والقبول.

مثل هذا البحث يحتاج إلى صراحة وصرامة، صراحة فى تناول الحقائق، وصرامة فى تدقيق الغث من السمين بشكل علمى.

المرأة المسلمة

إحدى قنوات المناقشة فى الصراع الثقافى الجديد هى الإسلام والمسلمون والعرب، وكل هذه المصطلحات تعنى فى بعض الأوقات شيئا واحدا، أو بينها على الأقل هوامش مشتركة عديدة، لذلك يجد البعض أن نظرية هنتجتون فى صراع الحضارات موجهة جزئيا للعالم الإسلامى، بعضهم يرى فيها جانبا إيجابيا هو الاعتراف بهذه الحضارة/ الثقافة وأنها تمثل تحديا أو أحد التحديات للغرب، وبعضهم يرى فيها نوعا من أنواع الاستعداء العنصرى. وفى تقديرى أن كلا الرأيين مشبع بشىء من العاطفة. إلا أن حبل النقاش الثقافى

والحضارى عندما امتد إلى موضوع المرأة المسلمة أصبحت الكتابات حولها عديدة خاصة فى الغرب، بعضها يكتب بخفة شديدة فتضيع منه الحقائق، وبعضها بخبث شديد فيصب كتاباته على السلبيات ويتجاهل الإيجابيات. وننظر نحن إلى الموضوع برمته كعرب ومسلمين إما قابل أو رافض دون مناقشتها، ولكن علينا ألا نتعجل نشر نعى هذه الكتابات قبل تمحيصها، ومهما قلت فيها فإنها تؤثر تأثيرا كبيرا فى الرأى العام الغربى الذى تقدسه الديمقراطية الغربية وتعتبره الحكم الأخير فى هذه القضايا.

ولكن لماذا المرأة المسلمة ؟

لأنها تثمل عقدة وازدواجية فى ذهن الرجل العربى . وهى معيار لاختبار دعاوى التقدم التى يطلقها ولواقع التخلف الذى يعيش فيه. ولأن جسدها قد أصبح الحجة المعاصرة التى يأخذها السلفيون الجدد لإثبات ضلالة وجاهلية المجتمع الذى نعيش فيه، ولأننا جميعا - سلفيين أو غير سلفيين - ننظر إليها وفق معايير أقل ما يقال عنها إنها غير معقولة فالمرأة فى نظر القانون العام الذى يحكمنا جميعا هى إنسان كامل، من المفروض أن يتساوى مع الرجل فى حق التعليم والتوظف والترقى، ولها الحق فى الانتخاب السياسى - هذا إذا كان هناك انتخاب سياسى حقيقى فى العالم العربى - وهى أيضا

مؤهلة لكل المناصب حتى العليا منها، فهى وزيرة ومديرة جامعة ومحامية وقاضية. القانون يجعلها كاملة فى مواجهة الرجل الكامل. ولكن الأمر ليس كذلك وفق قانون الأحوال الشخصية. فهى نصف امرأة لا تسافر دون إذن زوجها. ولا يعتد بشهادتها فى كثير من الأحوال. وطلاقها فى يد زوجها وليس فى يد قاض عادل يزن أمورها، ويراعى ظروفها.

أما وفق قانون العادات والتقاليد فهى كائن غير موجود تقريبا. محرمة على العيون ومحرومة من التفاعل مع العالم الخارجى. من المستحسن أن تختفى وإذا كان لابد لها من أن تسير فى الشوارع فمن الأفضل أن تتحول إلى خيمة سوداء. وهكذا يوجد فى عالمنا العربى فى وقت واحد امرأة كاملة وأخرى منكسرة وثالثة مختفية.

كم جزءا للرغبة ؟

ما دعانى لأن أكتب هذا المقال كتاب قرأته أخيرا وقد صدر حديثا (١٩٩٥) عنوانه «تسعة أجزاء للرغبة: العالم الخفى للمرأة المسلمة» كتبته صحفية من أصل استرالى هى جيرالدين بروك التى فازت بجائزة أفضل مراسلة لصحيفة «وول ستريت» وهى من أهم صحف المال والاقتصاد فى أمريكا. وقد عملت هذه المراسلة النشيطة فى الشرق الأوسط لمدة ست سنوات، وهى الآن تراسل نفس الصحيفة ولكن من

مبنى الأمم المتحدة.

فكرة الكتاب الذى يتكون من أثنى عشر فصلا إلى جانب المقدمة والخاتمة هى إضاءة الجانب المعتم - كما ترى المؤلفة - فى حياة المرأة المسلمة الحديثة. أما عنوانه فهو مشتق من أقوال أحد رجال الدين الإيرانيين للمؤلفة «إن الله خلق عشر رغبات أودع تسعا منها لدى المرأة».

تضع الكاتبة قصص كتاباتها فى صورة صحفية محببة للقراءة وسريعة الهضم. لذلك فإن القارىء الغربى سوف يقبل هذه الصورة دون مناقشة وربما دون تفكير، من هنا فإن هذا الكتاب يساهم فى رسم صورة ما للمرأة المسلمة، ليست بالضرورة - حتى لا تأخذنا العاطفة - مرسومة بألوان خاطئة أو بحروف عدائية، ولكنها فى نظرى ناقصة الرسم أو انتقائية.

تقول الكاتبة إنها كانت تحمل للشرق صورة مختلفة قبل أن تصل إليه «أمراء فى ثياب بيضاء وعيون بندقية لأهل فارس» وبعد أن قضت وقتا فى القاهرة طال لمدة عام، وجدت أن الحياة مملة فقد تفوق زوجها عليها برغم أنه قد أخذ إجازة من عمله ليلحق بها ويعمل صحفيا حرا يكتب لعدة مجلات وجرائد فى أمريكا، لقد كانت الأبواب مفتوحة أمامه كرجل فى مجتمع شرقى أما هى فقد ظلت الأبواب شبه مغلقة فى

وجـهـهـا، وتقـول: «لقد ذهبت إلى الشـرق من أجل البـحث عن المغامرة وليس من أجل الاستماع إلى أكاذيب مملة فى مكاتب بعض صـغـار المسـئولين عن الإعـلام، لقـد كـان الحـديث مع الناس العـاديين هـو هدفى، ولكن الحـديث مـعـهـم إما أنه كـان مدعاة لـلإحراج أو فـرصـة من قبل البعض لاختبـار الفـرضية القـائلة إن كل السـيدات الـغربيات سـهـلات المنال . ولكن الذى فتح عينى على مشروع جديد ومثير هو «سـارة» مسـاعدتى المصـرية فى المكتب النشطة والحـيـوية خـريجـة الجـامـعـة الأمريكية» (ولا نعرف نحن ما إذا كان هذا الاسم صـحيحا أو مستعارا ولو أننى أميل إلى أنه اسم مستعار)

تصف الكاتبـة سارة بصفـات إيجـابيـة شكلا ومضـمـونا: شـعـرها، مـلابسـهـا، طريقـة وضع المكيـاج. إنها امرأة تقـارب المرأة الغربية فى النشـاط وتوقد الذهن. وتضـيف المؤلفة: «لمدة عام كنت مـحتـارة فى عملى الجديد حتى جاء يوم فـتحت لى سـارة طريقـا جـديدا للتفكير.. ففى الأيام الأولى من رمضـان فـتـحت المكتب لأجـد أمـامى سـارة.. مـحـجـبـة، مـلامح سـارة اختلفت، مـلابسـهـا تغيرت، مكياجـهـا لم يعد هو فـقـد أصـبح وجـهـها خـاليا من المسـاحيق. كنت أعتـقـد حتى هذا الوقت أن العودة إلى الإسـلام هى اختيـار المضطرين من الفقـراء، ولكن سـارة لم تكن فـقـيـرة ولا مضـطرة، لقـد خلعت المرأة المصـرية

حجابها التقليدى منذ سنة ١٩٢٣ عندما ذهب وفد للمرأة المصرية بقيادة هدى شعراوى وسيزا نبراوى إلى محطة مصر للسكك الحديدية لمقابلة زعيم الأمة سعد زغلول العائد من المنفى وفعلت مثلهما العشرات من النساء والفتيات اللواتى كن معها فى استقبال الزعيم، ومنذ ذلك الوقت والمرأة المصرية تواصل مكتسباتها فى العمل والمساواة، ووالدة سارة التى عاشت تحت النفوذ الرمزى لحركة هدى شعراوى وزميلاتها لم تكن محجبة قط!»

مضت تتداخل المعلومات عند الكاتبة فتقرر أن «قبول سارة بالحجاب يعنى قبولا بأن تكون نصف شاهدة، وأن تقبل حياة بيتية من حق زوجها فيها أن يضربها إن هى عصت أى أمر من أوامره، ويمكن أن يشركها زوجها مع ثلاث زوجات أخريات، ويطلقها متى أراد، ويحتفظ بحضانة أولادها دون أن تحتج»

تسترسل الكاتبة فى مثل هذه المقولات لتأخذنا فى رحلة تاريخية عن الحجاب،كيف بدأ وما هى أحكامه ولماذا يختلف لدى المرأة المسلمة من مكان وزمان إلى مكان وزمان آخر، فالمرأة المسلمة فى باكستان يختلف حجابها عن المرأة المسلمة فى الجزيرة العربية.

قصة سارة هى مدخل قصصى وقد يكون مغريا بالقراءة

للقارىء الغربى، خاصة إذا علمنا فى وقت لاحق أن سارة ترفض منحة دراسية من جامعة هارفارد لأن المرأة المسلمة لا يمكنها أن تسافر إلى الولايات المتحدة دون محرم. ثم يتطور الأمر بسارة إلى خطبتها إلى أحد أقربائها بسبب حجابها برغم أن هذا الحجاب قد أصبح يخفى بعض الكيلو جرامات من اللحم الذى تراكم على جسم سارة التى أهملته كما لاحظتها المؤلفة وهى تلتقط أنفاسها بصعوبة بعد أن صعدت أحد السلالم.

تأخذنا المؤلفة بعد ذلك فى زيارة إلى إيران ويبدو أنها أكثر من زيارة، وكيف لبست هى (الشادور) من أجل أن تقوم بوظيفتها خير قيام، وكيف شاهدت شرائح من ممثلى النساء المسلمات من مناطق عديدة فى العالم الإسلامى كن فى زيارة إلى إيران، تصف شعورهن، آمالهن وآلامهن إلى درجة أنها قابلت - مع مجموعة أخرى - زوجة الإمام الخمينى ولاحظت أن شعرها مصبوغ بالحناء. وعرفت - كما كتبت - شيئا عن علاقة الإمام الأسرية.

وتقارن المؤلفة موقف صاحبتها سارة بموقفها عندما كانت فى مدرسة للراهبات فى استراليا وكيف عاقبت الناظرة مجموعة من الطالبات - بمن فيهن المؤلفة - لأنها شاهدتهن بقرب المدرسة وهن لا يلبسن المعطف المدرسى حيث إن الثوب

العادى يبرز بعض تفاصيل أجسادهن، تقول المؤلفة أنها توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة عندما عرفت أن الكنيسة الكاثوليكية حرمت تحديد النسل والطلاق فما الذى دهى سارة المصرية وهى من نفس جيلها تقريبا.

القضايا المطروحة

وحتى لا يستنتج القارئ أن هذا الكتاب الذى نعرضه هو مجرد قصص قد يختلط فيها الخيال مع الواقع، فإن الكاتبة تطرح قضايا جادة علينا أن ننظر إليها باهتمام بالغ، فهى عندما تتحدث عن ختان البنات فى بعض البلدان العربية والإسلامية تأخذ الأمر على محمل الجد وتصف ما شاهدته فى أكثر من مكان سواء كان ذلك فى مدينة أو قرية أو تجمع قبلى، وهى مع الأسف تعطى انطباعا أن هذه العادة لها علاقة بالإسلام وهو انطباع غير صحيح ولن يجدى نفينا له بيننا وبين بعضنا، أو رفض الاعتراف بوجوده فى بعض البيئات بأننا قد أخلينا مسئوليتنا عن ذلك، فإن مقاومته تحتاج إلى جهود كل المهتمين بقضية المرأة فى تلك البلاد التى تمارس فيها هذه العادة حتى لو كان فى حدود ضيقة.

لقد كشف الفيلم الواقعى الذى عرضته محطة سى. إن. إن حول عملية الختان التى دارت فى أحد الأحياء الشعبية بمدينة القاهرة عن حقيقة بالغة البشاعة علينا أن نقف أمامها مهما

كان موقفنا من الاستغلال الغربى لهذه القضية. فالذين ارتكبوا هذه الفعلة لم يحسوا أنهم ارتكبوا أى خطأ.. وحتى عندما سمحوا للكاميرات الأجنبية بالتصوير فعلوا ذلك من باب المشاركة فى الاحتفال، احتفال إعداد هذه الأنثى الصغيرة لزوج المستقبل الذى لا يعلم أحد عنه شيئا.. ومع ذلك يجب أن يجرى التجهيز له وأن تخفف الأنثى من «غلمتها» حسب الاعتقاد الشعبى الشائع حول هذه المسألة..

إن فى مصر قانون يحرم القيام بختان الأنثى نظرا لما يحدثه من مضاعفات نفسية وصحية على جسدها.. ولكن هناك أيضا القانون الأقوى.. قانون المعتقد الذى لا يستمد جذوره من الفهم الخاطئ للإسلام فقط.. ولكن من التراث الفرعونى نفسه.. فعملية الختان التى تسمى «الطهارة» ترى أن هناك شيئا نجسا فى الجسد الإنسانى يجب إزالته. والتطهر لا يقف عند مراتب الروح ولكن يجب أن يأخذ بعده العضوى، وبرغم أن الختان يمارس على الرجل والمرأة إلا أن النظر إليه يتم من منظورين مختلفين تماما.. فطهارة الرجل تزيد من قوته وتدعم وجوده الشرقى وتجعله قادرا على مواجهة متطلبات رجولته.. ولكنها بالنسبة للمرأة نوع من الإخصاء الجزئى أو التأديب العضوى يتم مبكرا حتى لا تنفلت من عقالها عندما تكبر.. أى قانون وضعى يمكن أن

يقف فى مواجهة هذه التصورات والاعتقادات الراسخة. وأى توعية دينية يمكن أن يقوم بها بعض رجال الدين الذين هم أسرى هذه المعتقدات!

إننا فى حاجة ماسة - بعيداً عن الكتابات الغربية والتشنيعات التى لا تأتى غالبا من فراغ - إلى مواجهة هذا الأمر بشجاعة. فتصورنا عن المرأة وعن سهولة وقوعها فى الخطيئة لأن جسدها مهيأ لذلك هو أسير تصورات مستمدة من معتقدات شعبية وأسطورية وحكائية دعمها الرجل حول المرأة. ولعل مثال ألف ليلة وليلة شاهد على ذلك. وهذا التصور أخرج المرأة من السياق الزمنى إلى اللازمنى.. من سياق التطور التاريخى الذى عرفته البشرية إلى النمط الأزلى الذى لا يصيبه التبديل، وكل هذه المعتقدات الشعبية كانت ترى أن الذكورة هى المعيار الأمثل وربما هى الشكل الذى يجب أن يكون عليه الإنسان.. بينما الأنوثة مجرد استثناء، حالة خاصة تكون مفهومة أحيانا وغامضة فى أغلب الأحيان.

وتناقش الكاتبة موضوعا آخر أكثر أهمية ومازال يمارس فى بعض البلاد الإسلامية، ففى إحدى زياراتها فى صحبة نساء إيرانيات إلى أحد المراكز الدينية، وفيما كانت رفيقتها المترجمة مشغولة تحدث إلى الكاتبة رجل، لم تفهم الحديث واعتقدت أنه قد عرف أنها أجنبية وأنه يريد منها مغادرة

المكان، ولكن عندما رددت الحديث بعد ذلك لصديق فهمت أن هذا الرجل كان يعرض عليها (الصيغة) أو زواج المتعة، وقيل لها إنها كانت ترتدى (الشادور) بطريقة تفعلها النساء الراغبات فى (الصيغة). وتذهب المؤلفة بعد ذلك للحديث المطول والتاريخى عن (زواج المتعة)، وهو قد يكون مطبقا فى بعض البلدان الإسلامية، وقد يكون له معارضة نسائية ورجالية على حد سواء ولكنه بالتأكيد موضوع يثير الاهتمام فى الغرب، وربما الاستغراب أيضا. وتعلق المؤلفة على ذلك قائلة: لقد قرأت شخصية سى السيد فى قصة نجيب محفوظ الشهيرة ولكننى لم أكن أعرف أن هناك تطابقا بين شخصية سى السيد وشخصيات مازالت تعيش حتى اليوم ترى المرأة بنفس هذه النظرة.

ومن القضايا الأخرى الجادة التى تناقشها المؤلفة ما اسمته بـ (قتل الشرف)، وتتابع هذه الظاهرة فى مدن وقرى الشرق الأوسط وتتحدث إلى فتيات مسلمات فضلن العيش بعيدا عن أهليهن وذويهن بسبب هذه الظاهرة، وكيف أن المرأة فى بعض المجتمعات العربية والإسلامية تموت حزينة خوفا من (الإشاعات) لا الفعل، وتضيف المؤلفة أن هذه الظاهرة منتشرة بين الفقراء وفى القرى ولكن لا يخلو مجتمع منها، إلى درجة أن بعض السيدات العربيات قد شكلن فيها بينهن

جمعية اسمينها (الفنار) لجمع هذه الحوادث ومحاولة لفت الأنظار إليها.

وتنتقل المؤلفة بعد ذلك إلى موضوع جدى آخر هو مشكلة الزواج لدى الأسرة فى المدينة، بصرف النظر عن أية مدينة فإن هناك مشكلة زواج ليس فقط فى تدبير مصاريف الزواج الباهظة لدى قطاعات الطبقة الوسطى الأعرض فى المدن العربية، بل وأيضا الكفاءة فى منع زواج الابنة لأن الأب أو الأسرة ترى أن الزوج غير مكافىء للزوجة من حيث الثروة والمكانة، هذه الظاهرة - كما تقول المؤلفة - تركت العديد من النساء دون زواج، وهى ظاهرة تعترف أنها اجتماعية أكثر منها دينية.

لا تتعجلوا الحكم

بجانب القضايا الرئيسية التى طرحتها المؤلفة فإن موضوع دراستها هو المرأة المسلمة العربية وإلى حد ما الإيرانية مع إشارات قليلة للمرأة التركية والباكستانية أو حتى الأندونيسية مثلا وجميعهن مسلمات، وهى تسقط بشكل غير علمى تاريخ بعض النساء المسلمات على واقع الحال اليوم، وهو امتداد للفهم الغربى عن الحضارة/ الثقافة التى ناقشناها فى صدر هذا المقال، وعلى أنها شىء ثابت لا يتغير مع الزمن وذلك ضد المنطق العلمى، كما أن المؤلفة تشير إلى العديد من مكاسب

المرأة المسلمة الحديثة في بعض البلدان كأن تقبل في سلك الشرطة مثلا وتقوم بالتدريبات وأن تشارك حتي في القتال، ومن الفصول المثيرة للانتباه ما أسمته المؤلفة (ألعاب المرأة المسلمة) وهي إشارة إلي تنظيم دورة الألعاب الأولمبية للمرأة المسلمة في طهران عام ١٩٩٣ التي شاهدتها المؤلفة علي الطبيعة.

وكذلك الفصل المخصص لحجاب الفنانات في مصر والذي تناقش فيه ارتداء سهير البابلي للحجاب مع مجموعة أخري من أهل الفن من النساء في مصر. أما أكثر الفصول إثارة فهو الأخير الذي تصف فيه الكاتبة زيارة قام بها أحد الأشخاص المهمين إلي بيتها في إحدي ضواحي لندن فبعد أن تأكد الضابط المكلف بترتيب المقابلة من خلو المنزل مما يعكر الصفو وتفقده لحجراته قال للمؤلفة: دعي الباب مفتوحا فالزائر لا يستطيع أن يقف علي الباب وبعدها دخل سلمان رشدي، وكان ذلك اليوم هو اليوم الذي قتل فيه الكاتب فرج فودة في القاهرة!!

المرأة العربية وحجاب العقل

قد تكون المؤلفة قد أخطأت أو أصابت. ولكن الخطأ الأساسي يكمن في داخلنا نحن. فلا يتوقف الأمر عند عدم فهم الإسلام وعلاقته بالمجتمع بالنسبة للمثقف الغربي ولكننا

بتصرفاتنا المتهورة نضيف الكثير من اهتزاز الصورة بفهمنا السطحي لقشور الدين، خاصة من المرأة وقضاياها.
ويحضرني في هذا المجال قول الكاتب اللبناني المشهور أمين معلوف: «أعتقد أن القيم والصفات المرتبطة بالرجولة في تاريخنا سببت من الضرر أكثر مما سببته من المنفعة، وربما نكون الآن في مرحلة تحتاج أكثر إلي الصفات المرتبطة بالأنوثة».

وقد لا توضح هذه الكلمات مدي الإيمان بجدوي الصفات الأنثوية بقدر الكفر بكل «العنتريات» الفارغة حول انسياقنا وراء الصفات الرجولية في تاريخنا والمحاولة المستمرة لتهميش دور المرأة. فنحن حين وأدنا البنات وسط رمال الجاهلية وأدنا معهن أيضا قدرتنا علي رؤية العالم من خلال المشاركة والمغايرة في الوقت ذاته. ولم نترك الطريق سهلا أمام المرأة العربية لإثبات جدراتها واستحقاقها للحياة تحت الشمس، وبذلك استهلكنا جزءا كبيرا من طاقتها في الإثبات ومن الطاقة الذكورية في نفي هذا الإثبات.

إن الأمم المتحدة تستعد لعقد مؤتمرها العالمي حول المرأة في بكين في سبتمبر المقبل (*). وهو مؤتمر سوف يحدث ـ كما أتوقع ـ نفس الدوى الصاخب الذي أحدثه المؤتمر السابق

* نشر هذا المقال فى مجلة العربى – العدد ٤٣٧ – أبريل ١٩٩٥ .

عن السكان والتنمية. ففى هذا المؤتمر كان موضوع المرأة هو أشد الموضوعات إثارة للمناقشات والاختلافات. فما بالك إذا كان المؤتمر بأكمله مخصصا لوضع المرأة حول العالم، وأن زوابع سوف يثيرها حين تخرج مظاهرات النساء فى كل مكان ليعلن عن اعتراضاتهن وتوضيح قضاياهن؟..

إن وضع المرأة فى العالم كله مثير للحيرة والفزع أيضا.. فمازال استغلال النساء واستعبادهن ووأد الصغار منهن وضعا موجودا فى العديد من بلدان آسيا وخاصة فى الهند. ومازالت تجارة الرقيق الأبيض تواصل ازدهارها.. بل وانتقلت شمالا لتصيب جمهوريات ما كان يعرف بالاتحاد السوفييتى سابقا. بل والمدهش أن عمليات الاغتصاب الجماعى للنساء التى كانت إحدى ظواهر الحروب القديمة قد عادت لتطل ببشاعة من خلال معارك البوسنة والهرسك. فماذا يمكن أن تثور المرأة المسلمة من أجله وسط هذه التظاهرات العارمة؟!..

فى اعتقادى أنها سوف تثور على الحجاب.. ولست أقصد ذلك الحجاب العادى الذى يخفى شعرها أو جمالها. ولكنها سوف تثور على الحجاب الذى نحاول وضعه على عقلها ومحاصرتها من خلاله. إننا نحاول أن نعيد المرأة إلى سجن القرون الوسطى حين كان جسدها خطيئة يجب أن تعاقب عليه بالضرب كى تخرج منه أرواح الرغبات الشريرة. ولا

ننظر إليها ككيان متكامل تمتزج فيه الروح بالجسد والرغبة بالفكر. فنحن ـ الذين نتغنى طويلا بالحقوق التى أعطاها الإسلام للمرأة ـ لم نأخذ من الإسلام سماحته. وتركنا فقه الأصول بمعناه الواسع والشامل وغرقنا فى بحر التفاصيل الصغيرة فى «فقه الفروع» حيث كل شىء نجس ومحرم بدءا من عطر المرأة حتى إلقاء الماء الساخن فى المجارى حتى لا يؤذى الجن الرابض فيها!.

إن مؤتمر بكين ـ كما يؤكد خبراء الأمم المتحدة ـ لن يكتفى فقط بالاقتراحات ومناشدة الدول، ولكنه سوف يركز على الإجراءات التى تكفل تنفيذ السياسات التى يتبناها. وسوف تتم مطالبة الدول بوضع خطة واضحة للخدمات الاجتماعية والسياسية التى تساعد المرأة على النهوض والترقى فى أنشطة العمل المختلفة والتى لا تعرقل دورها كأم وعاملة. وسوف تشكل لجنة دولية مهمتها مراقبة سياسة عدم التمييز ضد المرأة والمساواة بينها وبين الرجل فى الفرص. وكذلك دراسة تأثير النزاعات المسلحة فى حياة المرأة والطفل. وهناك قضايا مهمة لم تأخذ دورها من الإعلام العادى ولكن المؤتمر يفرد لها حيزا من أعماله مثل حقوق المرأة والبيئة والتنمية ومرض الإيدز ومشاكل الهجرة والإجهاض وكلها تؤثر فى صميم حياتها.

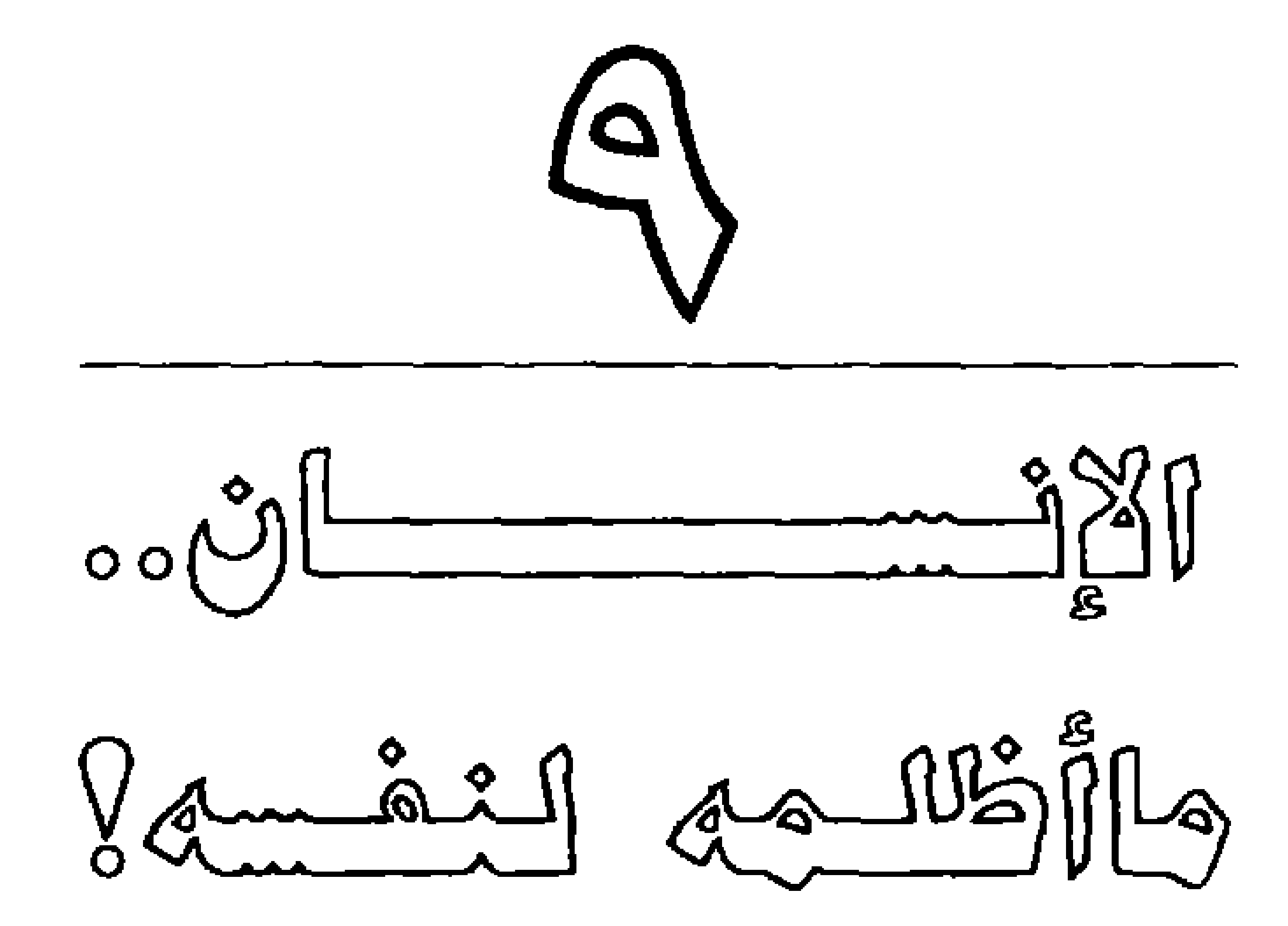
المرأة المسلمة والمرأة العربية بالتحديد تدخل هذا المؤتمر وهى تعانى نسبة أمية تبلغ ٦٠٪ من مجموعها، أى أن هناك ٦٥,٥ مليون امرأة عربية لا تعرف القراءة ولا الكتابة. بل إن معدل بقاء البنت العربية فى مراحل التعليم لا يتعدى ثلاث سنوات مقابل خمس سنوات للولد.. وعلى المستوى الصحى فمازالت نسبة وفيات الأمهات العربيات عند الولادة مرتفعة حتى بالمقارنة مع مجموعات الدول النامية.

إن المنظمات العربية الحكومية وغير الحكومية التى حاولت وضع خطة للنهوض بالمرأة العربية حتى عام ٢٠٠٥ وجدت أنها تواجه عشرة مجالات رئيسية، وهو رقم متواضع أمام كم المشاكل التى يحفل بها واقعنا العربى الغريب.. وقد حددت اللجنة مجالاتها فى: عدم المساواة بين الرجل والمرأة فى تقاسم السلطة، والافتقار إلى الوعى بحقوق المرأة كإنسان والالتزام بهذه الحقوق دوليا ووطنيا، وعبء الفقر الدائم وعدم مساواة المرأة فى فرص العمل والأجور، وعدم المساواة أيضا فى الحصول على خدمات التعليم والصحة. ولا تنتهى تلك اللائحة الطويلة التى نتوجه بها إلى مؤتمر بكين وقلوبنا كليمة.

المرأة ومفكرو الإسلام

وفى الختام يجب أن أعترف أننى طوال المدة التى أمضيتها أقلب فيها صفحات هذا الكتاب كنت أدرك أنه [illegible]

النظر إلى الإسلام من خلال عيون غير خبيرة ومن الخطأ النظر إليه على الورق أو من خلال بعض وقائع التاريخ المنتقاة، فالمفكرون المسلمون العظام كالغزالى وابن رشد وابن عربى وغيرهم قد ناقشوا الكثير من هذه الأطروحات ووصلوا بها إلى أحكام منطقية. لقد جعل الإسلام للمرأة الكثير من الحريات التى كانت تقيدها قبل ذلك، كما أزاح عن كاهل نساء الشعوب التى دخلت الإسلام قيودا ثقيلة يعرفها المتخصصون، وعلينا جميعا العمل للتفريق بين الثقافة السائدة والتقاليد المحلية لهذا المجتمع أو ذاك وبين مبادئ الإسلام العظيم.


٩
الإنسان..
ماأظلمه لنفسه!

نعم.. ما أظلم الإنسان لنفسه! فأمامى الآن ثلاث قضايا تعبر عن هذا الظلم للنفس وهى مجرد أمثلة مما يدور من حولنا، بينما الإنسانية تجتاز النصف الأول من العقد الأخير للقرن العشرين باتجاه القرن الواحد والعشرين.

لقد نظرت إلى حوادث سنة مضت واخترت منها ثلاثا، بشكل عشوائى، ووجدت أن هناك خيطا يربطها جميعا برغم أنها تبدو فى ظاهرها منفصلة، لكن عند سبر أغوارها نجدها متصلة، ودعونى أذكرها لكم على التوالى، فهى: جائزة نوبل للسلام، والسخونة الكونية أو ظاهرة التسخين الكروى، والحرب الأهلية فى أفغانستان. ثلاث قضايا بعضها أصوله قديمة نسبيا وبعضها يبدو جديد الأصول. وعندما نستعرض ما نعينه بهذه القضايا سيتبين لنا كم هى متداخلة الجذور والفروع والنتائج!

المثير فى عالمنا اليوم ليس حوادثه فقط، ولكن أيضا فرصتنا غير المسبوقة للتأمل والتفكير بهذه الحوادث، «إنها الأفكار، إنها الأفكار التى تحكم العالم» كما أعلن الفيلسوف الفرنسى «أوجست كونت» قبل أكثر من قرن مضى، وتاريخ العالم هو تاريخ الأفكار، ولا يوجد قبلنا جيل وجد نفسه يتعامل مع أفكار بهذه الكمية والنوعية. فإن لم نخرج بالنتائج الحقيقية والواضحة من كم الأفكار الهائل حولنا فإن فرصة ذهبية

أخرى ستذهب - أمام نواظرنا - سدى. وسوف نجد - بعد أن نستعرض القضايا الثلاث المختارة فى نهاية أيام هذا العام - أننا أمام مجموعة من الأفكار المستخلصة لابد أن نتوقع أن يكون بها بعض الدروس.

جائزة السلام

أعلنت جائزة نوبل للسلام فى أكتوبر الماضى، بالعاصمة النرويجية أوسلو، وكان من المتوقع أن تذهب هذه الجائزة إلى أسماء كبيرة عملت من أجل السلام الدولى، ولكنها - مفاجأة لكل المراقبين - ذهبت مناصفة إلى عالم بريطانى من أصل بولندى هو «جوزيف روتبلات Josef Roteblat» وإلى ندوة «بوجواش» للعلوم والشئون الدولية، وكلاهما - الرجل والمؤسسة - من النشطين فى معارضة استخدام السلاح النووى. تزامن هذا التكريم الدولى مع حدثين، الأول هو احتفال العالم، أو على وجه الدقة تذكر العالم للمرة الخمسين لإسقاط القنبلة الذرية على مدينتى هيروشيما ونجازاكى اليابانيتين، والحدث الثانى هو بدء سلسلة التجارب النووية الفرنسية تحت الأرض فى جزر «موروروا» بالمحيط الهادى. والحدثان كان لهما ضجة إعلامية وسياسية واسعة. ولم تخف لجنة الجائزة سبب قرارها هذا، بل قالت فى تصريح رسمى نقل عنها إنها فعلت ذلك نوعا من الاحتجاج على استمرار

التجارب النووية فى العالم.. والإشارة واضحة بالطبع سواء إلى التجربة النووية الصينية الأخيرة أو التجارب النووية الفرنسية التى تتابعت أخيرا.

ودعونا نتصفح تاريخ «جوزيف روتبلات» الرجل الذى كان حتى أشهر خلت غير معروف إلا لقلة محدودة من المتهمين بنشاطه فى العالم، أما اسم «بوجواش» فإنه يثير الابتسام والعجب لو أوردته وكالات الأنباء فى وقت سابق دون أن نعرفه، وهو اسم أطلق على تلك الندوة العلمية الدائمة منذ أربعة عقود وهو مأخوذ من القرية الاسكتلندية التى عقدت فيها الندوة لأول مرة عام ١٩٥٧م. إنها مجموعة ضاغطة من العلماء عملت لكل هذه الفترة بهدوء ومن خلف الكواليس لمعرفتها اليقينية ماذا يمكن أن تفعله حرب نووية بهذا العالم القلق.

«جوزيف روتبلات» البالغ من العمر ستة وثمانين عاما، والذى يبدو أصغر من سنه، رجل نشيط، بل يصفه معارفه بأنه دائم الحركة إلى درجة القفز من مقعده وهو يتحدث، وليس لديه الوقت للدخول فى نقاش إن لم يكن ذلك النقاش مباشرا وصريحا، وبرغم أن له تاريخا طويلا وناجحا كرجل أكاديمى إلا أن الرجل ظل معلقا بفكرة واحدة - كرس جل وقته لها - وهى نزع السلاح النووى، حلمه القديم الذى بدا

مستحيلا فى وقت من الأوقات.

يتكلم الإنجليزية بلكنة بولندية، مهندم ومبتسم، ملىء بالفخر الذاتى والاعتزاز بالنفس برغم أن قليلين هم الذين كانوا يقدرون دوافعه وأهدافه الواضحة، فى أن يرى عالما نظيفا من هذا السلاح المدمر. وكان البعض يصف أهدافه قبل إنهاء الحرب الباردة بأنها خيالية، ومن كل العلماء البريطانيين الذين ساروا على هذا الدرب منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية كان هو الوحيد الذى صمد فيه حتى يومنا هذا.

وإن عدنا إلى حياته السابقة واطلعنا عليها فى شتاء ٤٧ - ١٩٤٨ فسوف نجده فى قطاره الذرى المشهور الذى طاف به معظم محطات القطارات البريطانية، مع زملائه من العلماء، يشرح للجمهور البريطانى فى مدنه وأريافه محاسن ومساوىء هذا الجنى الذى أطلقه الإنسان من قمقمه. لقد عمل جوزيف روتبلات أكثر من زملائه لجعل فكرة هذا القطار حقيقة برغم معارضة قاسية تبدأ من مجلس الوزراء البريطانى وحتى الصحف المحافظة، وكان هدفه إشاعة وعى بين الجمهور والعامة للعصر الجديد الذى تدخله الإنسانية، وبيدها تحويل هذه الطاقة إلى نفع مأمول أو كارثة ماحقة.

مشاهدو القطار النووى كانوا يتعرفون ومن خلال روتبلات نفسه على إمكان الاستخدام السلمى لهذه الطاقة الجديدة فى

توليد الكهرباء والمعالجة الطبية، كما كانوا ينبهون إلى أن هذه الطاقة نفسها يمكن أن تستخدم فى التدمير، وكانت الأسئلة الأخيرة فى كل عرض تتركز حول: أى الاتجاهات سوف يستخدم الإنسان فيها هذه الطاقة الجبارة؟

لقد استفاد هذا العالم من هامش الديمقراطية لخلق وعى واضح ومحدد بالمخاطر التى يمكن أن يجرها الإنسان على نفسه.

جرعات من الكوكتيل الذرى

وعندما ننتقل إلى الخمسينيات نجد روتبلات يحاضر فى التليفريون البريطانى عن جدل الإشعاع ـ استكمالا لفكرة القطار فى خلق وعى جديد ـ إلى درجة أنه كان يخاطر بشرب جرعات من مياه معالجة إشعاعيا، وكانت الصحافة الشعبية وقتها تسميه (الكوكتيل الذرى)، ليؤكد للمشاهدين أن الإشعاع الذرى ليس ضارا إن أخذ بكميات معتدلة وليس مصدرا للخوف أو القلق.

وبعد الاجتياح السوفييتى لأفغانستان (قضيتنا الثالثة) وعندما كانت العلاقة بين الشرق والغرب فى حالة قريبة من التجمد، نظم جوزيف روتبلات لقاءات بين علماء الشرق والغرب من خلال ندوة «بوجواش» للعلوم والشئون الدولية. فى هذه الملتقيات تحدث علماء الطبيعة والذرة من المعسكرين

الشرقى والغربى معا وحددوا بوضوح الأخطار المحتملة على البشرية إن استخدم نتاج عملهم العلمى فى التدمير، فى الوقت الذى رفضت فيه حكوماتهم تبادل الحديث فى هذا الشأن الخطير. كان ذلك عمل حياة بالنسبة لروتبلات، هدفه تجسير الفجوة بين التقدم العلمى والوعى الشعبى والسياسى لهذا التقدم والذى يخلق فى النهاية ضغوطا لاتخاذ قرارات سياسية لتقنين التسابق على تخزين أو استخدام هذه المواد الفتاكة.

نقطة البداية لجوزيف روتبلات كانت فى سنة ١٩٤٥ عندما عمل لثمانى أشهر واحدا من الفريق البريطانى العلمى فى مصنع أمريكى لإنتاج القنبلة الذرية فى «لوس الاموس» فى نيو مكسيكو، الذى كان يعرف بمشروع مانهاتن (وهناك صنعت أولى القنابل الذرية الأمريكية). ولم يكن أول عالم يعرف على وجه اليقين تأثير هذا السلاح الفتاك، ولكنه الوحيد من بين أعضاء الفريق الذى اتخذ موقفا شجاعا.

ويقول بصوت واضح عندما عرف بنيله جائزة السلام، معلقا على الفترة التى قضاها فى مشروع مانهاتن.

«لقد قمت بالمشاركة فى صنع القنبلة الذرية، بالتحديد حتى لا تستخدم، ولقد كنت مرعوبا من فكرة توصل العلماء الألمان - وقتها - لصناعة القنبلة. فإن هم فعلوا ذلك فلم يكن لدى أدنى

شك فى أن هتلر سوف يستخدمها». تلك وجهة نظر.. ولكنه يضيف: «لم أكن أتوقع أن يستخدم هذا السلاح الفتاك على كل حال دون إنذار مسبق أو يستخدم ضد الأهالى العزل. لقد شعرت بالاشمئزاز والقرف عندما استخدمت فى هيروشيما ونجازاكى وشعرت بالغضب أكثر من شعورى بالذنب واستبد بى القلق والخوف على الحضارة التى نعيشها».. ويضيف: «كنت أعرف مبكرا ومنذ أغسطس ١٩٤٥ أن قنبلة قدرتها أكبر آلاف المرات من تلك التى أسقطت على هيروشيما كان ممكنا صناعتها، وكنت أعرف أيضا أن الاتحاد السوفييتى يستخدم كل الوسائل لبناء قنبلة.. لقد توقعنا سباق التسلح منذ وقت بعيد».

ولد روتبلات فى وارسو فى الرابع من نوفمبر ١٩٠٨، وكان واحدا من أبناء بولندا الأذكياء والمبرزين فى العلوم الطبيعية، وانتقل إلى بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية بقليل فى مشروع دراسى وبحثى لعام واحد، وبعد أشهر من مغادرته لوطنه سقطت بولندا فى قبضة الجيش النازى الألمانى ولم ير بعدها زوجته مرة ثانية، فقد قتلت مع ملايين آخرين من البولنديين على يد القوات النازية.

لقد فهم القدرة الكامنة للانشطار النووى عندما كان يعمل فى معمل الإشعاع النووى فى وارسو، وفى بحوث لاحقة له

فى جامعة ليفربول البريطانية عام ١٩٣٩، وكتب فى وقت لاحق ـ ١٩٨٥ ـ عن تلك الملاحظات: «أول ردة فعل لى لاكتشاف هذه القدرة الهائلة من الطاقة حاولت مسح كل هذه الأفكار من دماغي، مثلى مثل شخص يريد أن يتجاهل العوارض الأولى لمرض فتاك» ويضيف: «ولكن الخوف بدأ يزداد في داخلي، وكان كل خوفى أن شخصا ما سوف يحول هذه الأفكار العلمية إلى شيء عملى.. ولم أكن أفكر فى أن أحاول أنا ذلك».

خلال الحرب التحق روتبلات بالفريق العلمى البريطانى فى مشروع مانهاتن ولكنه لم يستمر طويلا كما أسلفنا، حيث إنه استمع وهو هناك إلى ملاحظة وبالمصادفة تفوه بها ضابط أمريكى كبير يعمل فى المشروع، فقد سمعه يقول: «إن الاستخدام الحقيقى للقنبلة المزمع إنتاجها هو لتخويف الاتحاد السوفييتي والتخفيف من خطره أكثر من تخويف ألمانيا الهتلرية» عندها قرر أن يترك المشروع فقد كانت طائفة من النشطين فى الغرب تعتقد أن الخطر الحقيقى هو من ألمانيا النازية. مديره فى مشروع مانهاتن فى لوس آلاموس اتهمه بالخيانة وبأنه جاسوس إلا أن روتبلات أقنع رؤساءه آنذاك بأن هذه التهمة ليست حقيقية، وأنه يترك المشروع لسبب مبدئي، ووافقت الإدارة على أن يترك المشروع بشرط

واحد ألا يتحدث مطلقا عن أسباب تركه له، وكان السبب الرسمي الذى فسر به تركه العمل أنه يريد أن يعود إلى أوروبا للبحث عن زوجته! ومنع من الاتصال بزملائه السابقين ووضع على لائحة المنع من دخول الولايات المتحدة حتى سنة ١٩٦٤.

شقاء ضمير العلماء

بعد أشهر من ترك «روتبلات» مشروع مانهاتن أسقطت القنبلتان الذريتان على اليابان، وكان من بين الأشياء العديدة التى لم تعد كسابقاتها بعد إسقاط القنبلتين: العلاقة بين الدولة والعلماء. فهذا سلاح فكر فيه وطوره علماء، وفى وقت قصير غير التوازن السياسى للعالم، وبالتالى كان من بين الأسئلة التى حيرت ضمير العديد من علماء الطبيعة: هل كان من الضرورى أن يخترع هذا السلاح؟ وهل كان من الضرورى أن يلقى على العزل؟ ثم ماذا سوف يحد للعالم بعد ذلك؟

تلك أسئلة أشقت ضمير نخبة من العلماء على رأسهم صاحبنا جوزيف روتبلات. ويبدو أن العلماء فقط - وليس العسكريين أو السياسيين - هم الذين يعرفون على وجه الدقة إجابات مثل تلك الأسئلة، لكن للسياسيين وجهة نظر أخرى.

فى هذه الأجواء أسس روتبلات مع علماء آخرين رابطة

العلماء النوويين وهدفها تنوير الجمهور البريطانى بكنه الاستخدامات السليمة لهذه الطاقة النووية والتحذير من مخاطرها العسكرية، وعلى أمل وضع حد لسباق التسلح فقد أيدت هذه الرابطة وضع الصناعة النووية تحت مراقبة الأمم المتحدة.

هيروشيما أيضا غيرت حياته العلمية، ترك العلوم النووية إلى الفيزياء الطبية، واستقر فى بريطانيا وأصبح مواطنا سنة ١٩٤٦ وهو الآن أستاذ العلوم الطبيعية فى أحد أكبر مستشفيات لندن (براثيوم). لقد اختار هذا الطريق الطبى كما يقول: «لأننى أردت أن أقرر بنفسى كيف تستخدم نتائج أبحاثى».

روتبلات هو أحد العلماء البارزين من أمثال ألبرت أينشتاين ولينوس بولنج Linus Pauling الذين وقعوا إعلان برتراند راسل واينشتاين للسلام عام ١٩٥٥ الذى قالوا فيه: «علينا أن نتعلم كيف نفكر بطريقة جديدة.. وهنا المشكلة التى نقدمها لكم عارية صارخة مفزعة وبغيضة ولا يستطيع أحد الهروب منها، هل نضع نهاية للبشرية عن طريق الحرب النووية أو نقوم كبشر بإدانة الحروب؟».

لقد كانت هذه صرخة فى واد عميق، فالحرب الباردة تتصاعد وكذلك خوف أهل الضمائر من محو العالم كله يزداد

قربا من الحقيقة.

بولنج حصل على جائزة السلام فى وقت لاحق لحملته الدولية لوقف التجارب النووية فوق الأرض، ولكن مع تصاعد الحرب الباردة فشلت حملة راسل/ أينشتاين. وقرر روتبلات أن يتوجه توجها جديدا وكان ذلك فى بوجواش بدءا من عام ١٩٥٧.

كانت فكرة بوجواش بسيطة وواضحة، اجتماع دورى لعلماء فى الحقل المعنى (الذرة) بعيدا عن المدن الكبرى وبعيدا عن الصحافة والإثارة ثم ينشر ملخص لما دار فى اجتماع العلماء. ولكن التقرير الأساسى السرى يوزع على رؤساء الدول ورؤساء الحكومات وهو يحمل تحذيرات علمية خالية من الغرض الأيديولوجى والسياسى للمخاطر المحتملة من استخدام هذا السلاح. ولم يكن للاجتماعات أن تستمر خلال سنوات فترة الحرب الباردة لو لم تكن هادفة وبعيدة عن الإثارة.

وكانت هذه الاجتماعات تنتقد من الغرب والشرق على السواء، ولكنها تركت الأبواب مفتوحة للحوار وتبادل المعلومات، فى الوقت الذى لم يكن هناك مكان آخر لتبادل هذا الحوار. وكانت هذه الاجتماعات هى التى وضعت أسس مجموعة من اتفاقات نزع السلاح النووى، واتفاقيات الحد من

الصواريخ العابرة للقارات.

وبتواضع شديد عندما عرف جوزيف روتبلات بخبر حصوله على جائزة السلام قال: «إنها ليست لى بل لمجموعة صغيرة من العلماء ظلموا يعملون لمدة أربعين عاما لتجنب كارثة عظمى يمكن أن تقع على رءوسنا جميعا، فلأول مرة فى التاريخ أصبح بالإمكان أن يمحو الإنسان نفسه من على الأرض».

قصة الجائزة إذن هى قصة رجل، وقصة فكرة، وقصة تصميم على ما اعتقد أنه الحق، ونيله وندوته الجائزة ليس نهاية الطريق، فالعالم لايزال مهددا بهذا السلاح الذى ازدادت خطورته بوقوعه تحت أيد لا تقدر المسئولية، فبعد تفكك الاتحاد السوفييتى والمعضلات السياسية التى واجهت ما بقى منه أصبح احتمال وقوع هذا السلاح الخطير فى أيد غير مسئولة احتمالا قائما. كما أن هناك محاولات عديدة من دول عالم ثالثية، بعضها يفتقد الحد الأدنى من المسئولية السياسية، لشراء أو تصنيع هذا السلاح. وأصبح العالم على أبواب تهديد أكثر خطورة مما كان فى السابق.

حرارة العالم

تبدو هذه القضية - أى ارتفاع درجة حرارة مناخ الأرض - بكل ما تعنيه من تدمير لبعض ما نعرفه من حياة، لها ارتباط

مباشر أو غير مباشر بالقضية الأولى، فقد بدأ الاهتمام بالبيئة منذ زمن طويل. وهى ـ أى البيئة ـ مثلها مثل السلاح النووى، ليست وطنية ولا قومية ولا حتى إقليمية، بل دولية، وإنسانية عامة، تهم البشر بأى لون كانت جلودهم وبأية لغة نطقت بها ألسنتهم.

فى الدول الكبرى أصبح للبيئة هيئاتها، وقلدتها الدول الأخرى، وعقدت لها مؤتمرات دولية كمؤتمر «ستوكهولم» عام ١٩٧٢ ومؤتمر الأرض فى البرازيل ام ١٩٩٢، كما وضعت المناهج فى المدارس والجامعات تشرح أهمية البيئة. إلا أن العالم اليوم أمام مشكلة هى ارتفاع درجة حرارة جو الأرض. هذا الصيف عانت عواصم عديدة حتى فى الشمال من صيف حار، سكان لندن وباريس ونيويورك عانوا من ظاهرة ارتفاع الحرارة، لقد حدث أخيرا ما توقعه العلماء منذ فترة وهو أن الطقس العالمى يتغير ويتغير إلى الأسوء. العالم كله يسخن ـ العلماء يؤكدون ذلك ـ وهى رسالة أخرى مخيفة للبشرية ومعظم اللوم يقع على التلوث الذى يسببه الإنسان!

العلماء أيضا يجمعون على أن تسخين الأرض سوف تكون له نتائج كارثية، ويمكن أن يتعاظم هذا التسخين ليخرج عن حدود قدرة الإنسان على التحكم به أو ضبطه.

وحتى لو قامت الحكومات ـ وهو افتراض غير واقعى ـ

بمحاولة ضبط التلوث وكبح تصاعد الغازات المسببة لارتفاع درجة حرارة الأرض، فإن الطقس سوف يستمر فى ارتفاع درجة الحرارة، والبحار سوف تستمر فى ارتفاع مستوى مياهها لعدة قرون قادمة. هذه هى الرسالة العلمية الموجعة التى لا فكاك منها لأن الإنسان لم يستبصر بوقوعها كما ينبغى.

فى وقت سابق كان البعض من علماء الطقس حذرين ومترددين فى تأكيد توجه درجة الحرارة نحو الارتفاع، وكان بعضهم يعزو هذا الارتفاع إلى الاختلاف فى الجو الطبيعى، أما التقارير الأخيرة - خاصة الصادرة عن المؤسسات الحكومية الغربية المعنية بالأمر - المهتمة بالسخونة العالمية فقد وضعت حدا للنقاش المتشكك فى الأمر.. العالم يسخن يسخن.

لقد التقت وجهة نظر ألفين من العاملين والدراسين للأرصاد الجوية الذين ساهموا فى دراسة أخيرة على أن الأمراض الأستوائية سوف تنتشر خارج حلقة ما عرف عنها تقليديا، وأن الجفاف والتصحر والفيضانات سوف تزداد وتيرتها فى العالم، وأن الغابات سوف تموت أشجارها وأن المحاصيل الزراعية فى الدول الفقيرة سوف تنخفض إنتاجيتها، كما يحذر العلماء من أن بلاد الشمال لن تنجو من

ذلك. فبرغم فترات الحرارة وجفاف الصيف واعتدال الشتاء فى السنوات الأخيرة، فقد اشتكى البريطانيون هذا العام - على سبيل المثال - من أطول فترة جفاف تصيبهم بسبب انحباس الأمطار.

وتقول التقارير الموثقة إن العالم تحول إلى السخونة أكثر من القرن الماضى وذلك بسبب النشاط البشرى الصناعى المفرط وإحراق المزيد من مصادر الطاقة، الأحفورية خاصة، كالنفط والفحم والأخشاب.

آلاف من العلماء وصلوا إلى اتفاق - قليلا ما يصل العلماء إليه - حول هذه النتيجة المخيفة، كان بعضهم إلى وقت قصير يقول: «يجب أن ننتظر إلى نهاية القرن حتى نتأكد أن التلوث هو السبب الحقيقى لسخونة الجو ولكن بمساعدة تقنيات جديدة وجدوا أن هناك شواهد كافية حتى الآن لإثبات ذلك».

فوضى مناخية بسبب التسخين

خلال العام الماضى أكدت الدراسات العلمية أن الزهور والحشائش أخذت تنمو وتنتشر بسرعة فى شمال القارة القطبية الجنوبية، وأن العديد من الدروع المتجمدة للقارة بدأت تذوب وأن البحار بدأ منسوبها يرتفع بسرعة أكثر مما كان متوقعا، كما أن هناك شواهد واضحة على التغيرات الطقسية فى شمال الأطلسى تؤثر فى التيارات الهوائية الشمالية. إن

هذا القرن ـ الذى يكاد ينصرم ـ هو أسخن قرن منذ بدأ نظام تسجيل درجات الحرارة. لقد زادت درجة حرارة الأرض بين ثلاثة وستة أعشار الدرجة منذ تسعينيات القرن الماضى، ومعظم هذه الزيادة ظهر فى العقود الأربعة الأخيرة من القرن الحالى.

أمطار الشتاء زادت فى كمياتها التى تسقط على روسيا وأوروبا وشمال القارة الأمريكية، فيما الثلوج التى عادة ما تغطى شمال الكرة الأرضية قلت عشرة فى المائة خلال العقدين الماضيين وحدهما، كل هذه شواهد ـ وإن اختلف مظهرها ـ تؤكد ارتفاع درجة حرارة العالم. ولقد تزود العلماء بواقعة عملية، فقد لاحظوا انقطاعا قصيرا فى ارتفاع درجة الحرارة بعد انفجار بركان بناتوبو Pinatubo فى الفلبين سنة ١٩٩١. لقد شاهد العالم على شاشات التليفزيون هذا الانفجار الذى قذف عشرين مليون طن من الغبار الكبريتى فى الفضاء الأعلى. وقد حجب شيئا من أشعة الشمس، وجعل درجة الحرارة الكونية تنخفض قليلا حتى سنة ١٩٩٣، ولكن ما إن ترسب هذا الغبار على الأرض حتى ارتفعت درجة الحرارة من جديد. هذه الظاهرة عززت من يقين العلماء بوجود ظاهرة التسخين الكروى أو العالمى (إشارة إلى ارتفاع درجة حرارة جو الكرة الأرضية)، فهى ـ أى ظاهرة التسخين ـ

تظهر أن الطقس يستجيب جزئيا للتغيرات فى طبقات الجو العليا.

الأمراض الاستوائية، مثل الملاريا والحمى الصفراء، بدأت بالفعل تخرج من نطاقها الجغرافى التقليدى لتصل إلى مناطق مجاورة، وكلما ارتفعت درجة الحرارة زادت التوقعات بأن تشيع الإصابة بمثل هذه الأمراض.

فى اجتماع قمة الأرض فى البرازيل عام ١٩٩٢. وافقت الدول الغنية على تقنين وتخفيض إطلاق ثانى أكسيد الكربون فى الفضاء بنهاية القرن الحالى. ولكن الدراسات تشير إلى أن ذلك لن يكون كافيا - حتى لو تم - لأن الكثير من غازات الصوبة أو الدفيئة - كما تسمى - موجودة فى الجو لأكثر من مائة عام. لقد أصبح هناك قصور ذاتى فى العملية الطبيعية للنظام الكونى تقود إلى أن الطقس سوف يسير باتجاه السخونة.

وليس الأمر هنا أمر وعى فقط، وإنما اتخاذ خطوات حاسمة يبدو - حتى الآن - أن العالم ليس مقبلا عليها.

أفغانستان .. تدمير الذات.

قد يقول قائل: وما علاقة السلاح النووى - كمدمر للأرض - وبين السخونة الكونية - كمدمر للحياة - بموضوع أفغانستان؟

وللإجابة عن ذلك فإن أفغانستان، مجرد مثال واحد فى

السياق للتدليل على أن الإنسان يدمر عالمه ويدمر بيئته، وكذلك يدمر بلده ومدنه. وهنا الربط بين القضايا الثلاث. فى أفغانستان تدور منذ خمسة عشر عاما رحى حرب مدمرة، وصراع دام، خارجى أولا ثم داخلى دائما، وخروج القوات السوفييتية السابقة من هناك لم يقلل المعاناة التى يتحملها هذا الشعب وهذه الأرض، فقد دخل المتصارعون المحليون فى اقتتال دائم بين أنفسهم للحصول على مساحة أكبر من الأرض ومن النفوذ، ولكنها أرض محروقة ونفوذ محدود. أفغانستان فى مكان متوسط من القارة الآسيوية ومدخل أساسى لدول وسط آسيا، بلد غنى بالتاريخ والثقافة، ومن أهم البلدان المنتجة للخشخاش فى العالم! شعبه بسيط، صلب، وعنيف أيضا، وعندما يكون هناك تهديد من الخارج فالأفغان يحاربون متحدين، أما غير ذلك فإن الحروب التقليدية القبلية هى الطريقة التى تجعل المحاربين مشغولين ببعضهم بعضا. لم تستعمر أفغانستان فى العصر الحديث، برغم محاولات قوتين عظميين هما بريطانيا ثم الاتحاد السوفييتى لاحتلال هذا البلد، والهزيمة المنكرة للبريطانيين على يد الأفغان التى جعلتهم لا يكررون محاولاتهم لاختراقها من جديد يبدو أنها فشلت فى ردع السوفييت الذين أدخلوا قواتهم فى أفغانستان سنة ١٩٧٩ تحت ذريعة مناصرة طرف

أفـغـانى طلب العـون، ويدين بالولاء لموسكو، إلا أن حـرب العصابات التى تلت وبتأييد من قوى إقليمية ودولية أجبرت السوفييت في النهاية على الانسحاب وربما عجلت، كما يعتقد البعض، بانهيار الاتحاد السوفييتى نفسه.

نجاح أفغانستان فى رد السوفييت كان محل فخار لكل من ساهم فى تحقيق تلك النتيجة: المحاربون الأفغان، والمخططون الباكستانيون، ودعم الدول الإسلامية والعربية، وحتى الولايات المتحدة التى زودت الأطراف الأفغانية بالسلاح. إلا أن النجاح كان قصيرا، وبدأت سريعا حرب أهلية دمرت البقية الباقية من مدن أفغانستان التاريخية، هناك أكثر من اثنتى عشرة منظمة سياسية عسكرية كل منها تدعى أحقيتها فى حكم البلاد، فأثناء الصراع مع السوفييت تكونت هذه المجموعات على أسس عرقية، أو مذهبية، أو محلية، وأُيدت وسُلّحت هذه المجموعات من قوى خارجية مؤيدة لأفكارها، ثم تشابكت بعد ذلك تحالفات وتحالفات مضادة، تتفكك هنا لتلتحم هناك، فى سلسلة صراعات استمرت حتى يومنا هذا. خلال عام ١٩٩٤ دخل فريق جديد هو «حركة طالبان» لإحلال تطبيق الشريعة فى البلاد»، وهذا نفس ما تكرره جميع الفرق المتحاربة فى أفغانستان، وزادت الأمور تعقيدا فى هذا البلد الذى لا تبدو لصراعاته الأهلية نهاية.

أفغانستان حالة واحدة من حالات عديدة فى العالم - كالصومال وبوروندى وغيرهما - اختار أهلها الصراع

والحرب بينهم، بينما العالم يقف متفرجا أو شبه متفرج، سواء مختارا أو مرغما على ذلك، والنزيف الإنسانى مستمر لأن أسبابه محلية والقائمين عليه لم يتوافر لهم بعد النظر بعد للوقوف على بشاعة ما يفعلونه بوطنهم ويمكن أن يستمر نهر الدم وعبثية هدم المدن والمنازل دون هوادة حتى تخور قوى الجميع أو يهلكوا، وتهلك الأرض.

وهلاك الأرض هنا ليس تعبيرا مجازيا، بل تعبير واقعى تماما تفضحه الحرائق وسحب الدمار والغبار التى يسببها قصف مدافع وصواريخ الإخوة الأعداء المقتتلين على الخرائب فى أفغانستان. كما أن خبراء البيئة يشيرون إلى تضرر التربة التى تدور عليها المعارك من جراء هرس المجنزرات لمحتوياتها العضوية الداخلية ولالتهابها بنيران القذائف، فهى أرض تحترق فعليا، إنسانيا وبيئيا، وهى بالتالى مثال وثيق بأمثلة تدمير الإنسان لنفسه عبر تدمير الحياة والبيئة والمجتمعات، سواء بالتهديد النووى، أو بالجشع الصناعى الذى يلوث البيئة ويرفع حرارة مناخ الأرض، أو باقتتال الفرقاء شبه الحفاة على فتات متاع الدنيا الأدنى: النفوذ والتسلط!

إنها ثلاثة أمثلة من ظلم الإنسان لنفسه، يقترفها بينما هذا القرن يوشك على التسرب، مخلفا أحلاماً كبيرة، وآلاماً تكبر. فهل يدرك الإنسان مدى بشاعة وفداحة ظلمه لنفسه. لعله يدخل إلى عام جديد، بأفق جديد؟

وهل نملك إلا التمنى؟!.

١٠

من كتاب «الأمير» حتى الصراع الدولى الحديث..

كيف يجب أن يتعامل الإنسان مع أزماته؟

ربما كان كتاب ميكافيللى «الأمير» هو أشهر الكتب التى خطها الإنسان، وأكثرها رواجاً، فهو كتاب مؤثر لايزال يُقرأ بعد خمسة قرون من نشره لأول مرة. ويقال إن عظماء مثل ونستون تشرشل ومؤثرين مثل أدولف هتلر لم يكن الكتاب يبارح غرف نومهم!

شهرة هذا الكتاب وتأثيره ليس لأن كاتبه هو ميكافيللى، ولا بسبب أن الأمير أو الأمراء الذين استهدفهم ذلك الكتاب قد قرأوه أو حتى عملوا بنصائحه، فالكتاب كان مؤثرا، ولا يزال، لأنه سأل أسئلة واضحة ومباشرة وفى الصميم من موضوعه، وحاول الإجابة عنها كما يعتقد لا كما يتمنى الآخرون.

وسواء كنت اليوم جزءا من نخبة تختلط بأهل القرار، أو كنت واحدا من العامة كل صلتك بمتخذى القرار هى ما تقرؤه عنهم فى صحيفتك اليومية، أو ماتراه على شاشات التلفاز، فإن الكتاب الذى نتناوله هنا يشجعك على أن تكون (ميكافيللى) آخر، أو تأخذ مكانه فى العصر الحديث وتعرض نصائحك وتطور أفكارك، فلربما وقعت هذه الأفكار تحت نظر متخذى القرار فأخذوا بها، وصرت - وأنت لا تدرى - (ميكافيللى)العصر الحديث.

صراعات شتى

الكتاب الذى بين يدى كتاب ظريف فى موضوعه وطريقة

كتابته وصغير نسبيا فى حجمه. وقدكتبه ثلاثة، أحدهم أستاذ فى مركز حل الصراعات فى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة، والاثنان الآخران طالبان عند هذا الأستاذ. وعنوان الكتاب ببساطة هو (ما بعد ميكافيللى) وهو ليس الكتاب الأول للمؤلف الرئيسى روجر فيشر، فقد استعرضت فى مرة سابقة أحد كتبه، وكان تحت عنوان:(الوصول إلى أن تقول نعم) getting to say yes، وكان وقتها أكثر الكتب انتشاراً. هذا الكتاب الطريف والجديد صدر العام الماضى، وقد قرأته مرة، وهآنذا أعود لقراءته وعرضه هنا لأننى وجدت أن بعض أفكاره قد تهم القارىء العام، وهو بالتأكيد يهم القارىء المتخصص، خاصة فى العلاقات الدولية أو فى حل الصراعات بوجه عام، حتى لو كان ذلك الصراع خلافات زوجية!، وسواء كنت من أنصار فكرة أرسطو التى ظلت سائدة زمنا طويلا فى التاريخ، والقائلة إن الإنسان مدنى بطبعه، أو من أنصار الفكر الحديث والفيلسوف الإنجليزى توماس هوبس، الذى كان أول من قال إن الفوضى هى الحالة الطبيعية لحياة الانسان، وإن المجتمع المنظم مجتمع(صناعى)بطبعه، فإن هذا الكتاب سوف يفتح لك آفاقا جديدة .

يقول المؤلفون إن معظم أفكار الكتاب جاءت من مصدرين

هما تدريس مادة الصراعات الدولية فى جامعية هارفارد، وكذلك من الحياة العامة، وكل نقطة أو موضوع يشيرون إليه نظرياًيأتون بمثال حى له من قضايا الصراع الدولى الحديث لتحليله مثل:جنوب أفريقيا (قبل حكم مانديلا)، أو مشكلات الشرق الأوسط المتعددة والمختلفة، أو تلك الموجودة فى شرق آسيا. والهدف من الكتاب كما حدد كاتبه فى مقدمته هو «تقديم النصائح والتدريب الفعلى فى حالة ظهور صراع، خاصة عندما يكون دولياً» وذلك يتضمن الإلمام ليس بالسياسة ومداخلاتها فقط ولكن أيضا بموضوعات معرفية مثل علم النفس والقانون الدولى وعلم الاجتماع.

والصراع المحتمل ليس فقط دوليا بمعنى أنه يكون بين دولة وأخرى أو بين عدة دول، ولكنه يمكن أن يكون صراعا داخل مجتمع واحد، ويمكن ان يكون إرهاباً .

ويذهب الكتاب ليقول إن كلا منا له حالة صراعية مع البيئة التى يعيش فيها، كما الطلاب فى سكنهم الجامعى ومع عائلاتهم أو أصحاب المنازل التى يستأجرونها أو حتى مع ميكانيكى السيارة.

والسؤال المركزى فى محاولة حل الصراع سواء كان دولياً عاماً، أو خاصاً، هو: من الذين تريد أن تؤثر فيهم وتريد أن تغير وجهة نظرهم؟ وكيف يرى هؤلاء الأشخاص الخيارات

المتاحة أمامهم؟

وبرغم أن هذا الكتاب عن الصراعات الدولية، فإنه يدعى بوضوح إمكان استخدام قواعده وطرقه فى حل مشكلات وصراعات أخرى . وهو ادعاء كما سوف نرى صحيح إلى حد كبير.

لماذا هذا الكتاب ؟

الكتاب من ستة فصول قصيرة مع مقدمة، وفكرته الأساسية هى تقديم أفكار وطرق جديدة لحل الصراعات، يخلط فيها بين أدوات الصدام الاجتماعى الحديثة، وأهداف حل الصراعات الدولية. إنه محاولة لتغيير أسس اللعبة الدولية ولعبة الصراعات المختلفة. وإنه ـ كما يقول مؤلفوه ـ يسأل الأسئلة المحرجة كما سألها وأجاب عنها ميكافيللى قبل خمسة قرون. وتبرير هذا الكتاب هو أن الصراعات (الصناعة) نامية ومتزايدة، تتكاثر فى عالمنا ومن حولنا، ولو نظرنا إلى خارطة العالم ووضعنا علامات مميزة فى أماكن الصراعات فلسوف نجد أن هذه الصراعات ستكون بعدد دول العالم، إن لم تكن أكثر، فهناك دول جديدة تظهر، ومصالح مختلفة تتصارع وجماعات عرقية تطالب بحقوقها، وهناك أناس كثيرون يحتكون بغيرهم، كما لم يحدث فى التاريخ الإنسانى من قبل، فى بيئة عالمية متغيرة، وفى عالم يزداد

اعتمادا بعضه على بعض، والحلول التى كانت معقولة قبل عقدين من السنين لم تعد مقبولة فى الأسبوع القادم!

ويشير الكتاب إلى العديد من المواقف الدولية المتغيرة، كموقف الولايات المتحدة من الصين أو فيتنام، وموقف الفلسطينيين من إسرائيل، كلها اختلفت عما كانت عليه قبل فترة وجيزة، هناك أشكال من الصراعات المختلفة أيضا ولكنها دولية، كحرب التجارة بين الدول الغنية، وحرب أسعار العملات، وارتفاع أرقام اللاجئين من دول عديدة، وحتى ارتفاع درجة حرارة العالم، كلها قضايا تحتاج إلى الحل، بل إلى أكثر من حل.

إذا كانت العلاقات الدولية تتغير بهذه السرعة، فلماذا لا نفترض أن الأعداء اليوم سوف يصبحون أصدقاء غدا؟! والعكس صحيح. لذا لابد من أن نعتمد على التفكيرالعلمى لحل المشكلات الصراعية، ماهو الخطأ أو الأخطاء التى سبقت الصراع وكيف يمكن علاجها؟ سواء كان ذلك من قبل الحكومات أو الناس العاديين. فتفاقم الصراعات ليس مرجعه غياب رغبة الناس فى أن يروا عالماً أفضل، عالم سلام وتسامح تنتعش فيه الديمقراطية وتحترم فيه حقوق الإنسان، كما أن تفاقم الصراعات لا يرجع أيضا إلى غياب سياسة خارجية تسعى لذلك العالم الأفضل، بل إن معظم الصعوبات

تظهرعلى مستوى عملى، مستوى اتصالى وفهم خاطىء للآخرين وعدم تقدير مصالحهم.

خطأ فى العلاج

الكتاب يفترض أن الصراعات الدولية لا تعالج كما ينبغى، وإن راجعت عناوين الصحف الكبرى فى أى يوم فسوف تجد أنه من الواضح أن الشعوب تقوم بردود أفعال لما يفعله الآخرون، بدلا من العمل بطريقة هادفة لتحقيق المصالح والمنفعة.

والحكومات أكثر ماتهتم به هو إظهار نفسها أمام الرأى العام المحلى كصاحبة مواقف صحيحة تجاه مشكلة ما، ثم إصدار بيان منمق تضع فيه اللوم على الآخرين، وفى معظم الأحيان فإن متخذى القرار الخارجى ينشغلون بكيفية التعامل مع الأحداث بردود أفعال ثم تطمين الرأى العام الداخلى، بدلا من انشغالهم بفهم الأسباب الحقيقية خلف المشكلة المثارة. إنه نقص فى القدرات العلمية والعملية، وهما نقيصتان يحاول الكتاب تحليلهما بجانب وصفه المفصل للأدوات والوسائل لسد ثغرة هاتين النقيصتين،فالمهم هو القدرة على حل المشكلة لا قدرة رد الفعل تجاه هذه المشكلة. القدرة الأولى هى قدرة عملية وخبرة. وكذلك علم منظم، أما الثانية فهى رد فعل طبيعى وعشوائى فى معظم الأوقات.

المستقبل كمحور للأهداف

على شاشة التلفزيون وفى صور الجرائد السيارة تشاهد طفلاً بوسنياً لا يتجاوز السادسة من عمره وهو يمشى على عكاز وقد قطعت إحدى رجليه، وخلفه أبوه ينظر بيأس وفى عيونهما معا خوف وقلق، لقد شاهدنا هذه النظرة من قبل على وجه امرأة صومالية يموت ابنها من الجوع، أو على محيا مهجَّر كردى فى شمال العراق أو فى أماكن عديدة من العالم..ويوميا بعد يوم تظهر لناأمثال هذه الصور من الألم الإنسانى..والسؤال لماذا تعرض علينا هذه الصور، ولو كان علينا أن نتخذ خطوات عملية لتخفيف هذه الآلام ترى ماذا يمكننا أن نفعل؟

الفكرة فى الكتاب تقول إنه لو قمنا بتحرك كأفراد فيمكن أن نحدد الفارق بين التألم السلبى والعمل الإيجابى. ليس ذلك فى التو واللحظة، ولكن فى المدى المتوسط والبعيد . إن تغيير العلاقات الدولية ليس موقوفاـ كما يرى المؤلفون ـ على الخبراء والنخبة، بل إن الجميع معنيون ـ من أجل أطفالهم ـ بالعمل لعالم أفضل.

إن سقوط حائط برلين، وانهيار الإمبراطورية السوفيتية، وتفشى الجوع فى الصومال، واشتعال الحرب فى البلقان والحرب التجارية الدولية، كل هذا قد أوجد اهتماما بالموضوع

الدولى خارج حلقة المتخصصين، وحان الوقت كى ترفد السياسة الخارجية بتفكير جديد. من هذه الأفكار الجديدة التى يوردها الكتاب أننا لا نستطيع أن نحل كل المشكلات الدولية فى عالم يموج بالمشكلات، وليس هناك من يدعى أنه يعرف على وجه اليقين الحلول الأفضل لهذه المشكلة أو تلك من بين معظم المشكلات الدولية الإقليمية العالقة.

ليس هناك نقص فى الخيارات المعقولة أمام هذه المشكلات حتى تجد حلا، ولكن الفشل فى عدم وجود آلية للتفاوض يُنقص قدرتنا على تركيب هيكل تفاوضى يقودنا من خطوة إلى أخرى فى سبيل النجاح. تصور لو أن المشكلة جنوب إفريقيا استمرت فى دائرة الصراع وحاول طرفاها السود والبيض حل المشكلة بالقوة، كم من عشرات الآلاف يمكن أن يفقدوا حياتهم؟، وكم من بلايين الدولارات يمكن أن تتبدد؟ الخيار كان آليه تفاوض مرضية . ويحدد الكتاب بشىء من التفصيل تكوين تلك الآلية فى أربع خطوات على وجه التحديد: الأولى هى تحضير قائمة لتحليل الصراع وتاريخه وتطوره ووجهة نظر المختلفين حوله. والثانية قائمة بأدوات التحليل والإجابة عن سؤال مركزى هو لماذا يحل هذا الصراع؟ والثالثة وضع وتطوير رؤية جديدة للحصول على نتائج والرابعة هى خطة العمل.

نحن لا ننتظر أن نخــرج من كل ذلك بحلول مــحكمــة ولا نفتـرض أن كل الصـراعـات يمكن أن تحل سلمـيـاً، أو أن كل المفـاوضـات يمكن أو لابد من أن تصل إلى اتفـاق، فذلك عـالم مثالى غير موجود على أرض الواقع، ولكن المطلوب هو التفكير بعقلانية، فأن يكون المريض غير عقلانى ليس ذلك سببا كافيا لأن يكون الطبيب أيضا كذلك، وحتى حقيقة أن الأطباء يمكن أن يكونوا عاطفيين أحياناً، إلا أنه من الصعب عليهم أن يظلوا هكذا دائما، فأداء عملهم مرتبط إلى حد بعيد بالعقلانية . وفى مـعظم الأوقـات يمكن أن تنتج الـعـقـلانـيـة أجوبـة أفـضل، ومن الأوفق أن نستـخـدمـهـا. فعندما نتطلع إلى المستقبل بتحديد الأهداف الحقيقية التى نريد تحقيقها كدولة أو كأفراد ينبغى أن نتجاوز القضايا الصغيرة إلى الكبيرة والأهم.

التحليل الصحيح

مـا يسـمـيـه المشـغـولون بالشـئـون الدولـيـة بـ (العـلاقـات الدولية)ماهو فى الحقيقة إلا تراكم ردود أفعال لفترات طويلة من الزمن، مع أكوام من القرارات الدولية. فـالمفـتـاح الأسـاسـى لمعرفة لماذا تحدث الأشياء كما تحدث هو معرفة لماذا هناك جنرالات ومـخـربون ووزراء خـارجـيـة وآخرون يقومـون باتخـاذ القرارات كما نراها تتخـذ. فعندما نحلل ـ كمثـال ـ صـراعـا كالصـراع الفلسطينى/الإسرائيلى علينا أن نبحث فى أضـابير

تلك القرارات المتعلقة بالقضية من مؤتمر بازل إلى وعد بلفور بكل تلك التراكمات من القرارات، فجمع المعلومات وتنظيمها وتحليلها لمعالجة الصعوبات فى العلاقات الدولية أقل خطورة وأقل تكلفة لفهم دقائق حل الصراع المعنى

لابد من إلقاء نظرة قريبة وفاحصة على عمليات اتخاذ القرار وعلينا أن نفصلها إلى قسمين هما:أولا مفاهيم متخذى القرار، خلفياتهم وخبراتهم، أهدافهم والخيارات المتاحة أمامهم، وهل هم أشخاص أو لجان أو إدارات فى بيرقراطية كبيرة؟ وهنا تتسع رؤية الكتاب ليقترح أن المشورة يمكن أن تقدم من هيئات وأفراد متخصصين وآخرين لديهم الاهتمام بالمشكلات على أن الشرط الأهم أن لديهم القدرة على التحليل الصحيح.

إن تطوير المشورة لمتخذى القرار هو حجر الزاوية فى اتخاذ القرار الصحيح، حيث لا يوجد شخص واحد يعرف كل مدخلات ومخرجات نتائج قرار ما، وكلما انفرد هذا الشخص باتخاذ قرارما، كان قراره يحتمل الخطأ أكثر من الصواب، وتطوير المشورة يحتاج إلى استخدام نتائج علوم عديدة. ومن العبث التساؤل عما إذا كانت الظروف الاقتصادية أم السياسية أكثر أهمية فى صراع ما، كلاهما مهم وربما كان غيرهما من العوامل مهما أيضا. ولا يوجد جواب شاف

لسؤال ما إذا كان القانون أم الطب النفسى اكثر أهمية فى موضوع إعطاء مشورة لقاضى أحداث، ولكننا نقدم نفس السؤال الواحد لعلمين مختلفين (القانون والطب النفسى) لنحصل على مشورة مشتركة من الخبرتين. فى كل ما نقوم به من نشاط هناك مشورة ما، كل ما فى الأمر أننا فى بعض الأوقات لا نلاحظ هذه المشورة. هناك مشورة للاعبى كرة السلة ومشورة للاعبى كرة القدم وحتى عندما تأخذ عائلتك للعشاء عادة ماتسأل أطفالك ماذا يفضلون أن يأكلوا؟! فلماذا إذن يعمد بعضنا، وفى القضايا الكبرى، إلى عدم طلب المشورة؟!

القيمة العملية فى المشورة تمكننا كأفراد وكمجموعة أو حكومة من أن نقلب الفكرة بدقة أكبر، ويمكن أن نحدد أهدافا مختلفة لقرارنا عما حددناه فى البداية، ونستطيع أن نحلل المشكلات المتوقعة للوصول إلى الأهداف المتوخاه بشكل أدق. أخذ المشورة فى حد ذاته فن،فأنت تستطيع أن تستفيد أفضل من الاستشارة والمستشارين إن عرفت قدراتهم، فإن كرست وقت عالمين فى الاقتصاد ليفكرا فى كيفية صنع طائرة فهذا يعنى أن قدرتهم، لم تستغل بشكل جيد، بينما لو كرست وقتهما فى المشورة للصانع كيف يبنى الطائرة بتكاليف أقل فقد استفدت من خبرتهما ووقتهما على وجه أفضا ،.

معظم الناس ليسوا ضباطا ولا خبراء فى الاقتصاد ولا وزراء خارجية، ولكنهم يستطيعون أن يؤثروا ولو بشكل طفيف فى قرارات يمكن أن تفيد العالم من حولهم . ويقدم لنا التاريخ أمثلة عديدة لملاحظات قدمها أناس عاديون وغيرت العالم. فى الحالة العادية يمكن أن تؤثر من خلال اتصالاتك المهنية أو ممثليك أو المؤسسات التطوعية، وربما عن طريق نشر وشهر وجهة نظرك يمكن أن تقدم المشورة بشكل غير رسمى، لأشخاص مهمين.

ومعظم الدراسات وكتب التعليم الجامعى تنظر إلى المشكلات الدولية من كرسى المتفرج، وتتوجه للوصول إلى هيكل تفسيرى على أساس أن المعلومات الأساسية خير وأجدى من المعلومات الفرعية، والمعلومات الكمية (العددية) أكثر نفعا من المعلومات الكيفية، هذا حكم من جراء تأثير العلوم الطبيعية ومناهجها. محلل العلاقات الخارجية يحتاج إلى أن ينظر العوامل الكيفية والعلاقات الترابطية، فالأشياء لا تحسب إلا إذا أردت حسابها، الأبحاث لا تسعى إلا خلف المعلومات الرقمية فهى تسعى إلى معرفة عدد الجثث وعدد المعدات العسكرية ومبالغ المساعدات الخارجية، إنها بشكل مباشر تقول لنا عماهوقائم، والمراد أن تؤثر فيما سوف يأتى وتفسر لنا كيف وقعت الحروب الماضية ولا تقول لنا ما هو

متوقع فلا تساعدنا فى تحقيق ما هو مطلوب. المراقبون والمتفرجون يطلبون من اللاعبين أن يلعبوا بأعلى مستوى ولكنهم لا يعرفون عوامل التعويق الحقيقية فى الساحة، ونحن نحاكم الأشياء بنتائجها لا بوقائعها وظروفها القهرية.

طبيعة خاصة لكل اختيار

فى صراع دولى أو اجتماعى، جماعى أو فردى، فإن متخذى القرار فى ذلك الصراع يمكن التأثير فيهم، سواء كانوا موظفين عاملين أو مديرين أو إعلاميين أو إرهابيين، فقط علينا أن نعرف نوع القرار الذى يتخذونه، وخلفية أسباب تصرفهم على النحو الذى تصرفوا به. أى متخذ قرار له خيارات مختلفة وعلينا التركيز على نوع الخيارات ومتخذها، لماذا يقوم بفعل شىء محدد ويحجم عن فعل شىء آخر؟حتى نعرف ذلك على وجه الدقة علينا أن نتقمص دور الآخر. فى هذه الحالة يمكن أن نرصد العناصر غير المحسوبة كعوامل العناد والسمات الشخصية ذات الطبيعة الخاصة لمتخذ القرار، ولا نترك توقعنا المسبق أو إرضاءنا للنفس يحددان ما نتوقعه من الآخرين، فعلينا أن نتصور أنفسنا مكانهم، خياراتنا نحن تختلف عن خيارات أعدائنا وربما تؤثر فينا بسبب نفسى أو بيئى أو اقتصادى أو وراثى لكنها ليست بالضرورة مؤثرة فى العدو أو المخالف لنا فى الطبيعة والرأى.

كل إنسان له خبرة سابقة في مواجهة الخيارات والوصول إلى نتائج عقلية وطرق خاصة فى التصرف. الولايات المتحدة مثلا نظمت حملة خليج الخنازير ضد كوبا سنة١٩٦١لأسباب تاريخية عديدة، ولكن من وجهة نظر الرئيس جون كيندى شبه الخاصة، فإن الحملة نظمت لأنه اتخذ القرار وهو يشعر بإهانة شديدة من قبل كاسترو..هناك سبب قد يكون شخصيا لكل حادثة حتى فى العلاقات الدولية. وإن لم يكن السبب شخصيا فإن طابع الخيار يحمل لا شك قدرا من التأثير الشخصى.

طلاب القانون عندما يدرسون قضية ما فإنهم غالبا ينظرون إلى الخيارات المتاحة أمام القاضى الذى عليه أن يتخذ القرار والحكم فى وقت محدد. ولو أن النظام الدولى ليس منظماومنضبطا كما هو القانون والنظام القضائى فى دولة ما، إلا أننا يمكن أن ندرس العلاقات الدوليه كما ندرس القانون حيث نعتمد على الحقائق الموضوعية ونقدم خيارات محتملة.

كن فاعلاً لا مستجيباً لفعل

من الصعب أن نصل إلى مكان ما - فى نهاية المطاف - إلا إذا فكرنا إلى أى مكان نريد الوصول؟الهدف يجب أن يحدد بصورة دقيقة. هذه الحقيقة تجاهلتها الإدارة الأمريكية

سنة١٩٧٩، ففي ربيع ذلك العام قررت الولايات المتحدة عن طريق الكونجرس أن تتخذ موقف الإدانة ضد النظام الجديد فى طهران - بسبب الإعدامات التى تمت بعد الثورة - وكان ذلك ردة فعل دون هدف محدد أعقبتها ردة فعل أخرى، فخلال أربع وعشرين ساعة قامت أكبر مظاهرة فى طهران ضد الولايات المتحدة وعلى أثرها احتلت سفارة الولايات المتحدة فى طهران، وأعقب ذلك أزمة «احتجاز الرهائن الأمريكيين»، تلك كلها كانت مجموعة من ردود الأفعال، وقد توصلنا ردود الأفعال الدولية إلى مصيدة حقيقية لأن متخذى القرار شاءوا أن يسيروا خلف عواطفهم لا عقولهم. عادة فى ظروف الفعل تكون ردة الفعل سريعة ومتوترة وعاطفية، وينسى الجميع بغد فترة أو يتجاهلون الجذور والأسباب الحقيقة للمشكلة، كل طرف - ببساطة - يستجيب لفعل الآخر بردة فعل!

اختيار الهدف بأناة

ليس مهما فقط أن نختار الأهداف ولكن يجب أن نختارها بأناة وبطريقة محترفة، أحد المفاهيم المهمة لإدارة الأزمة هو اختيار أهدافنا بدقة. وسوف نحقق إنجازات إذا اخترنا هدفاً محدداً على الأقل لأنفسنا - فالأهداف العامة والفضفاضة لا تأتى بنتيجة، مثل إعلانات إنهاء العنف، والاستسلام غير

المشروط، والقضاء على الجوع، والتحرر من الخوف..الخ!
هذه الأهداف يمكن أن تريح الجمهور ولكنها لا تتحقق فى الواقع. وقد يحسن أن نختار أهدافا متواضعة بسيطة يمكن تحقيقها بشكل ملموس بدلا من الشعارات الكبيرة التى تظل رنينا فى الهواء.

فى تخطيطنا للأهداف المبتغاة علينا أن نسأل أنفسنا مثل هذه الأسئلة:ما هى الموارد المتاحة تحت يدى؟ هل هى عسكرية، اقتصادية، نفسية؟ ومن هم الذين يجب أن نقنعهم لتحقيق هذه الأهداف؟ وهل هؤلاء الأشخاص يمكن أن يقنعوا؟ وبأى الوسائل؟

فى سنة١٩٧٩ـ١٩٨٠تبنى جيمى كارتر رئيس الولايات المتحدة ـ أنذاك ـ استراتيجية أسماها «أزهار الحديقة» وتعنى أنه من أجل متابعة مشكلة الرهائن الأمريكان فى طهران لزم الرئيس البيت الأبيض وترك متابعة الانتخابات الرئاسية الجارية أنذاك. هذا الهدف كان من المستحيل تحقيقه (إطلاق الرهائن) لأن الموارد والوسائل التى كانت تحت يدى الرئيس أنذاك غير قادرة على تحقيق ذلك الهدف. وكان على كاتر أن يعتمد على قرارات فى طهران من أجل إطلاق الرهائن أصبح الرئيس نفسه رهينة، وفقد سياق الرئاسة لصالح رونالد ريجان.

يرى الكتاب أن كارتر كان يمكن أن يحدد أهدافاً هو قادر على تحقيقها- على الأقل إعلاميا- كان يمكن أن يرفع شعار أن الولايات المتحدة لن تتنازل عن مبادئها ولن تكافىء التهديد أو تتنازل للمختطفين، أويمضى إلى حياته اليومية. مثل هذه الأهداف يمكن تحقيقها بسهوله، لأن الموارد والقدرات لتحقيق الهدف كانت بيده لا بيد غيره. كان يمكن أن يتبع التكتيك الذى قامت به الولايات المتحدة عندما احتجز الكوريون الشماليون إحدى البوارج الأمريكية- بعد حرب فيتنام مباشرة - وقتها أعلنت الولايات المتحدة أنها لن تخضع (للإرهاب الدولى) وبعد أحد عشر شهراً أطلق الكوريون الشماليون تلك البارجة بملاحيها.

أفضل طريقة لتحديد الهدف هى أن نستطيع تحقيقه بذاتنا وبوسائلنا، وأفضل الوسائل لتأكيد الفشل هى تحديد أهداف يستطيع المعادون أن يفشلوها، وحتى نتفادى هذا المطب علينا أن نحدد هدفا محايدا هو فى الغالب التعايش مع الصراع وتحديد أهداف جزئية وجانبية تقودنا إلى الهدف الأكبر. التعامل مع خلافاتنا بشكل ناجح وبطريقة سليمة وبأقل التكاليف، والتكاليف الأقل فى الصراع هى بحد ذاتها أهداف جيدة يجب الحرص عليها.

إنسان الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى تقرر فى الستينات - بعد أن وجد الجميع أن لديهم رءوسا نووية يمكن أن تدمر العالم أكثر من مرة - تقررأن تقوم فرق بالتفتيش على التجارب النووية واقتراح الأمريكان أن تكون من ثلاثة أشخاص، وفشلت المحادثات بسبب ذلك، ومن

ثم تكبد الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بلايين الدولارات لتصعيد السباق النووى. لم تفشل المحادثات لأنهم اختلفوا على كيف ومتى ولماذا، إلى آخر مثل هذه الأسئلة الجوهرية، بل على موضوع جانبى، ثم خسر الاقتصادان، السوفيتى أولا والأمريكى ثانيا، الكثير من الموارد لإتمام ذلك السباق. فى المفاوضات وحتى لا تجعل مشكلة صغيرة تعطل مسيرة الحوار والوصول إلى حلول توفيقية عليك بتجزئة المشكلة، وكل مشكلة صغيرة لها حلول مناسبة، فالنجار لا يستخدم المنشار من أجل أن يثبت مسمارا، إنه يستخدم المطرقة فى ذلك. كما أنه يُخشى عندما يكون فى صندوق أدواتك مطرقة فقط أن تبدو لك كل مشكلة وكأنها مسمار!. كل مشكلة لها حلول نوعية مناسبة وأدوات مناسبة. العلم بالأداة النافعة للحل - وحل مشكلة صغيرة من ضمن المشكلة الأكبر- يشجع ويدفع للحماس ويزيد القدرة على حل المشكلة الأكبر وأى أداة تستخدمها ولأى حل، تلك إجابة تعتمد على الخبرة والعلم والمعلومات.

التعامل مع الاختلاف

كل الخلافات الدولية- دون استثناء - يعتقد كل من طرفيها أنه على حق . والقدرة على مراجعة التفكير فى ضوء رؤية جديدة هى قدرة نادرة، وحتى نحصل على هذه القدرة علينا أن نعرف كيف ينظر الآخرون إلى العالم، ونعرف دوافعهم وعواطفهم ورغباتهم. القدرة هنا تعنى قدرتنا على وضع أنفسنا مكان الآخرين والنظر من وجهة نظرهم للمشكلة، فنحن غالباً نتعامل مع الصراع - إن كنا طرفا فيه - بضعف

لأننا أسرى تفكيرنا ونظرتنا أحادية الجانب. فعندما نرى امرأة تحمل طفلاً نفترض أن المرأة هى أم الطفل، ولكن عندما نلاحظ أن لون جلد الطفل يختلف عن لون جلد الام يتبارد إلى ذهننا شيء آخر، وعندما نشاهد بعد لحظات رجلاً يشير إلى الأم والطفل وهو بلون الطفل نغيـر رأينا مـرة ثالثـة. فالافتراضات البدهية المسبقة خطرة غالبا على أى حكم سريع على الأمور. وهناك مثل روسى يقول إن كل شخص يرى العالم من فوق برج قريته، والعالم بالطبع مختلف عن ذلك. توقعاتنا تختلف لأن خبرتنا تختلف، ولأننا عادة ما نختار من خبرتنا ما يهمنا ونختزن فى خبرتنا أيضاً ما يهمنا .

فالبعض يرى أن الإرهابيين فى بلد ما مجرمون، ويراهم البعض الآخر مقاتلين من أجل الحرية، ونحن عادة ما نتوجه إلى جمع الشواهد التى تؤيد وجهة نظرنا المسبقة ونتجاهل المعلومات والحقائق التى تتنافى مع ذلك.

التعامل مع الصراعات يعنى التعامل مع الطريقة التى يفكر بها الآخرون والقضية ليست هى هل تصورهم صحيح أو خطأ، لكن القضية هى فهمنا لأسباب الصراع فهما حقيقيا، وبمرجعية الحقائق الموضوعية. فى حالة الصراع خاصة إذا كـان يتسم بالعنف ـ فـإن الشعـور يطغى على الفكر، والمشاركون فى مثل هذاالصراع – يكونون مستعدين للتعاون معا. العنف عادة ما يقود إلى العنف.

الغاضبون دائما يفشلون فى سماع الرأى الآخر، ومن المحتمل أن يضعوا أسوأ التفسيرات حول الكلمات والأفعال والإشارات لشخص أو دولة ينظر إليها على أنها عدو، وإذا

كنا نريد أن نعرف ما يدور فى أذهان الآخرين فلابد من أن نحسب حساب العواطف والدوافع التى ربما تتداخل فى عقول الآخرين، خاصة إذا كان اتصالنا يتم بطريق غيرمباشرة.

أهمية معرفتنا بالآخرهى جمع المعلومات الخاصة بكيفية رؤيتهم للأمور. ما هو الشىء المهم وغير المهم بالنسبة لهم. قد لا نستطيع على وجه الدقة معرفة كل ذلك، ولكن النتيجة تستحق الجهد . نستطيع أن نحصل على هذه المعلومات من كتاباتهم، ومن أقوالهم، وهذه كلها تمكننا من تقمص أدوارهم. تمت تجارب من هذا النوع حول كيف يفكر السوفييت فى أفغانستان، وعرضت الأفكار على سوفييتى منشق فقال:«لقد نسيتم شيئا مهما وهو أن البحرية السوفييتية غاضبة لأن معركة أفغانستان قد حولت كل الموارد للقوات البرية والطيران السوفييتى» إذا قدرنا بالضبط تصورات أعدائنا فإننا يمكن أن نقدم بالضبط تصوراتنا حول مواجهتهم وكمفاوضين ترتفع صدقيتنا لديهم ونجعلهم يتحركون خارج وجهات نظرهم تلك، كى نستوعب أبعاد الصراع الذى نحن فيه علينا أن نلاحظة من ثلاثة وجوه ـ على الأقل – الأول أن نحدد طبيعة مشاعرنا، هل نحن غاضبون؟ هل نفتقد السيطرة؟ هل نقوم بردود أفعال؟ هل نبتعد عن النقاط المهمة إلى النقاط الجانبية؟ثم ما هى أهدافنا؟ وما هى مصالحنا وما هى المخاطرالتى نراها ماثلة فى سعينا؟ وعلينا ثانيا أن نلاحظ الوضع من وجهة نظر الشركاء فى الصراع، كيف تبدو الأشياء من ذاك الطرف؟ ولو كنا هناك ما هى أهدافنا؟ وهل نشعر بالغضب المبرر أو غيرالمبرر؟

وثالثا حتى نحصل على موقف متوازن علينا النظر إلى الوضع من وجهة نظر محايدة، كيف يتصرف الطرفان، هل هو تشاحن أو خلاف حاد أو صراع؟ حتى نفهم أى صراع لابد من النظر إليه من هذه الزوايا الثلاث.

انظر للمصالح خلف الأقوال

تبادل الأدوار والنظر من وجهات مختلفة لا يتيح لنا فقط وجهات نظرالآخرين ولكنه أيضا يعطينا فرصة للمناورة عن طريق توضيح الحاجات والاهتمامات الواقعة خلف الواجهة. فى أى صراع تقليدى تواجه بإشارات وبيانات من كل الأطراف: ماذا ستفعل أو لا تفعل وماهى مطالبها؟، وطلبات الأطراف هنا غير متوافقة مع بعضها، وهو وضع عسير المعالجة وهناك توجه طبيعى للإصرار على هذه المواقف.

علينا أن نبحث خلف واجهة البيانات الرسمية لنتعرف المصالح الحقيقية التى يريدها الطرفان. علينا أن نتطلع خلف مواقف الطرفين إلى المصالح المشتركة. فعندما يكون كلا الراكبين فى سفينة إنقاذ صغيرة يريدان الوصول إلى البر، وعندما تستعر خلافاتهما حول من يأكل الجبن ومن يأكل الخبز، فإن الصراع يكون متحركا فى دائرة مدمرة. فى بعض الأوقات يكون اختلاف الفهم واختلاف الأولويات سببا يجعل الكعكة تبدو أكبر للجميع.

كمثال على ذلك لو أن صاحب أسهم يعتقد أن الأسواق عالية الأسعار، وأن الوقت وقت بيع، وأخر يعتقد أن الأسعار منخفضة والوقت وقت شراء فإن الوسيط يكون راجعا إلى اختلاف فى الفهم واختلاف فى التوقعات.

تقديم أفكار حيوية

قيمة هذا الكتاب أنه يدعو إلى تقديم أفكار جديدة فى خضم الصراعات الدولية، ويدعونا جميعا حتى المواطن العادى للمساهمة فى هذه الأفكار، ويسوق لنا الأمثلة من الواقع المعيش على أهمية تبنى مثل هذه المنطلقات.

الفرق بين أن ننظر إلى الأمور بسطحية أو بمنظور واسع تقدمه لنا هذه القصة الإيطالية:فقد سئل ثلاثة من العاملين فى قطع الصخور ذات يوم قائظ ماذا يفعلون، فرد الأول:أنا أنحت هذه الصخور لجعلها فى الحجم المناسب ورد الثانى:أنا أكسب عيشى من هذا العمل. ورد الثالث :إننى أبنى كاتدرائية!

هناك فرق بين أن نشتبك ونقع فى حبائل القضايا الصغيرة وبين أن نتطلع إلى القضايا الأكبر، ولكنه توجه إنسانى غالب أن نخوض فى القضايا الصغيرة حتى على المستوى الدولى. فليس من السهل أن تطلب من طفل قرأ قصة قصيرة عن فيل أن يمتنع عن التفكير فيها. ومهما كانت الخبرة والمشورة جيدة ومعقوله فإن آلاف المستشارين والعديد من الناصحين والحكماء تذهب حكمتهم أدراج الرياح، لأنهم ببساطة لا يستطيعون تحويل تلك الحكمة إلى فعل، فالإقناع له أخلاقيات مختلفة. هذا الكتاب الجميل الصغير الحجم يتركنا نتحسر على أن القضايا الدولية العالقة مازالت تحصد الأرواح البريئة، وما زالت الصراعات مستمرة فى كل مكان.. بينما الحكمة غائبة.

١١

الإدارة فن .. لا يعترف به العرب المعاصرون

شاركت، ولا أزل، فى هيئة الإشراف على إصدار الكتاب الشهرى«عالم المعرفة» منذ عشرين عاما، وهو كتاب دورى يصدره المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت ويوزع فى جميع الدول العربية، وخارجها، وعليه إقبال واضح، ويقدم هذا الكتاب الشهرى موضوعات مختلفة علمية وأدبية وتاريخية واجتماعية كجزء من زاد ثقافى عربى طموح. والمقام هنا ليس الحديث عن هذه السلسلة من الكتب الناجحة والمعروفة، بل جاءت الإشارة إليها عندما كلفتنى الهيئة المشرفة وضع تصنيف للكتب التى وصل عددها الآن إلى ٤٠٠كتاب،لمعرفة ما هى الأجناس الثقافية والعلمية التى تناولتها هذه السلسلة وتصنيفها حسب التخصص الذى صدرت عنه أو التخصص الأقرب إلى موضوعها.

فوجئت بعد وضع الدراسة أن الكتب التى تناولت موضوع الإدارة لا تتجاوز١٪ من مجموع الكتب التى صدرت حتى الآن . وعلى الرغم من أن هناك مجالات علمية وثقافية أخرى كانت إصدارات السلسلة منها قليلة جدا، فإن موضوع الإدارة لافت للنظر لسببين على الأقل، الأول: أن كثيرين من المهتمين بالشأن العام يعتقدون ويصرحون بأهمية فهمنا- كعرب - للإدارة الحديثة كخطوة ضرورية للتنمية المنشودة. الثانى: أن العالم كله من حولنا يضج بالكتب والندوات

والمؤتمرات التى تؤكد أهمية الإدارة الحديثة. ويقول بعضنا للبعض الآخر إن هناك نمطا من الإدارة اليابانية هو الذى كان، ولايزال، خلف المعجزة الاقتصادية التى حققتها اليابان، وإن هناك إدارة كورية (جنوبية)، وهناك إدارة فى دول النمور الآسيوية، هى التى حققت القفزة الاقتصادية والتنموية لهذه النمور، بل إن دولا فى الغرب على رأسها الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا يتحدث سياسيوها وأهل الصناعة فيها عن الأهمية المركزية للإدارة. بل وأخال أن الحديث المتشعب والطويل الذى نسمع أصداءه فى بلداننا العربية، عن(الخصخصة)فى المشروعات الإنتاجية والخدمية، أساسه(الإدارة).

لذا فإن عدم التفاتنا إلى نشر كتب أو مقالات عن الإدارة فى العصر الحديث، وهو قصور ينبغى مواجهته، لا مداراته، فالمواجهة قد تكون أول مؤشرات الإدارك أو أوضح علامات الاتجاه إليه.

خطورة الإدارة

يدخل المتسابقون السياسيون فى الغرب اليوم الانتخابات الكبرى تحت شعارات تتلخص فى مضمون الإجابة عن سؤالين: حكومة كبيرة ومتشعبة، أم حكومة صغيرة تدير المهم من أمور المجتمع وتترك الباقى للإدارة الخاصة؟ والجميع - أو

من يريد أن ينجح على الأقل فى تلك الانتخابات - يختارون شعار تقليص دور الحكومة الكبيرة، والتوجه إلى الدعوة بأن تكون اختصاصات الحكومة فى الأمور الأساسية لتوجيه دفة المجتمع. بل، إنك موافق معى على أن انهيار فكرة الإدارة المركزية هى فى صلب عملية انهيار الدول الاشتراكية. فقد تراكمت أثقال ونقائص تلك الإدارة المركزة، إلى درجة ضغطت على أنفاس المواطنين دون أن تقدم لهم فى المقابل إنتاجا أو خدمات يوازنون بها احتمالهم تلك المركزية، فتخلصوا نهائيا منها ولو بالقفز إلى المجهول.

نقص الاهتمام بمفهوم الإدارة لدى النخبة العربية ظاهر للعين، فالإدارة، ولو أن لها أقساما تدرس فيها فى الجامعات وتتناولها بعض الدوريات المتخصصة، إلا أنها تكاد تقتصر على المتخصصين، فلا وجود لمعلومات مبسطة عنها منشورة فى الصحف السيارة، ولا هى بالموضوع المتناول بشكل عام فى المجلات والكتب، كما أن المنشور عنها فى كتبها المتخصصة أو مجلاتها هو بلغة تكاد تكون غير مفهوم إلا لخاصة المعنيين بها أكاديميا، إضافة إلى عسرها التعبيرى لكثرة الترجمات الجامدة والحرفية بينها، وقلة الإبداع والابتكار باللغة العربية فى مجالها.

أنت تعمل، إذن أنت تدير

سواء كنت تعمل فى نطاق أسرتك - كربة البيت - أو فى

وظيفة حكومية أو فى بقالة صغيرة أو مستوصف أو مدرسة أو فى أى مكان وبأى نشاط فأنت تدير!وقواعد نجاحك فى الإدارة ـ سواء كانت لمؤسسة صغيرة أو مصنع كبيرـ هى تقريبا نفس القواعد . والإدارة إدارتان، إدارة بشر وإدارة موارد، وإدارة البشر مقدمة على إدارة الموارد، ولكن الاثنتين تكملان بعضهما بعضا.

لقد خضنا – نحن العرب – حروبا عديدة فى العقود الأربعة الماضية، وكان ما فشلنا فيه هو إدارة الجيوش، فأنت تقرأ اليوم مذكرات القادة، وقصص الزعماء، فتعرف أن الجيش الذى حارب كانت تنقصه الذخيرة آو الزاد وحتى الماء أو المعارف، وكل ذلك نقص شديد فى الإدارة، إدارة الحروب. ثم تقرأ عن معاهدات السلم التى وقعت وتقرأ عن نقائصها وثغراتها وكل ذاك مرجعه نقص فى إدارة مفاوضات السلام!

وتقرأ عن فشل المؤسسات فى تحقيق أهدافها الصناعية والخدمية والتعليمية والاعلامية، وهو نقص أساسى فى إدارة تلك المؤسسات من حيث البشر أو الموارد، أو كليهما معا. وأن أكبر معوق لنجاح الإدارة فى مؤسساتناالعربية هو عدم اعترافنا بأهمية دور هذه الإدارة، وقد قيل:عندما تقلل من قدرات عدوك يهزمك. وقد قللنا من أهمية الإدارة حتى هزمتنا.

هناك تجارب عديدة توضح مدى مساهمة الإدارة فى إنجاح

أى مشروع سواء كان صناعيا، أو خدميا أو سياسيا، ولكن عوامل ذلك النجاح هى عوامل مغموسة - إن شئت القول - فى ثقافة ذاك المجتمع الذى تحقق فيه نجاح ذلك المشروع وفى فترة زمنية بعينها. ذلك أن نجاح الإدارة فيه شىء من الإبداع النابع من ظروف المجتمع فى تلك الفترة الزمنية المرجعية. فأنت إن قرأت كتابا فى الإدارة الناجحة فى بلد مثل الولايات المتحدة أو اليابان لن تستطيع، مهما أوتيت من قدرة على النقل، أن تنجح تلك التجربة بحذافيرها فى مجتمعك، لسبب بسيط هو أن ظروف مجتمعك تختلف فى عناصرها عن ذلك المجتمع الذى نقلت منه المبادىء الناجحة، نعم تستطيع أن تنقل الفكرة مع تحويرها ومواءمتها مع العناصر الثقافية فى مجتمعك خذ مثلا التمرينات الرياضية المشهورة التى يقوم بها العمال والموظفون صباحا فى معظم المؤسسات اليابانية، وهى هناك تؤدى إلى وظيفة شحن الطاقات وتهيئتها قبل البدء فى يوم العمل، مع أناشيد قصيرة لرفع الروح المعنوية، مثل هذه الممارسة يرفضها ثقافيا العامل أو الموظف العربى، كما يمكن أن يحدث عندما ننظر إليها نحن فى هذه المنطقة من العالم ونعتبرها - على الأرجح - محاولة قد لا تأتى بمردود إنتاجى ما.

إذن هناك قيم فى المجتمع إيجابية وأخرى سلبية تخدم أو

تعـوق الإدارة، وعلينا أن نبحث عنهـا، ونطور وسـائل فـعـالة لتقليل القيم السلبيـة وتعزيز القيم الإيجـابيـة، أو بناء قيم ايجابية جديدة تجاه العمل والإنتاج تقود إلى تحقيق النتائج المرجوة، وتلك العمليـة هى ابتكار وريادة فى الإدارة. وهناك قيم عـامة وإنسـانية علينا فقط الاعتراف بها، وتفعيلها كى تقودنا إلى طريق أفضل فى الإدارة العربيـة، هى على سبيل المثال لا الحصر: أن الانسان - أى إنسان - لديه رغبة إيجابية - سواء كان مقدم الخدمة أو متلقيها- فى أن يكون جزءا من نظام ناجح، كيف يمكن أن نستفيد من هذه الرغبة، التى تكاد تكون طبـيـعـيـة، فى تقـديم إدارة أفضل؟ وهناك قيم حب المشاركة، فالإنسان يريد أن يساهم فى السلطة - أيا كانت - فى أسرة أو وظيفة أو مجتمع، ومن يحرم من المشاركة إما أن ينتظم فى تيار مضـاد لتلك السلطة، أو يعتريه شعور بعدم الاهتمام والإهمـال، لذلك فإن مشـاركة العـاملين - فى سلطة المؤسسة تمثل قيمة إيجابيته لإنجاح نشاطها، والمشاركة فى الإدارة لا تعنى تمثيلهم فى مجلس الإدارة، بقـدر مـا تعنى مخـاطبة إيجـابية لمشاعرهم تعزز من سلوكهم الإيجـابى وتحفزهم على النهوض بالأدوار المحددة لهم فى المؤسسة العامة أو الخاصة وبذلك يشاركون فى إنجاح أهدافها.

قيم مضادة

يكاد يجمع كل من تعامل مع الإدارات الحكومية وبعض المؤسسات العربية الأخرى، على جسامة المعاناة مما نسميه البيروقراطية حيث تتحكم المكاتب فى مصالح الناس، وكم من هيئة وطنية أو مؤسسة ذهبت أدراج الرياح بسبب ذلك الغُول غير المرئى الذى نجم على تسميته البيروقراطية ولا نكاد نجد له وصفاً محدداً . ويتعاظم شبح البيروقراطية فى مؤسساتنا الرسمية إلى درجة من التراكم يسميه البعض منا الفساد الإدارى، الذى لا تنفع معه الحلول الدوائية المسكنة فتتعطل مصالح الملايين من البشر ويفقد المجتمع حماس خيرة عناصره، وتتبدد موارده بما لا طائل منه، وتمضى الأمور فى معظم توجهات تنظيمنا الإدارى على عكس الثلاثية الذهبية المعروفة التى تقول لنا عليكم - أولا - بالدعم والتشجيع للعاملين فى المؤسسة، فنقوم نحن بالرقابة التفصيلية والتهديد وعدم الثقة فى أول فرصة متاحة من الغضب أو الشك، وتقول لنا - ثانيا - عليكم بتحميل المسئولية للعاملين معكم فى المؤسسة وفق هامش أكبر من الحرية فى التصرف، فنقوم نحن بالتقيد الحرفى بالإجراءات وتطبيق اللوائح وخلق الممنوعات وتركيز القرار فى يد الرئيس (المسئول) حفاظا على الوجاهة والتحقق غير السوى للذات، وتقول لنا - ثالثا - عليكم

بتثمين قدرات العاملين معكم، ونقوم نحن بالنقد غير الحصيف والإمعان فى تعديد الأخطاء والمحاسبة على التفاصيل حتى يشعر العاملون معنا بعدم أهمية عملهم .

إنها مجموعة من القيم المضادة التى تتعارض مع تحقيق أهداف الإدارة، علينا أن نبحث عن أسبابها فى ثنايا ثقافتنا وتعليمنا وفهمنا الحقيقى لتقديم الخدمة للناس. وفى مجتمعات أصلها ريفى أو بدوى تمدينت (بالمعنى العلمى) حديثاً، فلا شك أنها بعيدة عن القيم المدنية التى استقرت فى مجتمعات أخرى، وذلك ليس عيبا بذاته، ولكن العيب أن نبقى أسرى لتلك الفكرة - فكرة بعدنا عن قيم المدنية الحديثة المستقرة - دون أن نبحث بجد فى قيم إيجابية - وهى كثيرة - فى تلك المجتمعات الموجودة لدينا، ونوائم بينها وبين متطلبات الإدارة الناجحة وذلك لتقديم خدمة أفضل. وما دمنا نشكو من البيروقراطية والفساد الإدارى، فلا شك أننا واعون بالمشكلة ووجودها، وعلينا أن نبحث لنصل إلى حلول ناجعة لها.

البشر أم الأنظمة ؟!

لعل بعضنا يعتقد أن تطوير الإدارة ونجاحها يعتمدان على وجود أنظمة مادية وفنية حديثة، ولو أن هذا القول يشكل جزءا من الحقيقة، إلا أن جوهر الإدارة الحقة هو البشر. فالموارد

البشرية مقدمة على الموارد المادية مهما علا شأن الأخيرة. فأهداف وحاجات العاملين فى المؤسسة يجب أن تتناسق وتتكامل مع أهدافها، فلا يمكن أن ينجح مشروع فى تحقيق أهدافه بإهمال العاملين فيه. حجر الزاوية فى عملية إصلاح أو تطوير الإدارة العربية هو النظر بجدية إلى إنسانية الإنسان العربى، ومهما تحقق للمؤسسات - حتى فى دول اليسر المادى العربية - من تقنية إدارية حديثة فهى دون الإنسان أحجار خاوية لا تقدم ولا تؤخر. وإذا تحدثنا عن الإنسان فنحن لا نتحدث فى المطلق، بل نتحدث عن واقع معيش.، فأنت لا تستطيع أن تستفيد من نظم المعلومات التى تفجرت على نطاق واسع فى هذا العالم المحيط بنا دون أن تهيىء الإنسان لاستقبال واستخدام هذه المعلومات.

وحتى ندلل على فداحة الخسارة فى استخدام المعلومات عندما لا يتهيأ البشر لها فإن إحدى الإحصاءات تشير إلى أن هناك ترليون دولار قد أنفقت (فى أحد البلدان العربية) على تقنية المعلومات بين عامى ١٩٨٣ و ١٩٩٣ ليكون العائد فى المقابل ارتفاعا فى الإنتاجية لا تتجاوز نسبته ١٪ فقط! ونحن نعتقد أن الاستفادة من تقنية المعلومات فى محيطنا العربى مهما أنفقنا عليها - دون تدريب صحيح وحقيقى للبشر - لن تزيد بأى حال على تلك النسبة.

لذلك فالقول إن الثروة الحقيقية لأى مجتمع ومصدر الإبداع الرئيسى فيه هى موارده البشرية قول حقيقى ودقيق. ولكن كم من هذه الموارد عندنا نحن العرب غير ملتفت إليها بل يعمل على تبديدها وإحباطها. إن العناية بالثروة البشرية تستلزم وجود عاملين أساسيين هما التعليم والتدريب، ولتحقيق التغيير المطلوب فى المجتمع ككل وفى الإدارة على وجه الخصوص لا بد من العناية بالتعليم كيفا وكما، فرفع مستوى الثروة البشرية وكفاءتها يؤديان بدورهما إلى تحسين أدائها، وجودة إنتاجها. وعند النظر إلى محتوى تعليمنا العربى فإن هناك الكثير مما نفتقر إليه، كما لا يمكن إدارة الموراد البشرية ورفع كفاءتها للاستخدام الأمثل دون تدريب. ويجرى التعليم والتدريب فى الدول الصناعية يدا بيد. بينما يوجد لدينا طلاق بائن بين التعليم والتدريب إلى درجة أن «الشهادة» أصبحت - إلى حد كبير - لا تعنى شيئا فى الواقع العملى، بينما هى كل شىء فى قناعة الكثيرين، إذ يسعى الناس إلى الحصول على شهادات مختلفة من أجل إثبات الذات وتحقيق نصر معنوى لا غير!

وحتى نلفت النظر إلى أهمية العنصر البشرى، علينا فقط دراسة كيف تتخاطف الشركات والمؤسسات الكبرى العقول الإدارية الناجحة، بل إن هذه العقول تدخل الدول المتقدمة

حروبا اقتصادية ودبلوماسية للاستحواذ عليها، وكم من شركة قاربت على الإفلاس جيء لها بمدير كفء فتحول احتمال إفلاسها إلى تحقيق أرباح لم تكن متخيلة.

التعليم والتدريب فى بلادنا أيضا لا صلة حقيقية بينهما وبين احتياجات سوق العمل. هناك نوايا طيبة وهناك اتجاهات محمودة لدى كثير من مؤسسات التعليم والتدريب عندنا، ولكن هناك أيضا نتائج محدودة. وسبب هذا التضارب بين النوايا الطيبة والنتائج المحدودة، فى ظنى، يرجع إلى غياب عنصرين فى مجال الإدارة يرتبط كل منهما بالآخر، أولهما: أننا برغم القبول المنطقى بخطورة موضوع الإدارة الحديثة، فى نجاح أو فشل المشروع، ويؤمن بذلك الكثيرون من أصحاب الاختصاص الأكاديمى على وجه التحديد، فإننا لا نمتلك اليقين فيما يمكن أن تفعله هذه الإدارة، وثانيهما: أننا ما زلنا بعيدين عن مقاربة موضوع الإدارة برؤية إبداعية.. فلا إدارة حديثة، دون رؤية، ورؤية إبداعية على وجه الخصوص. وهنا لابد أن نتوقف عن التجريد لنفسح للتجسيد المجال، حتى يلمس القارئ - وبالأمثلة الدامغة - ما نرمى إليه فى التركيز عى أهمية هذين العنصرين الغائبين.

الإدارة تصنع نقوداً

لا أظن أن هناك مجالا دالا على عصرنا الحديث أكثر من

مجال الكمبيوتر. ولا أظن أن هناك مجالا مثله تتجلى فيه أهمية الإدارة، وبلغة واضحة، بل صاعقة، لأنها لغة الأرقام.. فالتغيير السريع فى استخدام الموارد بهدف الحصول على نتاج بعينه، وهى أحد تجليات الإدارة الحديثة، أنجز ما يشبه المعجزات الاقتصادية. فشركة IBM للكمبيوتر فى هيوستن/ تكساس فى أمريكا، وخلال السنوات الثلاث الماضية حولت المصنع الحديث ـ كما تقول الإيكونوميست ـ إلى آخر أحدث، وبذلك أنقصت وقت دورة الإنتاج من سبعة أيام ونصف إلى يوم ونصف! وقلصت الزمن اللازم لتطوير المنتج الجديد من ٢٤ شهرا إلى ثمانية أشهر! والنتيجة.. أنها زادت ربحيتها من ١٩ إلى ٨٥ مرة. كما أنها اختزلت عدد العاملين بها من ١١٠٠ إلى ٤٢٣ فردا فقط. وقد يتوقف البعض منا أمام الرقم الأخير باستنكار مرده الشفقة على هؤلاء الذين تم تسريحهم. وكأن دولاب المؤسسات الاقتصادية ينبغى أن يدور بحنو أيادى المحسنين. المسألة محسوبة بالطبع فى إطار مجتمعات مدنية متطورة توفر حدا من الكفالة الاجتماعية يكفى لسد العوز للمتعطلين عن العمل، لكنه لا يحمى غير الموهوبين والكسالى وعديمى الأهلية، أو هؤلاء الذين لا يرغبون فى تطوير أنفسهم.. إنه فرز مستمر لجودة الأداء، وإعادة توزيع الجهود بما يمكن أن تكون فيه أكثر إفادة وربما استفادة

أيضا.

الصورة فى مجملها ليست مجرد تغيير مفاهيم، إنها ثورة مفاهيم مرجعها الإدارة الحديثة، التى باتت تتعامل مع مستجدات خاطفة ولامعة كالبرق، ومفاجئة كالبرق أيضا. فبعد الرقاد الطويل الذى استنامت فيه البشرية مستريحة على إنجازات عصر الصناعة، جاء عصر آخر أصبحت فيه أبخرة المداخن وأناشيد التروس وأفران الصهر العملاقة والماكينات الضخمة مجرد ديناصورات ثقيلة لا تقوى على سباق منجزات العصر الجديد.. عصر المعلومات. ومن هنا فإن الإدارة الحديثة باتت ملزمة - حتى تكون حديثة فعلا - بتبنى مفاهيم أخرى، وتبجيل أبطال جدد. ففى أوائل عام ١٩٩٢ - على سبيل المثال - حققت أسهم شركة مايكروسوفت (المتخصصة فى برامج الكمبيوتر) فى سوق الأوراق المالية بليونى دولار من الدخل متفوقة بذلك على ما حققته شركة «جنرال موتورز» لصناعة السيارات التى لم تحقق من الدخل إلا ١٢٠ مليونا من الدولارات فقط!

إذن البطل الجديد الذى تتعامل معه الإدارة الحديثة هو جهد العقل البشرى عند توظيف طاقاته المرهفة فى إطار تكنولوجيا مرهفة، وهو ما يؤكده مثال آخر، وفى مجال صناعة المعلومات أيضا، وإن جاء من اليابان هذه المرة.

فشركة «ننتندو» NINTENDO العاملة فى مجال شبكات المعلومات، وتستخدم ٨٩٢ عاملا، لا غير، بينما تقفز مبيعاتها إلى ٥,٥ بليون دولار (أى ٦ ملايين دولار لكل عامل)، وكانت الشركة الثالثة من حيث تحقيق الأرباح فى كل اليابان عام ١٩٩٢.

ولأن الأمر كذلك، فإن الابتكار فى الإدارة يغدو عنصراً لابد منه إذا ما أردنا التحديث، أو اللحاق بالحديث، أو صنع الحديث، وهو ما يلخصه قول بيتر دراكار: «أفضل وسيلة للتنبؤ بالمستقبل هى أن تخلقه بنفسك». ونحن بصدد انفجارات تقنية ومعرفية يكون فيها كل إنجاز آنى جديد هو إنجاز مستقبلى، فهى بذلك تصير فنا ومن ثم يلزمها الإبداع.. وهو ما ينقص غالبية إداراتنا، بل ومفاهيم الإدارة لدينا. وهو أمر يطول، وآمل أن أشير إليه ولو فى عجالة.

إدارة جنونية لزمن مجنون

بين أشهر خبراء الإدارة فى العالم يتبوأ «توم بيتر» مكانا مرموقا ويُذكر له كتابه الأخاذ «التفوق» الذى بحث بعمق فى عناصر الامتياز، وقد أصدر توم بيتر أخيرا كتابا أسماه «زمن مجنون يحتاج إلى تنظيم إدارى مجنون» وتدور فكرة الكتاب الأساسية حول التفويض، أى تفويض الموظفين والعاملين فى المؤسسة القيام بمهام العمل وتخويلهم حقوقا

تحول كلا منهم إلى قائد، ومن ثم تتحول المؤسسة كلها إلى قياديين! فكرة تبدو مجنونة - بمعنى التجاوز الساحر لا الشطط الأخرق - وهى مناسبة لزمن مجنون بالفعل، مجنون بمعنى أن كل يوم يمر فيه تتضاعف معرفة الإنسان ثم يتضاعف التضاعف، وهكذا.. بلا حدود، وبطاقة من النمو المعرفى مذهلة.

مفهوم تحويل كل العاملين إلى قادة فى عرف خبير الإدارة الأمريكى العالمى، ليس المعنى منه - بالطبع - وضع كل الرءوس فوق كل الرءوس، ولكنى أفهمه كإشارة إلى ضرورة تحويل كل العاملين - فى منطق الإدارة الحديثة - إلى مبدعين.. وهنا لب الموضوع.. الإبداع.

والإبداع، كما يروق لمن يعالجون علاقته بالإدارة أن يعرّفوه هو: «طريقة للتعامل مع المعلومات والموارد والطاقة الموجودة لإيجاد طرق جديدة فى العمل، وحل المشكلات»، وباختصار هو الخروج بجديد، مدهش، من ركام القديم والتقليدى والمعتاد. والمثال المفضل لدى أهل علم الإدارة لتقريب هذا المفهوم هو مثال الفنان «مايكل أنجلو» الذى قال أنه لا ينحت تماثيل لشخصيات، بل يُخرج هذه الشخصيات الكامنة فى قلب الحجر. المسألة إذن معالجة للموجود بروح الخيال لإخراج الجديد والمدهش. أى الفنى. لهذا آثرت أن أعنون

مقالى بتعبير «الإدارة فن» .

وليست الإدارة وحدها هى التى ينبغى أن تصير فنا، بل إن كل أداء إنسانى عندما يحلق فى الذُرى المرتفعة والآفاق البعيدة يكون فنا، فالفن أعلى حالات المعرفة، والصناعة، والزراعة، وحتى تدبير البيوت. نحن فى حاجة إلى «تفنين» حياتنا، ومن باب أولى «تفنين» رأس الأمور كلها، أى الإدارة. وبعبارة أخرى: الإبداع فى الإدارة. وهو إبداع قادة العمل لإطلاق الطاقات الإبداعية للعاملين، ومن ثم إيجاد حلول إبداعية للمشكلات. أى توليد أفكار جديدة للتطوير. وما دام الحديث بالمثال هو أفضل صور تقريب المفاهيم إلى الأذهان، فإننى أحكى هذه الحكاية التى وردت فى كتاب أحد القادة الصناعيين اليابانيين تحت عنوان «اليابان التى تستطيع أن تقول لا». ففى أحد مصانع الرقائق الفائقة التوصيل، وهى عماد صناعة الإلكترونيات المتطورة، لوحظ أن هناك عيباً فى إنتاج المصنع لم يمكن تلافيه برغم البحث بجدية وعمق عن جذوره التى ظلت خافية حتى عن أعين أقدر العلماء والباحثين فى هذا المجال. وبينما كانت إحدى العاملات فى طريقها المعتاد إلى المصنع لاحظت أن القطار الذى ينقل بضائع أحد المصانع المجاورة يجعل الأرض تهتز عند مروره، وفكرت العاملة البسيطة فى احتمال أن تكون هذه الاهتزازات هى

سبب العيوب التى تظهر فى منتجات مصنعها، فأبلغت رئيسها المباشر بما فكرت فيه، وأبلغ رئيسها رئيسه الأعلى، وهكذا حتى قررت إدارة المصنع بحث الاحتمال المؤسس على ملاحظة العاملة الصغيرة. وثبت بعد ذلك أن اهتزازات مرور القطار هى السبب الفعلى للعيوب فى الرقائق الفائقة التوصيل. ولما كان متعذرا إلغاء مسار القطار، فقد حفروا قناة تفصل بين مسار القطار وأسوار المصنع وملأوا القناة بالماء ليمتص نسبة كبيرة من الاهتزازات وكانت النتيجة باهرة، فقد قفزت منتجات المصنع إلى مصاف الأولوية فى جودة إنتاج هذه الرقائق، وبلغة أخرى صارت للمصنع قدرة المنافسة العالية، ومن ثم مزيد من المبيعات والصادرات والملايين بل البلايين.

إنها قصة جديرة بالتأمل لتقريب مفاهيم الإبداع فى الإدارة الحديثة، ولنلاحظ أن بيت القصيد ليس حفر القناة بل كيف أن العاملة البسيطة مهمومة بمشكلات مصنعها ومشغولة بالتفكير فيها. وكيف أنها عندما فكرت لم يسخر منها رؤساؤها، ولم ينسبوا حتى فضل التفكير لأنفسهم. لا أريد الدخول فى التفاصيل الأكاديمية لمسائل اكتشاف وتطوير الإبداع الإدارى، ولا التدريبات العلمية والفنية المتبعة لبلوغ ذلك، فهذا شأن المتخصصين، فقط أردت أن أنبه إلى خطورة

وأهمية وعظمة العائد من الاعتراف والاهتمام بفن الإدارة الحديثة.

ولعلى أجمل الهدف - الذى أرمى إليه من هذا المقال - فى مقولة لليابانى - أيضا - «ياساتوشى ياشوميرا» من كتابه «فن التفكير الإبداعى»، تلخص ما يتناوب على خاطرى فى موضوع فن الإدارة الحديثة، من ألم وأمل، فهو يقول: «إن الفشل فى استغلال الإبداع الكامن لدى الإنسان بسبب جهله بوجود هذه القدرة أو عدم المبالاة أو بسبب التعنت المقصود ليس هدرا بقدر ما هو خيانة للنفس» - وفى بلداننا هو خيانة وطنية.

وأتمنى ألا نخون أنفسنا، ولا أوطاننا حتى لا يخوننا الحاضر.. والمستقبل.

١٢

على هامش الانتخابات الأمريكية المنتظرة

قراءة فى حدث أبعد من حدوده وزمانه

أمـريكا مـرة أخـرى *.. أمـريكا التى لا يمكن لعـاقل أن يتجاهلها، فهذا الكيان السياسى والاجتماعى الذى لم يكن موجودا منذ ثلاثة قرون فقط، صار الآن قدر القمة فى عالمنا الراهن. وفى داخل هذه القمة تتحرك الآن تيارات جديدة، قد لا تؤدى إلى عاصفة من التغيير، لكنها بالتأكيد تشير إلى رغبة عارمة فى التغيير. ولأن أمريكيا هى ما هى، فإن كل تغيير بداخلها يتخطى حدودها لينشر تغييرات إن لم تشمل وتحرك مكونات العالم فإنها تشيع فى هذا العالم مناخا ينذر بضرورة التغيير.

ففى الخامس من نوفمبر من العام القادم سيذهب الناخب الأمريكى لاختيار رئيس جديد للولايات المتحدة لفترة رئاسية تمتد أربعة أعوام، أى أنهاستكون رئاسة تصل إلى عام ٢٠٠٠ وتطل على القرن الحادى والعشرين. لكن السابق نحو سدة الرئاسة الأمريكية لم ينتظر حتى يأتى يوم الانتخاب، فقد بدأ السباق بالفعل. وعلى خط السباق يلوح نجم جديد، بمؤشرات جديدة، لابد من دراستها، إذا كنا نريد أن نعرف شيئا عن إرهاصات المستقبل فى هذا البلد الكبير، الذى لا شك فى امتداد تأثيره علينا كما على العالم. فعلى مضمار السباق الرئاسى الأمريكى بدأ يلمح اسم الجنرال الأمريكى المتقاعد كولن باول إثر جولة بدأت لتشمل ٢٦ مدينة أمريكية للترويج

* نشر هذا المقال فى «العربى» - عدد ٤٤٤ - نوفمبر ١٩٩٥ .

لكتـابه الذى يحـمل اسم «رحلتى الأمـريكيـة». ويـرغم أن رئيس هيـئـة الأركـان الأمـريكيـة السـابق لم يعلن عن عـزمـه على الترشـيح حـتى لحظة كـتـابتى لهـذه السطور، إلاأن اسم هذا الرجل الأسـمر المائل إلى البياض والبالغ من العمر ٥٨ عاما، والمنحدر من أصول جامايكية كـاريبية، بدأ اسمه يظهر فى استطلاعـات الرأى الأمريكى مشفوعـا بتـأييـد لا بأس به، بل بترجيح فوزه إذا ما رشح نفسه وأجاد تقنية الترشيح.

وعند هذا الحـد تبـدو ظاهرة «كولن باول» جـديرة بالتـفـقـد، فـلابد أن فى ثنايـاها دلالات كثيرة مـهمة، وأهميتـهـا تنبع من ظهـورها فى كيـان اجتـمـاعى وسيـاسى وثقـافى واقتـصـادى ضـخم كـالولايات المتحدة، وفى زمن لا يخفى على أحد فيـه تأثير هذا الكيان.

حقيقة الأمر أن هذا الرجل الأسمر - كولن باول - لفت نظرى بشدة حين أصبح على رأس القيادة العسكرية الأمريكية بكل مـا تزخـر به من خبـرات فى بلد اشتـهـرت جمـاعاته العرقـية بنزعـات عنصـرية شـديدة الوطأة فى الماضى، ولم يحـصل الملونون فيه والسـود على حقوقـهم إلا بعد نضـال طويل امتد فى تاريخ أمريكا حتى منتصف الستينيات من هذا القرن، بعد مـا عرف بمسـيرة الحقوق الوطنية التى خـاضـهـا مع آخرين مارتن لوث كينج وذهب ضحيتها أيضـا فهل كان وضع كولن

باول على قمة الهرم العسكرى الأمريكى راجعا إلى أسباب سياسية تراها الإدارة الأمريكية الجمهورية لاستقطاب أصوات وعواطف السود والملونين فى بلاد تصبح أكثر فأكثر مختلطة عرقيا وثقافيا؟، أو أن هذا الرجل بالذات له من الخصائص الشخصية ما يؤهله ليكون فى هذا الموقع بصرف النظر عن لونه؟

إن أردنا أن نستشهد بأقواله فهو يقول: «إن النجاح يحتاج إلى كثير من العمل والصبر وقليل من الحظ». وعندما قرأت كتاب «جندى الحروب» الذى أصدره الجنرال باول فى سبتمبر الماضى وأحدث ضجة كبيرة تيقنت من أن الرجل نتاج مؤهلاته وعمله الدءوب وليس بسبب لونه المختلف.

الجنرال كولن باول هو رئيس الأركان السابق والمستشار الأسبق للأمن القومى وربما مرشح رئاسة الجمهورية القادم فى الولايات المتحدة.

لكن هل من المبكر الحديث عن انتخابات الرئاسة الأمريكية؟، وهل من المناسب أصلا الحديث عنها؟

سوف أجيب عن السؤال الأخير أولا: نعم من المناسب الحديث عن رئاسة الجمهورية فى الولايات المتحدة، لأن هذا البلد اليوم أصبح هو القائد الأساسى لتحريك التفاعلات السياسية فى العالم، فهو لم يعد مؤثرا فقط فى القارة

الأمريكية - حيث مجاله الحيوى والطبيعى - ولكنه أصبح أيضا مؤثرا فى السياسات الأوروبية، فها هو يقود عملية السلام بالقوة أو التصالح المؤسس على حرب الطيران فى البلقان، وبعد أن وجدت أوروبا نفسها عاجزة عن الدخول فى معارك مباشرة لإقناع الأطراف المتحاربة للوصول إلى حل أو حلول تؤكد السلام والاستقرار فى أوروبا، وها هو يتدخل مباشرة بين الأطراف المتصارعة فى أفغانستان، وبين الأطراف الكردية المتصارعة فى شمال العراق، وبين الأطراف المتنازعة فى أيرلندا الشمالية، وفى فلسطين، وفى الخليج، وجنوب شرق آسيا، وتقريبا فى كل مكان على هذه البسيطة. ذلك هو الواقع السياسى اليوم.

الوجود السياسى الأمريكى - ولا أقول النفوذ - أخذ على عاتقه فى هذه المرحلة من التاريخ أن يكون شرطى مرور العالم، ينظم السير السياسى، ويصدر المخالفات للمخالفين، إما عن طريق الأمم المتحدة أو من خلال حلف الناتو.

لهذه الأسباب - من بين أسباب أخرى - يتوجب الحديث عن الانتخابات الأمريكية القادمة، ويتوجب النظر إلى من سيخوضها وماهية سياسته فى عالم أصبحت السياسات فيه تتغير بسرعة. ولكن هل الزمن - التوقيت - مناسب؟، والجواب: نعم أيضا. فأنت - عزيزى القارىء - تطالع هذاالحديث فى

نوفمبر ١٩٩٥ ويكون متبقيا من الوقت شهران وعشرون يوما فقط على بدء التحضير للانتخابات الرئاسية الأمريكية.

ففى العشرين من فبراير ١٩٩٦ سيبدأ سباق المرشحين للرئاسة الذى تفتحه تقليديا مدينة همبشاير لاختيار ممثليها لانتخاب مرشح الحزب الجمهورى. ومنذ الآن وحتى انتخابات الرئاسة ١٩٩٦ يتزايد فى الأوساط الصحافية والسياسية الأمريكية والعالمية الاهتمام بهذا الحدث المهم، فالتوقيت ليس بعيدا.

ويبقى سؤال آخر: وماذا يعنينا من كل ذلك؟

نحن كعرب نعنى بهذه الانتخابات لأن السنوات الأخيرة من القرن العشرين تشهد نفوذا واسعا للولايات المتحدة فى شئون وشجون العالم كله من أقصاه إلى أقصاه، وتشهد أيضا وجودا سياسيا فى منطقتنا العربية بشكل مباشر أو غير مباشر، علنى أو غير ذلك.

وعلى قواعد ما سوف يوضع من سياسات فى هذه السنوات ربما يصبح التأثير واسعا لسنوات قادمة فى القرن الحادى والعشرين، وهو تأثير لا نستطيع تجاهله، أو أن ندفن رءوسنا فى الرمال مدعين بأنه غير موجود.

الأمريكى والعالم

بعض المعلقين الأمريكيين المهتمين يرفعون حواجبهم

تساؤلا: ما هو دور الأمريكى فى العالم؟ وهل تستطيع أمريكا أن تتحمل وحدها مسئولية أمن العالم، وتتحمل تبعاته السياسية والاقتصادية؟ ولماذا الاهتمام الأمريكى بالخارج فى الوقت الذى تعانى فيه الولايات المتحدة داخليا مشكلات اقتصادية واجتماعية ضخمة وتواجه عجزا ماليا كبيرا، أى أنها تواجه خيارات لم تواجه مثلها من قبل فى المائة سنة الأخيرة من تاريخها؟

والسؤال الأهم المطروح بين الأكاديميين والسياسيين الأمريكيين هو: ما هى حدود علاقة الولايات المتحدة وبخارجها؟

تلك أسئلة تناقش باستفاضة على مستويات عديدة، وعلى عكس الحكمة التى سادت من قبل، والتى تقول إن الأمريكيين تنتهى خلافاتهم عند خط ملامسة اليابسة للبحر، بمعنى أنهم متفقون فى السياسة الخارجية، إلا أن الأمر انقلب الآن وصار الخلاف فى السياسة الخارجية أحد أوجه النقاش السياسى المستمر.

ففى مجلة «الشئون الخارجية» الأمريكية الرصينة، عدد يوليو/ أغسطس من هذا العام أثار آرثر شلزنجر الابن أستاذ الإنسانيات فى جامعة نيويورك الأسئلة القديمة عن المشاركة الأمريكية فى مشاكل العام أو الانعزال عنها تحت عنوان

(العودة إلى الرحم)، ففى الوقت الذى يؤكد فيه الكاتب أن الانعزالية الأمريكية مفهوم غامض فلم تكن الولايات المتحدة يوما منعزلة عن العالم فى الثقافة أو الاقتصاد، إلا أن معظم تاريخ الولايات المتحدة كان (انعزاليا) فيما يخص السياسة الخارجية، وكان ذلك جزءاً من توجيه الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، فجورج واشنطن نصح مواطنيه (بأن يبتعدوا عن التحالفات الدائمة)، كما أن توماس جيفرسون بدوره حذر سياسيى أمريكا من مغبة (التحالفات المربكة)، فقط هو التهديد المباشر (للأمن القومى الأمريكى) يمكن أن يبرر التورط فى حرب خارجية. تلك كانت توصيات السياسيين الأمريكيين السابقين للحرب العالمية الأولى.

إلا أن الحربين العالميتين الأولى والثانية قد غيرتا هذه المواقف المبدئية، وبدأت الولايات المتحدة تتدخل بالمشاركة المباشرة فى حروب الأوروبيين، وبعد الحرب العالمية الثانية اختلف المسرح السياسى وبدا أن الساسة الأمريكيين قد قبلوا إلى الأبد نقض توجيه الآباء بالانعزال، وجاء احتضان الولايات المتحدة لفكرة وأهمية مؤسسة الأمم المتحدة أولا، ثم اختار إعلانها فى سان فرانسيسكو وتحديد مقرها فى نيويورك ثانيا إشارة إلى التحول التدريجى ولكن الواضح فى اهتمام الولايات المتحدة النشط بشئون العالم الخارجى. وكما

أكد ونستون تشرشل (إن المؤسسة الدولية الجديدة «الأمم المتحدة» لن تتخوف من فرض خياراتها على مخططى وفاعلى الشر فى الوقت المناسب و«بقوة السلاح»).

اتجاهات أمريكية جديدة

ولقد مرت أكثر من أربعين عاما تعطل فيها دور الأمم المتحدة نسبيا بسبب الحرب الباردة، إلا أنها عادت فى التسعينيات من جديد لتأكيد دورها المفترض، باستخدام السلاح ضد الأشرار. إلا أن السؤال يبقى معلقا وهو: هل هذا الاستخدام الجماعى، الذى تقوده الولايات المتحدة هو سياسة دائمة أو هى مؤقتة لفترة وجيزة؟

لقد أصبحت الولايات المتحدة من خلال الأمم المتحدة عنصرا دائما وحاسما فى العلاقات الدولية الجديدة، إلا أن هذا الحماس بدأ يقل فى السنوات الأخيرة، فالديمقراطيون تحت إدارة الرئيس وليم (بل) جيفرسون كلينتون بدأوا بالمناداة علنا بأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تحل مشاكل العالم بنفسها ولابد من تعاون الأصدقاء، ولكن باضمحلال الاتحاد السوفييتى وتفككه فإن التعاون الدولى أيضا آخذ بالتفكك، وأخذت الأغلبية الجمهورية التى قدمت إلى المجلس التشريعى «الكونجرس» الأمريكى سنة ١٩٩٤ تدعوا إلى تقليص المساعدات الأمريكية للأمم المتحدة، بل والمساعدات

الأخرى الإنسانية والسياسية التى تقدمها الولايات المتحدة لدول عديدة فى العالم.

هذا التراجع فى الاهتمام والحماس للقضايا الدولية، وعدم الاستعداد للتضحية بالمال والأرواح للدفاع عن قضايا دولية خارج الحدود، أكدته استطلاعات الرأى المختلفة فى الأشهر القليلة الأخيرة فى الولايات المتحدة، فهنالك تراجع فى الرأى العام الأمريكى حول الاهتمام بحقوق الإنسان فى العالم، تراجع فى الاهتمام بالدفاع عن الدول الصغيرة، وظهرت مقولات مفادها أن: (الموت من أجل النظام الدولى عندما لا يكون هناك تهديد حقيقى للبلاد، قضية يصعب الدفاع عنها) هكذا ينهى آرثر شلزنجر مقاله مؤكدا أن الشعور العام فى الولايات المتحدة يتجه إلى الانكفاء والعودة إلى الرحم أى الأرض الأمريكية والاعتناء بشئون الداخل فقط.

على هذه الخلفية تبدو الانتخابات القادمة فى الولايات المتحدة مهمة، لا لأن الجمهورين أو الديمقراطيين يريد كل منهما أن يتوجه - فى الشئون الخارجية - توجها مخالفا للآخر، فما يحدث من خلافات جانبية حول السياسة الأمريكية هو تأكيد اقتسام السلطات التقليدى بين الرئيس والكونجرس، وتأكيد الاستقلال الذى يتمتع به طرفا الإدارة، ولكن هناك اتفاقا على تقليل التورط الخارجى، وشروط التورط

أو التدخل هى التى تحظى بنقاش حاد من السياسيين الآن على ضوئها سوف يحدد القادم إلى البيت الأبيض أيا من السياسات سوف ينفذها عندما يتسلم السلطة عام ١٩٩٦، وما هى خلفيات الرجال الذين سيقودون الإدارة فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وهل سيحبذون سياسة الانكفاء إلى الداخل والعناية بشئون البيت الأمريكى، أو أن هناك رابطا سوف يظل بين السياستين الداخلية والخارجية لأقوى دولة عالمية منفردة فى نهاية القرن العشرين؟

الجذريون الوسط

«مثيرون للشفقة، مزعجون، يثيرون الضحك» هذه بعض التعليقات التى تنشر لوجهات نظر أخذت من عينات الطبقة الوسطى الأمريكية ـ حسب إحدى الدراسات ـ يشيرون فيها إلى الطبقة السياسية الحاكمة وإلى عدم رضاهم عن مسيرة السياسة فى بلادهم.

ويقول دارس آخر: إن هذه الطبقة الأمريكية العريضة أكثر من أن تكون غاضبة، إنها فاقدة الأمل فى الإصلاح.

الإحباط العام هو الحقيقة المركزية الظاهرة لدى معظم الطبقة الوسطى الأمريكية، ولكن هذا الإحباط لم يظهر فجأة، فقد كانت بوادره تتراكم بانتظام منذ ربع قرن على الأقل، ويبدو أنها وصلت إلى مرحلة حرجة فى التسعينيات والرفض

لهذه السياسات عام وخارج إطار التحزب بين الحزبين الكبيرين، لذلك عندما قابل مقدم البرامج التليفزيونى البريطانى المشهور السير ديفيد فروست الجنرال كولن باول فى الأسبوع الأخير من سبتمبر الماضى قال الجنرال ردا على سؤال: هل تزمع أن ترشح نفسك عن الجمهوريين أو عن الديمقراطيين؟، أشار باول إلى أنه يشعر بأن هناك عدم رضا عاما لدى الناس فى أمريكا تجاه الحزبين كليهما. ويبدو أن هذا ليس رأى كولن باول وحده فى التعبير عن روح التغيير المطلوب فى الولايات المتحدة، ولعل إشارة روس بيرو الأخيرة إلى اعتزامه إنشاء حزب ثالث تصب فى هذا الاتجاه.

ولقد ظهرت من قبل صورة هذا الشعور السلبى والشعور بالإحباط تجاه السياسة العامة فى أمريكا عندما صوت الناخبون عام ١٩٩٢ ضد رئيس الجمهورية القائم وأخرجوه من البيت الأبيض، كما أنها ظهرت بعد ذلك بسنتين فقط عندما صوت الناخبون ضد الأغلبية الديمقراطية فى الكونجرس وجاءوا بأغلبية جمهورية سنة ١٩٩٤، ولقد خسر الكونجرس الجديد التعاطف الشعبى بأسرع مما خسره وليم (بل) كلينتون ١٩٩٣، وهكذا يقول مؤلف كتاب (الغضب السياسى الأمريكى) جوردن بلاك: «هناك أعداد كبيرة من المواطنين الأمريكيين مهشمون ومعزولون عن التأثير فى

الحياة السياسية، وإن السياسة الأمريكية مهيمن عليها من قبل مجموعة مصالح وهى (تباع وتشترى) دون أن يكون للناس العاديين تأثير فى ذلك». لذلك يجد بعض الأمريكيين أنفسهم يبحثون بجد ليعثروا على مرشح بديل ومرشح جديد ومرشح واعد، إنهم وكما قال أحد المعلقين: «لا يبحثون عن أيديولوجيا، بل يبحثون عن بطل». ويبدو أن عددا من وسائل إعلامهم قد وجد هذا البطل فى صورة كولن باول الجنرال والمحارب والسياسي والأسود أيضا أو على الأقل ليس بأبيض، ولأنه بطل خاض حربا وانتصر فيها ولأنه رجل يمثل الوسط، فقد يكون بطل أمريكا الجديد بطلا مختلفا فى الشكل وفى المحتوى.

طريق المحارب

فى كتاب الجنرال كولن باول «طريق المحارب» كما أسماه فى طبعته الأوروبية، أو «رحلتى الأمريكية» كما نشر فى الولايات المتحدة، هناك شيء من التقدير لكل المجموعات العرقية والدينية والسياسية الأمريكية، وهناك شيء أيضا للمواطن الأمريكى العادى، فهو ابن لأب وأم مهاجرين من جامايكا - المستعمرة البريطانية - التى دفعت بمواطنين كثيرين للهجرة إما إلى الولايات المتحدة أو بريطانيا، ولقد ظهر أخيرا ابن عم لباول يعمل سائق باص عام فى لندن.

كولن باول نفسه عاش صباه فى حى هارلم، حى السود المشهور فى نيويورك، متوسط هو فى كل شىء كما هو متوسط فى الدراسة، ويصف رحلته الأمريكية من ذلك المنشأ المتواضع فى الحى الفقير إلى أن يصبح على قمة الهرم العسكرى الأمريكى، ويصف هذه الرحلة بأنها لا يمكن أن تتحقق إلا فى الولايات المتحدة، المجتمع المفتوح الذى يقبل أن يصعد إلى قمته السياسية أو العسكرية أو الرياضية أو الفنية من لديهم القدرة والرغبة فى بذل الجهد المتواصل للوصول.

فى الكتاب صراحة متناهية ووضوح كامل، فحديث باول عن شبابه وعلاقته تجد فيه رنة الصدق وحتى عبث الشباب ليس العبث الضار والمنفر، فهو يقول أنه لم يتناول مخدرا سواء من الحشيش أو الأفيون أو أى من المخدرات المختلفة - برغم انتشارها النسبى فى بيئته - ليس تعففا ولكن خوفا من غضب العائلة. ونجده فخورا بوالده الذى كافح كى يصير فى النهاية كاتبا فى إحدى شركات الملاحة البحرية، ووالدته التى قضت حياتها فى العناية بأسرتها المكونة من أخته الكبرى - التى تزوجت رجلا أبيض كان زميلها فى الجامعة - ومنه.

للأسود فى أمريكا عند نشأته طريقان: أحدهما الامتياز الرياضى أو الالتحاق بمؤسسات الانضباط (الجيش أو الشرطة)، والطريق الآخر هو الشوارع الخلفية. أما التجارة

والأعمال الحرة والصناعة فقد كانت بعيدة عن متناول معظم الأمريكان من أصول غير أوروبية، ويقول باول: «فى صباى لا أتذكر أن أسود أصبح رجل أعمال ولكن الأمور اختلفت» وكى يدلل كولن باول على هذا الاختلاف يسرد قدرة عائلته الكبيرة على شق طريقها فى هذا المجتمع الكبير والمعقد، فيشير إلى بعض أقربائه الذين أصبح منهم بعد ذلك مهندسون وقضاة ومعلمون ومحامون وسفراء، بل إن أول امرأة تعين فى الولايات المتحدة مساعدة لوزير الخارجية كانت من أقربائه.

أفضل ما فى كتاب كولن باول - ويبدو أنها المرحلة التاريخية الأكثر فخرا له - هو القسم الرابع الذى يصف فيه عمله مستشارا للأمن القومى ثم رئيسا للأركان بما فيه الاستعداد الحرب تحرير الكويت من الاحتلال العراقى ثم خوضها، ففى هذا الفصل يأتى باول بالتفصيل على ظروف وملابسات الاستعداد الأمريكى لتحرير الكويت، والمداخلات السياسية الدولية والمحلية الأمريكية، وصعوبات تجهيز الجيوش وخلافات اجتهادات المسئولين. فى هذا السرد التاريخى والشخصى الشائق نتعرف آلية اتخاذ القرار فى الولايات المتحدة، وهى آلية معقدة بها مداخلات عديدة منها الرأى العام المحلى ورغبات وآراء السياسيين فى المجالس المنتخبة وكذلك آراء الفنيين والعسكريين، كما نتعرف

شخصية كولن باول الحاسمة والثرية أيضا، فهو ينهى هذا القسم بما سماه مبادىء كولن باول الثلاثة عشر وهى كما ترجمتها بتصرف:

١ - الوضع ليس بالسوء الذى تتصوره، سيكون الحال أفضل فى الصباح.

٢ - اغضب ثم تجاوز غضبك.

٣ - أبعد ذاتك عن موقعك حتى إذا ما فقدت موقعك لا تفقد ذاتك معه.

٤ - لا يوجد شيء لا يمكن فعله.

٥ - كن دقيقا فيما تختاره، ربما تحصل عليه.

٦ - لا تترك حقائق عدوك تقف فى طريق اتخاذك للقرار الصحيح.

٧ - لا تختر للآخرين ولا تجعل الآخرين يختارون لك.

٨ - دقق فى الأشياء الصغيرة.

٩ - شارك الآخرين فى الإيجابيات التى حققتها.

١٠ - ابق هادئا وكن لطيفا.

١١ - ليكن لك تصور وخيال.

١٢ - لا تركن لتثبيط مخاوفك أو سلبياتك.

١٣ - قم بإشاعة التفاؤل، إنه قوة تتضاعف.

ذاك ملخص أو ربما إشارة لمدرسة كولن باول فى الحياة.

والكتاب كما كتب عنه العديد من المعلقين هو (مانفيستو) أو جدول أعمال لطامح فى الرئاسة. وفى استطلاعات الرأى التى بدأت تظهر فى وسائل الإعلام الأمريكية هناك ترجيح واسع يتعدى نصف المستجوبين يفضلون ترشيح الجنرال كولن باول للرئاسة القادمة، إلى درجة أن أحد المعلقين كتب يقول: «لقد أصيبت أمريكا بعمى الألوان!!» فى إشارة واضحة إلى أنها لم تعد تفرق بين أبيض وأسود لرئاسة الجمهورية القادمة. لقد كانت الصفوف الطويلة التى انتظرت أمام المكتبات لشراء كتاب باول فى المدن الأمريكية السبع والعشرين التى زارها وحظى كل من اشترى نسخة بتوقيعه الشخصى دليلا آخر على أن (حمى باول) - حسب وصف الصحف - قد بدأت.

وتساءلت مجلة «نيوزويك»: «هل هذه التظاهرة هى لترويج كتاب أم حملة رئاسية؟».

نعم.. ولكن!

يبدو أن عدم الرضا العام لدى الرأى العام الأمريكى هو السبب فى ظهور هذه النزعة، كما يبدو أن أمانى إصلاح المسار السياسى قد يحققها هذا المتحدث الدمث وصاحب العلاقات الواسعة، وحتى يفعل ذلك فإن أمامه مجموعة من الخيارات، فإن هو تقدم للترشيح مستقلا أثر كثيرا فى حظ

الجمهوريين فى الرئاسة وربما زاد من فرص المرشح الديمقراطى وليم «بل» كلينتون، كما فعل «روس بيرو» فى انتخابات ١٩٩٢ عندما نافس الحزبين فى ترشيحهما وأثر بذلك فى كثير من الأصوات التى كان يمكن أن يحصل عليها جورج بوش. والخيار الثانى أن يترشح عن الحزب الجمهورى - وهو يميل إليه - ولكن القاعدة السوداء فى الولايات المتحدة معظمها يصوت تقليديا للديمقراطيين حيث برامجهم أكثر ليبرالية .

وبمناسبة الحديث عن اللون، يشير كولن باول إلى لمحة تسفر عن تعامله الخالى من أية تعقيدات فى هذا الشأن، كما يشير إلى تحفظاته على جنون الحروب من واقع خبرته العسكرية، ففى حديثه عن خبرته فى حرب فيتنام التى وصلها سنة ١٩٦٣ مستشارا للجيش فى الجنوب نرى عدم الرضا السياسى عن الحرب، فهو يكتب أن الحرب تخاض لتحقيق أهداف واضحة، وليس المهم أن تدخل الحرب، بل المهم أن تعرف أيضا كيف تخرج منها. هذه الخبرة التى شهد فيها كولن باول خلافات السياسيين وعدم تحديد الأهداف والتعرض اليومى للموت أكسبته مناعة لردود الأفعال السريعة، ويكمل: «ولأول مرة لعب لونى دورا إيجابيا» وفى طرافة يقول: «إنه قد لبس نفس ملابس الجنود الفيتناميين

الجنوبيين وحمل نفس معداتهم، فلم يكن جنود «الفيتكونج» يستطيعون أن يفرقوا بينه وبين الجنود العاديين». فهل يحصل كولن إذا ما ترشح عن الحزب الجمهورى على الحسنيين! أصوات الملونين من الحزب الديمقراطى السود والإسبان والقاعدة العريضة من المحافظين الجمهوريين الذين يرغبون فى وجه جديد وسياسات جديدة؟

قد يكون ذلك أحد حسابات الجنرال السياسية.

فى الداخل سياسات كولن باول المعلنة - حتى الآن - تأخذ طابع التوسط، فهو مع الحرية الفردية فى الإجهاض بعد موافقة العائلة وليس مع تقنينه. وهو مع حرية الصلاة فى المدارس - كما تقرر المدرسة - وليس مع تقنينها أيضا كى تشمل كل المدارس. وهو مع حق المواطن فى أن يحصل على سلاح، ولكن مع فترة انتظار وتسجيل للسلاح فى سجلات تحفظ لدى القائمين على الأمن. هذه بعض الوسطية فى طرحه للمشكلات الداخلية، وهى وسطية تغرى قطاعا واسعا من الأمريكيين بالتصويت له، فلا ضرر ولا ضرار.

ولكن ماذا عن السياسة الخارجية؟ هنا نجد إشارات واضحة فى الكتاب الذى نشره الجنرال، فهو يشير إلى جولاته العديدة فى العالم وذهابه إلى مسقط رأسه جامايكا وزيارته لدول عديدة وتفهمه لمشكلاتها وطموحاتها «لدينا نحن

الأمريكان السود من جامايكا ومن إفريقيا شيء مشترك» يقول في كتابه: «فأجدادنا جاءوا من أفريقيا ولكن الفرق أن السود جاءوا إلى أمريكا مكبلين بالسلاسل، ولكن أهلي جاءوا من جامايكا بإرادتهم فوطني الأمريكي هو إرادة لا فرض ولا عبودية» كما يقول: «لم نكن نعرف في حياتنا التفرقة العنصرية فقد كان هناك يهود وبورتريكيون وطليان،أعراق متعددة تعودنا قبول بعضنا البعض الآخر». وفي مكان آخر يقول: «إنه كان يعمل في «السنياجوج» «بيت العبادة الإسرائيلي» مساء الجمعة فكان يطفيء الأنوار ويضيئها إعلانا بصيام السبت اليهودي، وكان يأخذ عن عمله ذاك وهو صبي ربع دولار في الأسبوع».

بل عندما ذهب إلى إسرائيل وهو جنرال بعد ذلك أشيع أنه تحدث إلى قادتها بلغة «اليادش» على أساس أن له إلماما بها منذ تعلمها في ذلك الحي الفقير في نيويورك.

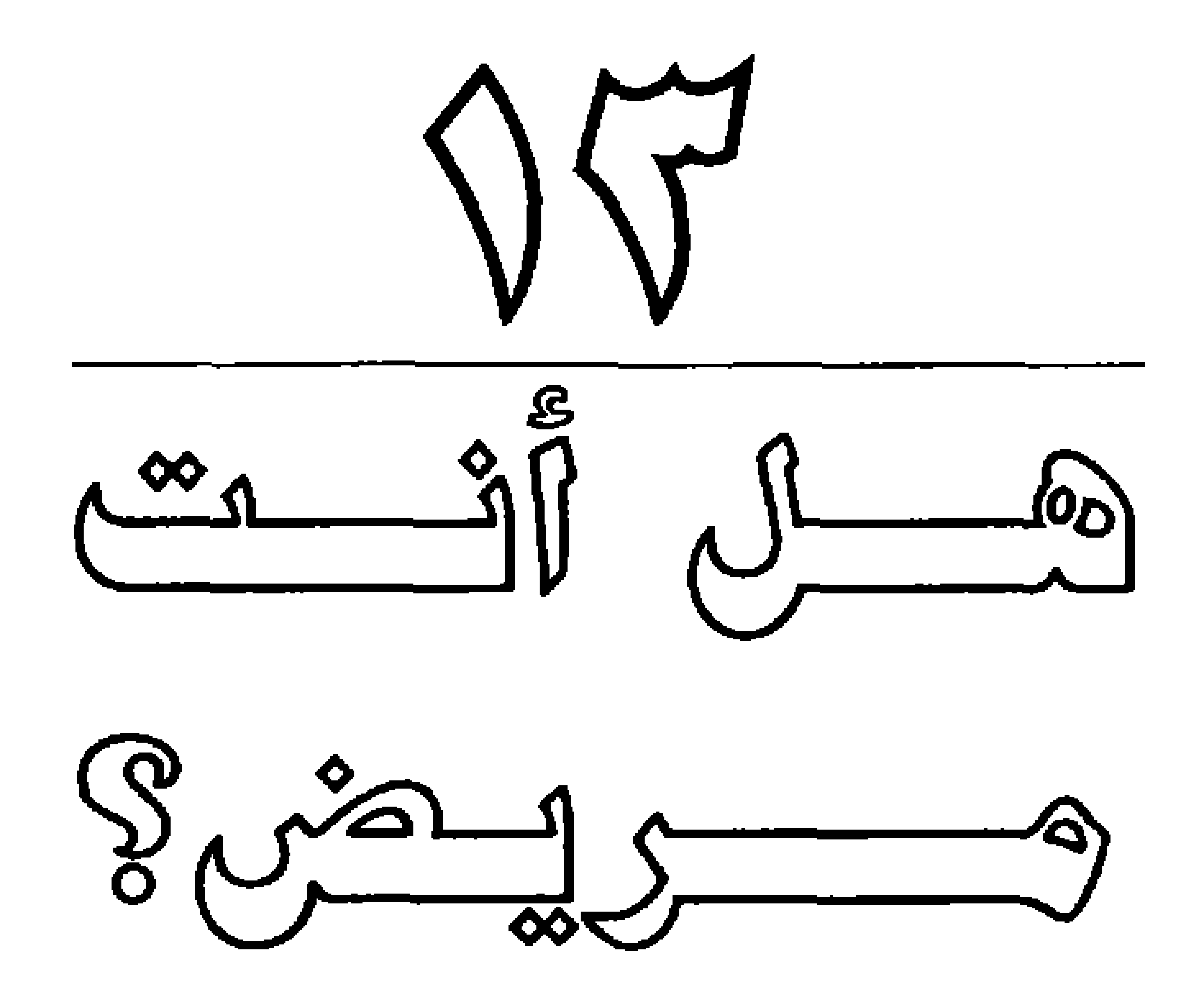
وعلى نطاق أوسع يشرح كولن باول في فصل خاص خبرته في الشئون الدولية عندما اختير كأول رجل عسكري أمريكي في الخدمة يعمل مستشارا للرئيس رونالد ريجان لشئون الأمن القومي وما أثاره ذلك الاختيار من اعتراضات، فقد كسر التقليد الأمريكي الذي يؤكد سيطرة المدنيين على المؤسسة العسكرية وليس العكس ومع ذلك وبرغم

الاعتراضات فقد نجح فى موقعه ذاك.

وفى هذا الموقع شهد كولن باول تطور العلاقات الأمريكية السوفييتية وقتها وخبر شئون أمريكيا اللاتينية ومفاوضات بيع السلاح للحكومات الصديقة، بل وحتى موضوعات الأمن القومى فى خطب الرئيس، كان على باول أن يوافقه على مسوادتها قبل أن تعتمد نهائيا. وفى نهاية ولاية رونالد ريجان وصلت إلى نائب الرئيس وقتها جورج بوش رسالة من عضو فى مجلس الشيوخ عن الاسكا «تد ستيفن» يقول فيها مخاطبا جورج بوش: «أنا شديد الإعجاب بالجنرال كولن باول واقتراحى أن تضع اسمه فى القائمة المختصرة لاختيارك نائب الرئيس عندما ترشح للرئاسة».

هذه الإشارة الواضحة والدقيقة التى ضمنها الجنرال فى كتابه لا تحتاج إلى تفسير لطموحات الرجل إلى المنصب الأول، كما أن الجماعات التى بدأت تتكون للدعوة لترشيحه قد انتشرت فى العديد من المدن الأمريكية.

فهل تدخل الولايات المتحدة عصرا جديدا وتاريخا جديدا عندما تُمكّن الجنرال كولن باول من المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض؟. لننتظر ونر.


١٣
هل أنت مريض؟

عندما شدني غـلاف هـذا الكـتاب «أعراض الأمراض» وهو معروض في واجهة إحدى المكتبات قال لى صـاحبى: لن أدخل معك هذه المرة، ألا تكتفى من شراء الكتب؟ ولم أسمع كلامه، فقد كان موضوع الكتاب مشوقا. وعندما انتهيت من قراءته، وقلت لصاحبى ملخصه علق: لابد أن يعرف عنه أكبر عدد من الناس. وهأنذا أحقق مشيئة صاحبى.

هذا الكتب لابد أن يقرأه كل قادر على القراءة، وأتمنى أن يترجم كاملا، كى يجد مكانه فى كل بيت، ولدى كل أسرة، فهو كتاب يصف لك أعراض الأمراض بأسلوب علمى واقعى، إنه كتاب تثقيفى فى هذا الشأن بكل ما تعنيه كلمة تثقيف من معنى.

قد يستيقظ أحد الناس من نومه فى صبيحة أحد الأيام، ليكتشف أن هناك ورما - لاسمح الله - فى أحد أجزاء جسده، لم يشعر به من قبل، أو أنه يعانى من ألم لم يعهده، أو من طفح جلدى. وتتسارع الأسئلة إلى ذهنه لحوحة متدفقة: هل أنا مريض؟ وإن كنت كذلك فهل مرضى خطير؟ وهل علاج مرضى ممكن؟

أثمن ما يُقتنى

هذا الكتاب يعطى القارىء إجابات ناجعة عن هذه الأسئلة وأمثالها، بل ويدله على ما يجب عليه عمله، إنه كتاب يتسم

بالعمق والشمولية فى موضوعه، بل يمكن القول بأنه أثمن ما يمكن للمرء العادى أن يقتنيه من المراجع الطبية.

مؤلف الكتاب هو الدكتور إيزادور روزنفيلد، وله مؤلفات طبية عديدة، وتعد كتبه فى هذا المجال أكثر الكتب بيعا وانتشارا. وقد أهله عمله فترة طويلة معلقاً طبياً على الأسئلة التى ترد إلى إحدى شبكات التلفاز الأمريكى، أهله لأن يتعرف على أعراض الأمراض الشائعة.

لذلك فالكتاب يكاد يشمل معظم ما يمكن أن يعانيه الإنسان من أوجاع وآلام وقلق، وهو يختلف عن الكتب الأخرى التى ألفت فى المجال نفسه، فى أنه يقدم للقارىء شرحاً مستفيضاً وافياً للأعراض التى قد يشعر بها ودلالاتها، ولا يبخل عليه بالنصيحة لما يجب عمله فى كل حالة من الحالات التى يشكو منها. لا شىء يفوق هذا الكتاب فى شموله لكل أعراض الأمراض إلا وجود طبيب يلازمك طوال الوقت. أسلوب الكتاب سهل وممتع أيضا، وفيه قدر من السلاسة، فأعراض الأمراض - فى رأى المؤلف - ما هى إلا إشارات تنبيه وتحذير. يقدم الكتاب عرضاً قيماً يفسر فيه قابلية بعض الأشخاص - دون غيرهم - للإصابة بأمراض معينة، ويقدم معلومات قيمة لمثل هؤلاء، للتقليل من احتمال إصابتهم بها.

قد يذهب المرء إلى فراشه وهو فى أتم صحة وعافية، وما أن

تبزغ الشمس ويستيقظ من نومه حتى يكتشف أنه فى أشد حالات المرض: غثيان يرافقه إسهال وحمى ومغص شديد، وقد يتبادر إلى ذهنه ـ كما يقول المؤلف ـ أن سبب هذا الانحراف الصحى ربما يعود إلى طعام تناوله فى الليلة الماضية، أو إلى «فيروس» أنفلونزا عابر، يستقر فى المعدة مدة أربع وعشرين ساعة، ثم يختفى.

ويصبر حتى صبيحة اليوم التالى، ويشعر بأن الإسهال قد توقف، إلا أن الحرارة مازالت عند مائة درجة فهرنهايتيه، وتعاف نفسه الطعام، كما يضيق ذرعاً بالمغص المستمر، ويدرك أنها ليست أنفلونزا عابرة.

وفجأة يخطر بباله ما حدث لزميله فى المكتب الذى داهمته الأعراض التى يشكو منها الآن، وكان هو أيضا يعتقد أنها أعراض أنفلونزا عابرة، فلم يراجع الطبيب، وعندما راجع الطبيب حوله رأسا إلى حجرة العمليات، وكانت زائدته الدودية على وشك الانفجار.

وينصرف تفكيره إلى احتمال إصابته بالزائدة، وتنتابه الحيرة. فماذا هو فاعل؟

وإذا كان العارض سُعالاً جافاً مفاجئاً، وكان الشاكى من المدخنين، ورافق السعال ألم متواصل فى الصدر، وكان تاريخ أسرته يفيد أن والده قد مات بأزمة قلبية، فعليه أن يهرع إلى

أقرب عيادة للحوادث، لتلقى الإسعافات الضرورية فى الوقت المناسب.

وقد يظل الإنسان فى شك من كونه معرضا للخطر أو غير معرض، ومن أن الآلام التى تنتابه سوف تنجلى بعد فترة دون علاج، أو أن مراجعته للطبيب أمر لابد منه، وهل يفعل ذلك فورا أو يؤجله إلى الغد؟ وإذا قرر التأجيل فهل فى ذلك خطورة؟ إلى آخر الأسئلة المشابهة. وتردده هذا يعنى سبباً واحداً، هو عدم معرفته لدلالة الأعراض، أو عدم تمكنه من حصر الأعراض ووصفها وصفاً صحيحاً. الأمر الذى يثير سخط الطبيب الذى يحاول الكشف عن حقيقة ما يعانيه المريض من آلام.

الكشف عن المرض ليس بالأمر الهين، خاصة عندما تكون إجابات المريض عن أسئلة الطبيب مرتجلة سريعة، وعندما تأتى الإجابة عن الأسئلة قبل أن يستوعب المريض معناها.

يقول المؤلف: إنه قام بإجراء تجارب عديدة على مرضاه بهذا الصدد، فكانت إجاباتهم تأتى مرتجلة، دون أن يكلفوا أنفسهم تحمل مسئولية المعنى المقصود من الكلمات التى ينطقون بها.

حقيقة المرض

يقول: كنت أسأل مرضاى: هل تشعرون بنوع من

(الجريبلنج)؟ وهذه الكلمة ليس لها معنى طبى. وقد تعددت إجابات المرضى.

أحدهما قال: إنك طبيب رائع، لقد راجعت عدة أطباء فى السنوات الأخيرة، فلم يعرفوا سبب مرضى، نعم إنه (الجريبلنج).

ملحوظة: المريض يعانى من عدم تحمله الحليب ومشتقاته.

المريض الثانى قال: نعم، كنت أعانى من (الجريبلنج)، وهو سلس البول، ولكننى شفيت منه.

وقالت مريضة ثالثة: زوجى عنده (جريبلنج)، ولكننى لا أعانى منه.

وهكذا تعددت الإجابات واختلفت، دون أن يكون للكلمة بحد ذاتها أى معنى. طبيبك يستخدم ثلاثة أساليب أساسية لاكتشاف حقيقة مرضك فى مقابلتك الأولى: عن طريق الحديث . فهو يترك لك المجال لبث شكواك، ويوجه إليك الأسئلة المناسبة، ويتلقى إجاباتك عنها.

والأسلوب الثانى عن طريق الفحص السريرى، ليتحسس موضع الألم، ويضغط عليه، ويستخدم حاستى النظر واللمس، وأحيانا يقوم بالضرب على موضع الألم.

والأسلوب الثالث عن طريق الفحوص الطبية، بدءا بأخذ درجة الحرارة، وانتهاء بأكثر الفحوص الطبية تعقيدا.

وفى رأى مؤلف الكتاب أن الخطوة الأولى - الحديث بين المريض وطبيبه - هى الأهم، ففى تسع من كل عشر حالات يكفى أن يعطى المريض وصفا دقيقا للأعراض التى يشكو منها، ليستدل الطبيب على المرض، ويصل إلى التشخيص الصحيح، حتى قبل أن تأتى نتائج الفحوص الطبية وتحيلات المختبر.

ولو كان بإمكان كل طبيب أن يخصص الوقت الكافى لكل مريض، ليسجل تاريخ المرض كاملا، لاختفت مشكلة التشخيص، ولكن الوقت الضيق الذى يقضيه الطبيب مع المريض، فى خضم الحياة البالغة التسارع، لا يترك للطبيب فرصة للوصول إلى التشخيص السليم، فيحيل مريضه إلى اختصاصى، ومن اختصاصى إلى آخر، ويتنقل المريض بين آلة حديثة وأخرى، قبل أن يصل إلى التشخيص الصحيح.

وهى إجراءات تستنزف كثيرا من الوقت والمال والراحة التى يحتاجها المريض، وفوق ذلك كله قد تعوق المباشرة بالعلاج الذى قد يتطلب السرعة.

من هنا تتضح أهمية أن يعطى المريض للطبيب معلومات موثوقة دقيقة، تدله على الطريق الصحيح الذى يجب أن يسلكه فى التشخيص ووصف العلاج، مهما كانت هذه المعلومات صغيرة وغير مهمة فالمريض هو الشخص الوحيد

المؤهل لإرشاد الطبيب إلى حقيقة مرضه.

يقدم الكتاب إرشادات للشخص العادى فى كيفية وصف الأعراض التى يشعر بها لطبيبه، وكيف يتصرف عندما يتحقق منها، ومدى السرعة المطلوبة للتحرك.

الآلام

هل يتصور أحد من الناس كيف يمكن أن تكون حياته لو أن قوة خارقة فى الطبيعة تدخلت فى تركيب جسده، فحرمته من الإحساس بالألم؟

قد يتخيل بعض الناس أن مثل هذه الحياة الخالية من الألم، ستكون حياة سعيدة، ولكن العكس هو الصحيح، فالألم على الرغم من مساوئه، هو الإنذار المبكر الذى ترسله لنا الطبيعة لتنبهنا إلى خطر وشيك الوقوع، فحالما يتلمس الدماغ وقوع خلل ما، فى أى جزء من أجزاء الجسد، يرسل إنذار الألم الذى يستمر فى عمله حتى يزول الخلل، ويشفى المريض، فما الذى يحدث لو أن الجسد لم يتلق ذاك الإنذار؟ تخيل لو أنك وقعت من مكان عال وكسرت ساقك، دون أن تشعر بألم، أو أنك أصبت بمرض فى القلب دون أن تشعر بألم، وظللت تتابع عملك الشاق المرهق، وتصور لو أن زائدتك الدودية التهبت، ثم انفجرت، دون أن تشعر بألم، حتى تسارع بإجراء العملية الضرورية.

خطورة المرض ـ كما يقول المؤلف ـ ليست مرتبطة بشدة الألم أو ضعفه، فهناك دلائل أخرى تنبئنا عن خطورة المرض، منها: كيفية شعورنا بالألم، هل الألم حاد مستمر، أو مفاجئ متقطع، أو شعور بالحرقان، أو ألم قليل؟ ومتى نحس بالألم؟

أما مكان الشعور بالألم فقد يكون له دلالة مفيدة، وقد يكون مضللا، إذ إن شبكة الأعصاب المتداخلة، بعضها ببعض قد تنقل مكان الشعور بالألم إلى عضو آخر فى الجسم غير مصاب، ولكن كل هذه الأمور تساعد على تحديد سبب الألم ومدى أهميته، والطريقة التى يجب أن نتبعها فى علاجه.

ثم يعرض الكاتب مجموعة من أعراض الأمراض ودلالاتها، وطريقة التعامل معها، منها أن الشعور بالإجهاد والإرهاق يقتضى اللجوء إلى الراحة والاعتدال فى العمل، كما أن التلوثات والعدوى الفيروسية أو البكتيرية غالبا ما تزول وحدها دون اللجود إلى أى علاج، أما الشقيقة ـ ألم الرأس المزمن ـ فعليك أن تتبع معها أفضل حمية غذائية يمكن أن يصفها لك طبيب، أما ارتفاع ضغط الدم، فإن السيطرة عليه تعتمد على إنقاص الوزن واتباع حمية غذائية. وكذلك يتناول الكتاب أعراض أمراض العين ودلالاتها وطريقة التعامل معها، والأذن واللسان،والرقبة والظهر، والكتف والساق والقدم، فى قائمة طويلة، مقسمة بين الأعراض ودلالاتها وبين طريقة

التعامل معها. ومنها مثلا: إن كانت هناك نعومة مفرطة فى اللسان فإن ذلك ناتج عن سوء تغذية، وإن اختلف لونه فإن ذلك إما نتيجة إصابته باليرقان أو بفقر الدم أو بنقص الأوكسجين.

قائمة طويلة

ولا يمكن سرد تلك القائمة الطويلة، لذا أكتفى هنا بضرب بعض الأمثلة، فبعض الأعراض التى يشعر المريض فيها بضيق أو ألم فى الصدر، قد تكون دليلا على احتمال وجود أزمة قلبية، وقد تأتى الأزمة القلبية دون ألم، بل إثر مجرد شعور بالضيق والثقل. هنا يجب أن نهرع إلى أقرب مركز للعناية الصحية، وإن كانت الظنون فى غير محلها فلن نخسر شيئا، وإن صدقت أنقذنا حياتنا بتصرفنا السريع.

هناك آلام صدر ناتجة عن غير الأزمات القلبية، فإن لم تكن العلة فى القلب، فقد تكون علة فى الرئتين، أو فتقاً فى الحجاب الحاجز تصعد معه المعدة إلى الصدر، مما يجعل المصاب يشعر بالحرقان، أو علة فى القفص الصدرى، أو أعصاب الرئة الخارجة من مجمع الأعصاب المجاور للعمود الفقرى، وقد يخطىء بعض الناس فى كل ذلك ويظنون أنها أزمة قلبية.

ومما يدهش أن أمراض القلب هى القاتل رقم واحد فى

سلسلة الأمراض المميتة، ولا يعرف كثيرون أعراضها الحقيقية، ولا يستطيعون التمييز بين أعراضها وبين أعراض بعض الأمراض الأخرى، فهناك نسبة لا يستهان بها من الناس يعتقدون أن الأزمة القلبية تكون دوما مصحوبة بألم حاد، أو وخز شديد، وأن المصاب بها يشعر بهذا الألم دوما فى الجانب الأيسر من صدره . ولكن الحقيقة، كما يقول المؤلف، هى أن الأزمة القلبية تكون دوما مصحوبة بضغط على الصدر، وهذا الضغط يشعر به المصاب فى منتصف الصدر، خلف ملتقى الأضلاع، ومن هناك يتشعب إلى أى من الكتفين أو الذراعين أو حتى الكفين، وغالبا ما يتجه إلى الذراع اليسرى، وإن كان ذلك ليس قاعدة ثابتة، وقد يصل الألم إلى الفك أو إلى الأذنين، فإذا كان الانسداد الشريانى تاماً ظل الضغط موجودا حتى عندما يتوقف المصاب عن القيام بأى عمل، وأصبح لون المريض شاحبا، وشعر بالضيق والتهالك، وتصبب العرق البارد من جسده، وغمره شعور بالخوف والرهبة، وقد يرافق ذلك كله سعال وسرعة فى نبض القلب، وشعور بالدوار والدوخة. هذا وصف شبه تام للأزمة القلبية العادية، ولكن قد يكون هناك اختلاف فى بعض التفاصيل بين مريض وآخر، اعتمادا على وجود اختلاف فى القدرة على تحمل الألم بين إنسان وآخر، ووجود اختلاف فى مكان

الانسداد الحادث فى هذا المكان أو ذاك من شرايين القلب.

وقد تكون بعض الأزمات القلبية صامته، أى غير مصحوبة بأى شعور غير عادى بألم أو ضغط، ولا يعرف المصاب بإصابته، وفى هذه الحالة قد يتعايش المريض مع المرض دون علاج، ويظل على قيد الحياة، أو يسقط ميتا فى أى لحظة.

ويصف الكاتب بعد ذلك أشكالا عديدة من أمراض الصدر كالخناق الصدرى، والتهاب شغاف القلب، (الغشاء المحيط بالقلب) أو قد يكون الألم الصدرى نتيجة علة فى الرئتين.

كما يعرض أيضا لأشكال الإصابات التى تعرض الإنسان للأزمة القلبية، مثل الالتهابات الوريدية فى الساق.

ويعرض الكاتب لآلام المعدة، وعلى الشاكلة الأولى، فهو يصف عرض المرض ودلالاته، وكيفية التعامل معه، ويقسم آلام البطن على أربع مناطق هى: الربع العلوى الأيمن والأيسر، ثم الربع السفلى الأيمن والأيسر، ويعنى وجود الألم فى كل منطقة من البطن بهذا القسم معنى خاصا لأمراض محددة. كما أن آلام الخاصرة لها دلالات وطرق للتعامل معها، وكذلك آلام المستقيم والشرج والخصية والقضيب، وكذلك آلام البطن لدى الأنثى.

النزيف الدموى

يخصص الكاتب فى الفصل الثالث من كتابه صفحات

كثيرة لموضوع الدم ، وهو- كما يقول - يجب أن يبقى داخل الجسم (لا يرى ولا يسمع) ومنظر الدم، خاصة رؤية الإنسان لدمه، كثيرا ما يبعث الرعب فى القلب ، فلقد جعل الخالق - جلت قدرته- نوعاً من التوازن بين قدرة الدم على التجلط عن تعرض الجسم لجرح تنزف منه الدماء بحيث لا يظل الدم يسيل حتى ينفد - وبين قدرة الدم على البقاء سائلاً حتى يظل جارياً فى الأوردة والشرايين . هذا التوازن المعقد إذا أصابه نوع من الخلل قد يكوِّن فى حالة ما جلطة تسد أحد الأوعية االدموية فتودى بحياة الإنسان إذا مال الميزان نحو التجلط . وقد تؤدى فى حالة أخرى إلى نزيف مستمر ، يفقد الإنسان به كل دمه ،وحياته أيضا، إذا مال الميزان نحو زيادة السيولة .

فكيف يتعرض مثل هذا التوازن للخلل؟ ومتى ؟ يتطرق المؤلف فى ذلك إلى بعض الحالات ومنها : أن بعض الأدوية تؤثر على نخاع العظام ، حيث يصنع الدم ،أو على الكبد حيث تفرز المواد الكميائية التى تعطى الدم خاصية التجلط، وهى بالتالى أى تلك الأدوية تؤثر على مكونات الدم نفسه وخصائصه . وهى بالتالى أى تلك الأدويه - تؤثر على مكونات الدم نفسه وخصائصه . ومنها أيضا أن بعض الحالات التحسسية تجعل الأوعية الدموية ضعيفة رقيقة بحيث

تسمح للدم بالنفاذ منها ، ومنها أن بعض الأمراض الخبيثة تؤثر على جدران الأوعية الدموية ، فتسمح للدم بالنفاذ منها ، فسرطان الأمعاء مثلا يؤدى إلى ظهور الدم فى البراز؛ إذ قد يصيب السرطان شرياناً أو وريداً فى أثناء نموه يفقده القدرة على الاحتفاظ بالدم فيسيل منه ليختلط بالبراز، وهو دم قد لا تراه العين المجردة ،ولكنه يظهر فى الفحص المجهرى .

كما أن ارتفاع ضغط الدم الذى مضى عليه سنوات عند المريض دون أن يعالج بطريقة سليمة ،أو أهمل علاجه ، يؤثر على جدران الشرايين الدقيقة ، وبخاصة تلك الموجودة فى الدماغ أو فى العينين أو الجوف ، وهناك – يقول المؤلف – قواعد أساسية لابد من معرفتها لتحديد نوع النزيف ومصدره إذا ظهر الدم فى أحد مفرزات الجسم ..

ثم يضع لنا الكاتب قوائم فى أعراض النزيف الدموى ودلالاته ، وكيفية التعامل معها ، مقسمة إلى نزيف من الجلد ، أو الأنف أو الأذن أو اللثة ، أو التقيؤ ،أو البصاق المدمى ، أو دماء فى البول أو السائل المنوى أو المهبل..

عندما تصاب بالحمى

الحرارة الطبيعية عند الشخص الصحيح السليم تتراوح ما بين ٩٧,٥ إلى ٩٩ درجة فهرنهايتية ، وتكون فى حدودها الدنيا فى ساعات الصباح الأولى ،وتبلغ أقصاها بين

السادسة والعاشرة مساء ،ولكن إذا استمرت درجة حرارة الإنسان فوق (٩٩)فهرنهايتية أو ٣٧,٢ سنتجريدية ، مدة تزيد على يوم أو يومين دون أن تنزل أبداً إلى ٩٧,٥ ،فمن المؤكد أن حرارة الإنسان غير طبيعية ، وأنه مصاب بالحمى ، أماإذا كان هذا الشخص يعيش فى بلد شديد الحرارة ،وارتفعت درجة حرارته إلى ما فوق ٩٩ بقليل ، فعليه الحلوس فى مكان مكيف فترة كافية ، فإذا ما قلت درجة الحرارة ، وعادت إلى طبيعتها ، فمعنى ذلك أن الشخص غير مصاب بالحمى ، بل الارتفاع الضئيل فى درجة الحرارة ناتج عن التأثر بالجو . وارتفاع درجة الحرارة قليلا بعد حمام ساخن ،أو فى أثناء القيام بعمل شاق ما هو إلا أمر طبيعى ، وليس دليلا مرضيا ، كما أن ارتفاع درجة حرارة الأنثى الطفيف بعد يوم أويومين من خروج البويضة أمر طبيعى .

وهناك أمران آخران : فتجرعك شرابا ساخنا قد يرفع درجة الحرارة فمك . وتناولك شرابا باردا أو قطعة من الآيس كريم قد يخفى ارتفاعا حقيقيا فى درجة حرارة جسمك . كما أن هناك حقيقتين علميتين : أولاهما : أن درجة الحرارة التى تؤخذ من الشرج تكون أعلى من الدرجة التى تؤخذ من الفم بدرجة واحدة فهرنهايتيه .وثانيتهما : أن درجة الحرارة التى تؤخذ من الإبط أدنى من السابقة بدرجة واحدة فهرنهايتية .

ولكن ماذا عليك أن تفعل عندما تتأكد أنك مصاب بالحمى ؟
الحمى فى حد ذاتها ليست مرضا ما ، بل عرضاً لمرض آخر، وإنذاراً من الطبيعة للإنسان بأن هناك مرضاً ما فى جسمه لتقوم عناصر الدفاع الذاتى بمقاومته ، وعلى الجسم أن يساعدها فى عملها ، فإذا ما نجح فى مقاومته ، وتغلب عليها اختفت الحمى ، إذ لا يعود لها داع ، وتكون قد أدت مهمتها ..

وعليك أن تتأكد من ارتفاع درجة حرارتك غير الطبيعية ، فدرجات الحرارة الطبيعيه لدى الإنسان قد تختلف من شخص إلى آخر ، ولا تتعجل فى خفض درجة حرارة جسمك إلا إذا سببت لك إزعاجا كبيرا أو أدت إلى تشنجات عند الأطفال ، وتنتج درجة الحرارة غير الطبيعية عند التعرض للشمس الحارقة فترة طويلة – ضربة شمس – أو نتيجة ثانوية لتناول بعض العقاقير ، أو ربما لوجود خراج ، أو لأسباب كثيرة يسردها الكاتب ، ويشرح طريقة التعامل مع كل سبب منها ، ثم يتحول الكاتب إلى شرح ما يصيب الجهاز العصبى والدماغ الذى يسميه – أى الدماغ – سيد الجسم بلا منازع، ويصف أعراض الأمراض التى تصيب هذا الجهاز الحساس ، ومنها النوبة العصبية ، وفقدان الوعى– الإغماء – وشلل الوجه ، والرجفة فى اليد ، والشعور بالخدر والتنميل وفقدان

حـاسـتـى الشم والتـذوق ، وسلس البـول ، وفـقـدان الذاكـرة والشـعور بالتشويش ، وحدوث تغيرات مسلكية وهى عناوين لأكثر من عرض لمرض ، كما يقدم الكاتب طريقة التعامل مع كل جزء منها ، كما يخصص الكاتب بعد ذلك فصلا لأمراض العين ، وآخر لمشكلات السمع ، ثم للجهاز التنفسى وللجهاز الهضمى ..

جلد الإنسان

أكبر الأجزاء فى جسم الإنسان هو الجلد وأكثرها تعقيدا، وهو عـرضـة لأمـراض شـتـى ، وقـد لا تكون ناتجـة عن عـدوى تلحق بالجلد نفسه، بل تظهر عليه نتيجة مرض لحق بعضو آخـر داخل الجـسم ، فـمـا يبدو للعين أنه مـجـرد طفـح جلدى بسيط قد يكون دليلا على خلل أصاب قلب المريض (كالتهاب شـغـاف القلب شبـه الحـاد) ،أو دليـلاً على فـشل كلوى ، أو حساسية منتشرة فى كل أنـحاء الجسم ، أو نتيجة للإصابة بالسلس أو غيره من الأمراض التى لا حصـر لها . الجلد هو مرآة الجسم، فأنت عندما تستشير طبيب الأمراض الجلدية عن سبب شعورك بالحكة قد يحيلك فورا إلى طبيب آخر ، لأن ما تشعر به من حكة قد يكون سببه مرضـاً فى الكلية أو الكبد أو حتى فى الدم ، أو لأنك تعانى من مرض السكرى ، ثم يقدم الكاتب لائحـة بالأمـراض الشـائعـة التى تصـيب الجلد

ومدلولاتها - أعراضها - ثم كيفيه التعامل مع كل واحد منها ، سواء أكان ذلك حكه فى الجلد ، أم صلعا ،أم نموا كثيفا للشعر ، أم احمرارا فى البشرة أم شحوبها ، أم إفرازا غزيرا للعرق ، أم شذوذاً فى أظافر اليدين أو القدمين ، وكلها عناوين تدخل تحتها عناوين فرعية عديدة..

وفى الفصول اللاحقة يتناول الكتاب القضايا المرضية المتعلقة بالجنس وخفقان القلب ، وظاهرة النوم والنعاس أو فقدانها - الأرق - أو العطش الدائم ،ولا يمكن أن نعرض كل تفاصيل هذا الكتاب القيم ، إلا أن سبب تناوله هنا هو عرض لأهمية مثل هذه الكتب للقارىء العام ، وأهمية هذا الكتاب بالتحديد الذى أرجو أن يلتفت إليه ناشر عربى، فيضعه بين يدى القارىء مترجما كله، نظرا لأهميته القصوى للإنسان العادى - إنه مجال ثقافى نفتقد الكثير منه فى ثقافتنا العربية المعاصرة.

١٤

الروايــة .. ذلك الـفن المــراوغ..
هل تـعلن مــوتهــا ؟

«هو الآن فى طريقه إلى قاهرة الثورة، قاهرة جمال عبد الناصر، اضطربت مشاعره بعنف وهو يتخيل نفسه مع جمال عبد الناصر فى مدينة واحدة، من يدرى فقد يضمه يوما معه شارع واحد، قد يراه رأى العين، وقد يصافحه ويتحدث معه، ولم لا؟! ألم يجب جمال عبد الناصر على كل الرسائل التى أرسلها إليه طلاب المدرسه الثانوية فى البحرين؟ ألم يهدهم صوره حسب طلبهم، صحيح أن التوقيع كان مجرد ختم، ولكنه توقيع جمال عبد الناصر، لابد أنه يكون قد وقع الأصل بنفسه..»سطور من الصفحات الأولى من «شقة الحرية»..رواية السفير والشاعر غازى القصيبى التى وضع فيها تجربة شبابه فى القاهرة، وأحلام شاب مسافر تختلط فيها السياسة والمشاعر العامة بخلجات نفسه، فقد اجتمع مع شلة من الشباب فى شقة تحولت إلى جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، تداخلت متاهات السياسة مع أحاسيس العشق وتجسدت فى هذه الشقة كل تناقصات الفكر العربى، وتخبطه بين الانتماءات المختلفة.

وعلى الرغم من أن المؤلف يؤكد فى سطوره الأولى أن جميع أبطال الرواية، وجميع الأحداث من نسج الخيال، إلا أن الحقيقة الكامنة وراء سطور الرواية، وتلك الفترة التى سجلها من الزمن العربى لا يمكن إلا أن تكون حقيقة مهما بلغت

درجة الإخفاء والصراحة فيها، وهذا هو سر الأدب العظيم، إنه سجل غير رسمي، وتاريخ صغير لكل أحداث المجتمع، وهو يكشف عن حركته وتطوره أكثر مما تؤديه أى غاية أخرى.

ولعلى أفهم سر لجوء السفير الشاعر إلى شكل الرواية، فهو يريد أن يبوح بالعديد من المشاعر والذكريات المختزنة فى أعماقه دون أن يقع فى فخ السيرة الذاتية، فهو لم ينس بعد أنه مثقف عربى، خرج من بيئة محافظة، ويشغل منصبا سياسيا حساسا، لذلك فإن الرواية التى يفترض أن تعتمد على الخيال هى الحل الأمثل حتى يبوح ولا يبوح فى الوقت نفسه.

لقد غرقت فى تفاصيل هذه الرواية المتشعبة الكثيرة الصفحات(٦١٨صفحة من الحجم الصغير)، وأوصيت أكثر من صديق بقراءتها- كما أفعل مع كل كتاب جيد يقع تحت يدى - ولكن الجواب كان يفاجئنى فى كل مرة إنها طويلة وتحتاج إلى وقت وإلى نفس طويل فى القراءة.

ولا أريد أن أخوض هنا فى تقاعس عدد كبير من القراء العرب عن قراءة الموضوعات الطويلة وخاصة الروائية بعكس الشعوب المتقدمة التى نرى أفرادها وهم يحرصون على حمل الروايات الضخمة معهم خاصة فى المطارات وأثناء الرحلات

الطويلة والعطلات، لقد أصبحت الرواية الطويلة جزءا من المتعة، وأحد مصادر المعرفة والوعاء الذى يمكن أن تقدم من خلاله آراء السياسة والفلسفة، والمصدر الذى يستمد منه علماء الاجتماع معلوماتهم عن أى مجتمع.

الفرسان يحاربون طواحين الهواء

ولكن، كيف نشأت الرواية الحديثة وتطورت واحتلت تلك المكانة الأدبية التى تحتلها الآن؟..لقد بدأت على يد فارس حالم، لم يكن إلا شيخا عجوزا قضى الشطر الأكبر معزولا داخل مكتبة فى منزل معزول فى مقاطعة معزولة، غرق فى صفحات الكتب حتى تداخلت الأزمنة فى ذهنه واختلطت الأوهام بسطور الكلمات، فقرر أن يخرج ليكون فارسا يحارب المردة والشياطين وينصر الضعفاء، كان درعه قديما، وحصانه عجوزا، ورمحه مكسورا، والأهم من ذلك أن الزمن لم يعد هو زمن الفرسان، وهكذا أخذ يحارب طواحين الهواء وينازل الوهم ولم يدرك أن هزيمته الحقيقية تكمن فى أنه خرج فى زمن غير زمنه.

إنه الفارس الشهير «دون كيشوت دى لا مينشا» الذى فاقت شهرته كشخصية روائية شهرة الكاتب الذى ابتدعه، فقد اكتسبت هذه الشخصية قوتها الدافعه من أنها تحولت إلى رمز يحوى كل سعى البشرية الخائب وتوقها إلى العدالة، وقد

كانت هذه الرواية التى ألفها الكاتب الإسبانى ميجيل سيرفانيس تحمل بعضا من تراث ملامح العصور الوسطى الذى تركه العرب فى هذه الأرض، وكانت أيضا عنوانا على انتهاء عصر الإقطاع والأرستقراطية القديمة وسيادة مفاهيم الطبقة الوسطى أو البرجوازية التى أصبحت الرواية هى التاريخ غير الرسمى لصعودها.

تطور فن الرواية على أيدى العديد من الكتاب، واستقلت تدريجيا عن ملامح القرون الوسطى كى تصبح فنا يعتمد على الجدة ومحاربه التقليد والخضوع للأفكار السلفية القديمة وكانت كلمة novel الإنجليزية تعنى ذلك البحث عن الجديد والابتكار، على الرغم من أن الرواية تحولت إلى الاتجاه الواقعى واتخذت من الواقع الاجتماعى الذى تعيش فيه مرجعا لها. ومع ذلك فلا يمكن اعتبارها صورة فوتوغرافية عنه. لقد اعتمدت على مبدأ الشك الديكارتى الذ ى لا تأخذ فيه الحواس ما تراه من العالم الخارجي، وما تعتقده على محمل الثقة،ولكن عليها أن تهب نفسها للبحث عن الحقيقة دون أى أفكار مسبقة، وقد أكدت على بحث الإنسان المفرد عن هذه الحقيقة، وهى نفس الفلسفة التى أكدت على فردية الإنسان التى كانت الحافز الأساسى وراء نهضة الطبقة البرجوازية وصعودها فى أوروبا.

ومثلما خرج فارس الرواية الغربية من عزلته إلى زمن غير زمنه، خرج فارس الرواية العربية من قبره ليكتشف أيضا أنه فى زمن غير زمنه. ففى رواية «حديث عيسى بن هشام» أو «فترة من الزمن» التى ألفها محمد المويلحى عام١٩٠٧يكتشف الراو ى قبرا مفتوحا يخرج منه شخص كان من المفروض أنه من الذين شبعوا موتا ليرى الحياة المعاصرة وينقدها. لقد كان مؤلف الرواية محمد المويلحى أديبا وصحفيا، درس فى الأزهر وشارك فى الثورة العرابية، واضطر لمغادرة مصر بعد الاحتلال البريطانى وعاش عمرا مضطربا بين المنافى المختلفة، من باريس إلى الآستانه، وحين أراد أن يوجه سهامه اللاذعة لما حدث فى بلاده عقب الاحتلال لجأ إلى هذا الشكل مستغلا شكل المقامة العربية القديمة، وكأنه بذلك الهدف قد استن سنة لكل الذين يعانون من الظلم والعسف والاضطهاد أن يلجأوا إلى الرمز والتورية.

إن الرواية هى أحد الأسلحة البشرية لمقاومة كل صنوف الظلم وقهر الإنسان، وقد ارتدت كل الثياب وحملت كل الفلسفات كى تقوم بهذا الغرض، وإذا كان فن الرواية الآن فى ازدهار فلأنها أشد الأشكال الفنية مرونة، وأكثرها ملاءمة لروح العصر الذى تعيش فيه، ففى مثل هذه الظروف التى تتشابك فيها مصائر البشر وظروف السياسة والاقتصاد

وتختلط فيها الفلسفات بأفكار التطرف والعنف تصبح الحاجة ملحة لإيجاد وعاء مرن يحتوى كل هذه التناقضات، وليس هناك أفضل من الرواية فى هذا المجال.

مبدع واحد ومهام عديدة

إن مهمة الرواية متعددة، والهدف منها يختلف حسب الكاتب الذى يستغل هذا الشكل ليسعى من خلفه، ويرى « روجيه دوبديه»فى كتابه عن الرواية أنها ذلك الشكل الأدبى الذى يقوم بدور المرآة فى المجتمع، أى أن مادتها هى الإنسان فى صراعاته الاجتماعية المختلفة، صراع الفرد ضد الآخرين، وينتج عن هذا الصراع خروج القارىء بفلسفة ما أو رؤية عن الإنسانية، ويمكن فى هذا القول التأكيد على أن الرواية تعالج الواقع أكثر من معالجتها للأفكار والنظريات المجردة. وتتسع مهمة الرواية عند «البيريس» الناقد الفرنسى المعروف فيطالبها بالتعبير عن القلق البشرى والسرائر الداخلية والمسئوليات التى كانت فيما مضى موضوع الملحمة والتاريخ والبحث الأخلاقى والتصوف والشعر فى جانب منه، وذلك أن الإنسان الحديث يرغب فى أن يجد فى الرواية كل شىء، وكأن الرواية ملتزمة بأن تؤمن لكل مجموعة فكرية قوتها الفضلى، فهى تقدم للأذهان الوضعية الدراسات الاجتماعية، وتقدم للنفوس الحساسة ألعاب التحليل النفسى المرهفة المخيفة، وتقدم

للباحث عن مصيره تساؤلا دائما على الوضع البشرى أو لا إنسانية العالم، كما تقدم للجميع المتع الطفولية التى يثيرها عنصر القص والتشويق والحكاية المؤثرة والمغامرة، وكأن على الرواية أن تقوم بدور الكاهن والمشرف السياسى وخادمة الأطفال وصحفى الوقائع اليومية والرائد ومعلم الفلسفة، وهى تؤءى هذه المهام جميعها فى شكل فنى متعارف عليه يهدف إلى أن يحل محل الفنون الأدبية كلها.

الرواية فى أساسها إذن عمل إبداعى، وهى تبين أيضا القدرة الإدراكية للإبداع عند البشر.وتقول جين . س.. بروز فى دراستها حول الإبداع :إن ردود فعل الأفراد إزاء أى عمل إبداعى يتمثل فى شيئين:المفاجأة الفعلية لهذا الفرد، ثم الصدمة التى تتبع إدراكه لخفايا العمل الإبداعى. إن الأذواق تتعدد فى إدراكها للعمل الروائى، وعلى الرغم من كل الدراسات والنظريات فلا توجد قواعد ومعايير موضوعية يمكن الحكم بها ـ نهائيا ـ على الأعمال الإبداعية، ولكن البحوث قد أثبتت أنه يجب علينا أن نثق أكثر مما ألفنافى قدرة عقولنا، لأن القدرة الإدراكية تجمع على أن الناس لديهم استعدادات فطرية تسمح لهم بالتمييز بين الإنتاج الإبداعى الجيد والردىء، وهذا يعنى أيضا أننا مجهزون من قبل ببذور الإنتاج الإبداعى.

الرواية العربية

هل الرواية العربية بنفس هذه المهام؟

إنها نفس الأهداف لأنها تنبع من ذات احتياجات النفس البشرية، والفرق بين رواياتنا العربية ورواياتهم هو أننا نطالع حيواتنانحن، ففى رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى نرى ريف مصر، وعند نجيب محفوظ نغوص وسط حوارى القاهرة الضيقة، ويأخذنا حنا مينا إلى القرى الساحلية حول ميناء اللاذقية، ونعيش مشكلات التحرر والمعاناة من الأنظمة القمعية فى رواية «شرق المتوسط» لعبد الرحمن منيف، ونصطدم بالصراع بين الحضارات والثقافات المختلفة والبحث عن الهوية أو الذات المفتقدة فى أعمال الطيب صالح، خاصة «موسم الهجرة للشمال»وكلها أعمال تعكس فوران القضايا التى تمور فى وطننا العربى، وتبحث عن صدى للإجابات على امتداد صفحات كل رواية.

المجد للرواية العربية..ولكن

إن الناقد الشهير الدكتور على الراعى يهتف بعد حصيلة جهد واسع فى جمع صنوف الأدب العربى:«المجد للرواية العربية، فقد جعلها أفضل المبدعين فيها لسان حال الأمة وديوانا جديدا للعرب، ومستودعا لآمال وآلام أمتنا العظيمة المقطعة الأوصال».

ففى كتاب ضخم يستعرض الدكتورالراعى أشهر نماذج الرواية العربية فيقدم لنا سجلا حافلا، حوالى٩٠ رواية من مختلف أقطار الوطن العربى، وهى لا تمثل كل الروايات ولكنها تمثل نموذجا واحدا من أعمال كل كاتب وعلينا أن نتخيل حجم ما أنتجه كل هذا العدد الضخم من كتاب وما قدموه من شهادات معاصرة، وسواء كان أصل الرواية العربية يعود إلى رواية المويلحى«حديث عيسى بن هشام» فى بدايات هذا القرن، أو يعود إلى رواية محمد حسين هيكل «زينب» التى نشرت عام١٩١٤، فمن الواضح أن الطفرة فى تلك الفترة القصيرة كانت كبيرة جدا، فنجيب محفوظ ـ نفسه ـ وهو الروائى الأمثل ـ يملك هرما ارتفاعه خمسون رواية. أضف إلى ذلك جهود حنا مينا وعبد الرحمن منيف وفتحى غانم وأمين معلوف ومحمد شكرى غيرهم.

إن هناك نغمة مشتركة تتوحد وتتصاعد من خلال سطوركل هذا العدد الكبير من الروايات للإنسان العربى، فهو يرى الإنسان العربى مقهورا، «مضيق عليه فى الرزق والرأى والمسكن، تقهره الأنظمة وتستعبده الأعراف البالية، وتسكن روحه وتعشش فيها أشباح أناس وأصداء أقوال عاشت وصدرت فى الماضى السحيق ولا تزال تجد طريقها إلى عصرنا وكان من حقها أن تبيد من زمان طويل».

مهمة الرواية العربية إذن أن تخلص هذا الإنسان العربى من قهره، ومن التشويهات التى يمكن أن يحدثها هذا القهر نفسه، كما أن عليها أن ترشده إلى من يمارس هذا القهر ضده وترشده إلى طريق الخلاص.

مهام صعبة يختلط فيها دور الروائى بالمصلح الاجتماعى بالسياسى كما قلنا من قبل، لذا فإن الرواية العربية- مثل بقية روايات العالم الثالث حافلة بالهموم الجماعية، كل كاتب يحمل قضية قومه فوق كتفه، ولا يفرق فى خصوصياته أو نظرته الفردية إلى الأمور إلا فيما ندر، لذا يوجه الكثير من النقاد اتهاما شائعا إلى كل الروائيين العرب وهو أنهم من خلال إبداعهم لا يخلقون شخصيات متفردة بقدر ما يكتفون بصنع أنماط بشرية ذات خصائص عامة.

وباستثناء نجيب محفوظ لا يوجد روائى عربى محترف، أى متفرغ لتنمية هذاالفن الصعب، بل وحتى نجيب محفوظ نفسه قضى الردح الأكبر من عمره وهو أسير الوظيفة الحكومية وهو يعد بذلك أشهر موظف مصرى على الإطلاق، فلا يوجد روائى عربى يعيش من عمله كروائى، ولكن عليه أن يمارس أى أعمال أخرى كى يستطيع أن يوفر قوته اليومى .

وفى الوقت الذى توفر الرواية للكاتب الغربى مصدرا كبيرا للدخل ووضعا مميزا للعيش، يعجز الروائى العربى عن أن

يصل إليه، ويبقى أسير «الهواية» التى تقتطع جزءا كبيرا من موهبته.

ولأن الشروط مختلفة فى الغرب فقد تطورت الرواية كثيرا، بل إن الكتاب العرب الذين عاشوا فى الغرب قد استفادوا كثيرا من هذه الشروط، واستطاعوا أن يتطوروا ويصلوا إلى آفاق جديدة، ولعل أمين معلوف الذى فاز أخيرا بجائزة جونكور خير مثال على ذلك.

والمبدعات يصرخن

النساء اللاتى لم يجدن منذ زمن طويل مكانا يصرخن فيه، وجدن مكانا فى شكل الرواية، تكره المرأة السينما كثيرا لأنها طالما استغلت جسدها بشكل تجارى غير مناسب، ولا ترتاح للفن الحديث لأنه استبدل بأحاسيسها الخاصة تكوينات مجردة تسبح فى الفراغ، لا تفهم الشعر الذى أصبح مستغلقا عليها، لذلك فإن الرواية أصبحت واحدا من أهم الميادين الأدبية التى تمارس فيها المرأة إبداعها الخاص، أو بالأحرى هو البيت الذى تجد فيه راحتها.

يقول الشاعر روبرت مارت:«إن العصور القديمة لم تنشىء الرواية لأن المرأة كانت مستعبدة. الرواية هى تاريخ المرأة».

ويبدو فى هذا القول الكثير من الحقيقة. لقد مرت المرأة بمراحل جديدة حتى أفلتت من استبداد الرجل بها، ففى

البداية كانت جارية عنده، وعندماتحررت لم يعد يراها، وبذلت الجهد الأكبر حتى تجعله يراها أولا ثم يقبلها شريكة له ثانيا.

وقد ربطت الروائية الفرنسية والمؤرخة مدام دى ستايل بين حقيقة انعدام الرواية عند الحضارات القديمة مثل اليونان والرومان، وحقيقة عدم إضفاء هذه الحضارات أى أهمية على العلاقات العاطفية بين الرجال والنساء، وذلك بسبب المركزالوضيع الذى كانت تحتله المرأة فى تلك الحضارات، ولم تنشأ فكرة الحب العذرى، واعتبار العلاقة بين الجنسين قيمة سامية للحياة على الأرض إلا فى القرن الثالث عشر، فى مقاطعة «بروفانس» الفرنسية، وتدريجيا أخذت هذه الفكرة فى التكيف مع الواقع الدينى والاجتماعى والنفسى، وأثر هذا على التراث الروائى، فبدأت قصص الحب والعشق وحدث التصالح التقليدى بين الحب العذرى ومؤسسة الزواج وصار الاختيار الحر بين الفردين هو القانون السائد.

لقد انطلقت رواية المرأة من أسر هذه الأغلال الاجتماعية والفكرية، وامتلأت رفوف المكتبات بالروايات التى لا تقدر على كتابتها غير المرأة. ويقول بعض النقاد إن المرأة مؤهلة لذلك أكثر من الرجل، فهى تمتلك القدرة على التقاط تفاصيل الحياة الدقيقة وإعادة نسجها وصياغتها من جديد. ولكن لا

يبدو هذا القول صحيحا على إطلاقه، فمن بين عدد يربو على التسعين كاتبا فازوا بجوائز نوبل للآداب لا نجد من بينهم إلا تسع نساء فقط.

وتختلف ظروف الروائية العربية كثيرا عن زميلتها الغربية، فهى لم تظفر- حتى الآن - بهذا القدر من الحرية، وما زالت كتاباتها هى محاولة منها لأن تكسر القيد الذى يحيط يها ويحدد وظيفتها الاجتماعية، حتى تقتصر على رعاية المنزل والطفل، بل إن النظرة تخلط أحيانا - بسوء نية فى أغلب الأحوال - بين ما تكتبه المرأة وسيرتها الذاتية بل وتقدم لها الانتقادات الأخلاقية قبل الفنية .

وواقع الحال أن ظروف المرأة العربية المبدعة صعبة لأن معوقات الإبداع كثيرة جدا، وعلى الرغم من ذلك فلابد من أن تذكر العديد من المبدعات العربيات اللاتى اقتحمن هذا الفن الصعب، ولعلنا مازلنا نذكر آثار الضجة التى بدأت عام ١٩٥٨حين صدرت روايتان هما «أنا أحيا» للكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكى، و«أيام معه» للكاتبة السورية كوليت خورى، وقد كانت مقدمة لاقتحام كل القضايا التى تخص المرأة من رفض التقاليد وسيطرة الأب والتمرد على العائلة بجرأة وقوة، ومنذ ذلك الحين مازالت رواية المرأة العربية تشق طريقها وسط بحر ملىء بصخور التفاليد القديمة، إن كاتبات مثل:منى

جبور، وإقبال بركة، وحنان الشيخ، وحميدة نعنع، وسحر خليفة، ولطيفة الزيات، ورضوى عاشور قد وضعن علامات فارقة لا على تاريخ الرواية النسائية فقط، ولكن على مسيرة المرأة العربية من أجل تحررها.

منفيون داخل اللغة

ربما كانت قوت القلوب الدمرداشية هى الأولى من الأدباء العرب الذين نشروا ١٩٤٩ روايات وقصصا باللغة الفرنسية فى القرن العشرين، أو بالأحرى أول أديبة تنشر كلماتها بلغة أجنبية، وقد عكست هذه القصص التى كتبتها أجواء الشرق والحياة الاجتماعية التقليدية فى مصر، وخاصة مصر الإسلامية. إنه تقليد نبعت جذوره وتأصلت من رغبة الغرب العارمة فى اكتشاف سحر الشرق الخفى وظل ساريا إلى الشكل الحالى الذى نجده فى روايات أمين معلوف . وعلى الرغم من أن هذه السيدة التى ولدت عام١٨٩٢وتنحدر من سلالة أحد أمراء المماليك ورائدة فى التصوف إلا أنها سبحت عكس التيار، فقد ترك لها أبوها ميراثا ضخما، وأسس واحدا من أضخم مستشفيات مصر وهو مستشفى الدمرداش إو كلية طب عين شمس الآن، إلا أن اهتمامها الرئيسى كان الثقافة، لذا فقد أقامت أول صالون للناطقين باللغة الفرنسية، وألفت روايتها الأولى بها، وأطلقت عليها اسم «حريم

Harem وأتبعتها برواية «زنوبة zanoba» عام ١٩٤٩.

ثم توالت الأسماء التي لجأت إلى الثقافة الفرنسية..ألبيرقصيرى وأندريه شديد وجويس منصور من مصر، ومحمد ديب ومالك حداد ورشيد بوجدره من الجزائر، والطاهر بن جلون من المغرب، وجورج شحاده وأمين معلوف من لبنان.

وفي الإنجليزية هناك أكثر من اسم، ولكن أشهر هذه الأسماء على الإطلاق هوالشاعر خليل جبران الذى اختلطت فى كلماته تعاليم المدينة الفاضلة بسحر الشرق وروحانياته.

لقد هاجر الأدباء من أوطانهم ومن لغاتهم إلى أوطان ولغات أخرى تحت وطأة ظروف عديدة، منها ظروف الاستعمار، والهجرة من أجل الرزق، والسعى إلى أرض جديدة خالية من القمع، ولكن المؤكد أن هؤلاء الكتاب قد ظلموا فى أوطانهم، فهم يواجهون مشكلة الازدواجية الأدبية، ففى بلادهم العربية ينظر إليهم على أنهم كتاب أجانب يعيشون فى بلد أجنبى، كما ينظر إليهم فى أوربا نفس النظرة .

ومعظم هؤلاء الكتاب لا يزالون أسرى الواقع الذى خرجوا منه، فهم يكتبون عن الأوطان التى اضطروا لمغادرتها والناس الذين هجروهم، لم يروا أبداً المكان الذى «هاجروا» إليه، وحتى عندما كانت تضيق بهم مساحة التعبير كانوا يتخيلون

وطنا مجردا وأرضا رمزية يلجأون إليها .لقد وصف الأديب الجزائرى نفسه وزملاءه بأنهم «منفيون فى اللغة».

ولكن علينا ألا نرثى لهم قليلا، فقد أعطاهم هذاالمنفى قدرة فائقة على التعبير وحرية فى تناول الأدوات الإبداعية. بل إن البعض منهم قد لعبها ببراعة أيضا، ولعل أصدق مثال على ذلك هو المؤلف اللبنانى الأصل أمين معلوف، فهو لم يركز على جوانب القبح والسلبية والأشياء الغرائبية فى بلاده، بحيث يقدم الشرق بنفس الصورة التى تعود عليها المستشرقون من كتاب الغرب ولكنه يقدم شرقا آخر ساحرا مليئا بالفعل والتحقق والعشق ورغبات السمو وانكسارات الهزيمة، إنه يعود إلى تاريخ الشرق المفعمم بالحيوية من غرناطة إلى نيسابور ويعيدتجسيد التاريخ، لا كما حدث ولكن كما يجب أن يكون، وهو يتعامل مع نفس الشخصيات القديمة التى لعبت على هامش الحضارات المختلفة، أو بالأحرى نقاط التماس بيننا وبين الحضارة الأوربية، فشخصيات مثل عمر الخيام أو ليون الإفريقى لم تكن مجرد رموز فى الحضارة الإسلامية فقط، ولكنها أخذت ثقلا ثقافيا وسط المركزية الأوربية، والبراعة هنا تكمن فى إضفاء رؤية فنية جديدة لحركة هذه الشخصيات فى الزمان والمكان .

هل تعلن الرواية موتها ؟

على الرغم من كل هذه الإيجابيات التى تتحدث عن الرواية ودورها وأهميتها ..فإن هناك سؤالا قاسيا يطرح نفسه علينا:هل تموت الرواية؟

إنها قضية ليست مطروحة فى ثقافتنا العربية فحسب، بل هى مطروحة فى كل الثقافات بما فيها الثقافة الأنجلوسكسونية التى أنتجت ومازالت تنتج من فن الرواية، أغلب نماذجها وأكثرها انتشاراً، فقد شهدت الصحافة الغربية فى الأشهر الأخيرة نقاشا قاسيا حول وضع الرواية، أزمتها وموتها كما ذهب البعض.

وليست هذه المرة الأولى التى تقام فيها المآتم للرواية فى الغرب بين الفترة والأخرى خاصة فى أزمنة الصراع الاجتماعى العميق والتغيرات السياسية العظيمة، وهذا النقاش الذى يثور كثيرا لا يدور حول الرواية فقط، وإنما حول كيف يفهم المعاصرون زمنهم، وفى كل الحالات تتخذ حالة الرواية شكلا يجسد الواقع المعيش، وإن حكمنا على ماتكتبه الصحافة الغربية فإنه لا حالة الرواية ولا حالة الزمن المعيش فى وضع جيد على الإطلاق.

وفى كتاب صدر أخيرا للكاتب البريطانى «دى . جى. تيللور»بعنوان «الرواية وإنجلترا بعد الحرب العالمية الثانية»

حاول محاولة جادة اكتشاف العلاقه بين المجتمع والرواية، ولقد وجد الكاتب تراجعا مستمرا فى عمق وحيوية الرواية الإنجليزية منذ الحرب العالمية الثانية، وربط ذلك بالتراجع السريع للمجتمع البريطانى نفسه منذ ذلك الحين.

وفى رأى تيللور أن الراوية فقدت اتصالها الاجتماعى وحبها لشخوصها وإبداعها الفنى ولغتها الحيوية، وباختصار كل الأدوات التى كانت تشكل قوتها وأصبحت ضيقة الأهداف تهتم بقطاع أحادى وضيق من قطاعات المجتمع، متشائمة، ولا تؤمن بنفسها، ويؤكد الكاتب أن الرواية تعانى من حالة احتضار طويلة تمتد من العصر الفيكتورى.

إن هناك شعورا متناميا فى الأوساط الأدبية بأن الرواية الغربية أصبحت بضاعة غير مرغوب فيها، بالمقارنة بالانتشار الذى تحققه كتب السير الذاتية التى دأب كبار المشهورين فى الحياة العامة فى السياسة أو الفن على إصدرها، كذلك فإن هناك عددا كبيرا من الروائيين الآن يتحولون من فن الكتابة إلى محاولة إيصال أفكارهم بواسطة التلفريون على صورة المسلسلات التى أصبحت تستقطب عددا كبيرا من المشاهدين، وتدرعائدا أكبر على المؤلف من كتابة الرواية، وكل هذه الأشياء تؤثر على فنية الرواية وطريقة كتابتها.

ولكن الملاحظ أن كل هذه الكتابات تنعى موت الرواية

١٥

السينما.. الحياة أيهما أكثر حقيقة من الآخر؟

لو أن الحياة فى هذا الكوكب الذى نعيش عليه لها مرآة بحجمه لكانت هى السينما، فهى تحاكى الحياة صورة وصوتا، شعورا وحركة، تترجم وبنفس الحيز من الوقت والشخوص والأماكن ترجمة أمينة كل ما نواجهه فى الحياة من شر وخير ومن حزن وفرح.. السينما هى حياة الناس فى القرن العشرين وما بعده، وهى المحاكاة الحقيقية للحياة أكثر من أى فن آخر، أكثر رحابة من المسرح وأكثر تسلية من الكتاب.

ويمكن أن يكتب تاريخ السينما من أكثر من مدخل، كالمدخل التقنى، أو الاقتصادى، أو الاجتماعى، أو الصناعى، أو حتى التأليفى. وكل هذه المداخل شرعية فى فهمنا للسينما وتطورها فى هذا القرن الطويل والمضطرب. ومما يلفت النظر أن صناعة السينمامثلها مثل صناعة النفط هما صناعتان أمريكيتان، أى تم اختراع آلاتهما الأولية واكتسبتا أهميتهما الاقتصادية والثقافية فى هذا البلد الجديد فى نهاية القرن الماضى، وإن سبق النفط السينما بسنوات قليلة، إلا أن الصناعتين تطورتا وبسرعة فى السنوات الأولى من القرن العشرين لتصبحا صناعتين دوليتين.

السينما الأمريكية تسيطر

وتبدو السينما الأمريكية اليوم هى المسيطرة على معظم

أسواق العالم، وهى التى تقدم التجارب الحديثة فيما يمكن تسميته بمجموع الفنون. ومن الطريف أن صناعة السينما فى بدايتها الأولية، منذ قرن تقريبا، بدأت عاملا ترفيهيا بسيطا وأوليا مخصصا للأفراد، ثم انتقلت بسرعة للجماعة عن طريق دور العرض السينمائية، واستمرت كذلك حتى ظهر (الفيديو) فعادت للأفراد من جديد ولكن بطريقة أخرى وتحت ظروف مختلفة.

واليوم تشكل صناعة السينما الأمريكية معظم السوق الدولية، والمنافسة التى ظهرت فى فترة أو أخرى بدوافع قومية كما فى فرنسا، أو بدوافع أيديولوجية كما فى الاتحاد السوفييتى السابق، لمنافسة هذه الصناعة الجبارة سرعان ما انتهت إلى الفشل.

تاريخ السينما - التى بدأت تخطو خطواتها الجادة فى بداية هذا القرن - هو تاريخ التوسع الصناعى، والتنظيم التجارى، التقنى، وتطور دراسات السيطرة على عقول الجماهير أيضا، فالمشاهد خلال جلسة مريحة يستطيع أن يستعرض تاريخ أمة، أو تفاصيل معركة حربية أو تطور حياة بطل تاريخى أو سيرة عظيم أو مجرد قصة حب عاطفية يمكن أن تقع لأى فرد منا، ويقتنع بما يراه ويتفاعل بتفاصيله، إلى درجة أن البعض يوقن أن ما يشاهده على الشاشة هو الحقيقة لا غيرها.

وتتحول صناعة السينما والإنتاج السينمائى مع تحول المجتمع وتطوره، فمن الأفلام البسيطة الصامتة إلى الأفلام الواقعية التى ترصد الحياة بإيجابياتها وسلبياتها، إلى أفلام الخيال العلمى والخيال الفلسفى. ولعل الفيلم الأمريكى الأخير الذى عرض ومازال يعرض فى أسواق العالم اليوم ولقى صدى عظيما، وأقصد به فيلم «فورست جامب» الحائز على عدد وفير من جوائز الأوسكار، هو فيلم يبحث عن الهوية الأمريكية عن طريق رواية يرويها شاب يجلس على محطة «الباص» يحاول عبثا أن يسرد حكايته لأى عابر سبيل، فهو يواجه صعوبات فى المشى عندما كان طفلا مع شىء من التخلف العقلى، ويتحول هذا الشاب بشىء قريب من المعجزة إلى بطل فى فيتنام، ومصافح لكل الرؤساء الأمريكان برغم أنه محروم من الحب بعد أن هجرته رفيقة طفولته، ومن خلال الحكاية بأسلوب إنسانى مؤثر يسرد الفيلم تاريخ الولايات المتحدة المعاصر بطريقة غير مباشرة، تاريخا يبدو بلا هدف ينتهى نهاية مأساوية بظهور مرض الإيدز الذى يأخذ حبيبة البطل بعد أن يتزوجها. فيلم كهذا يبحث عن هوية مجتمع، ولا يسرد قصة مباشرة، هو مزيج من الخيال والواقع معا.

أغراض السينما لا تنتهى، فهى صالحة حتى للمناقشات الفلسفية والبحث عن المصير الإنسانى، الذى هو ضالة

الإنسـانيـة، ولكنه ليس بحـثـا جـامـدا منفـردا، بل هو بحث للإنسـان فى الإنسـان، وإظهـار ضـعف الإنسـان أمـام جبروت نفسـه. لقـد تطورت صناعـة السـينمـا فى السنوات الأخـيـرة بسبب تطور التقنية، وكانت للاثنين - كل منهما بالآخـر - علاقة طردية، فـالعديد من الاختـراعـات السينمـائية التى وظفت بعد ذلك فـى هذه الصـنـاعـة، كـان دافـعـهـا الحـاجـة التى وجـد العاملون فى الصناعة أنهم يحتاجون إليها، فاستخدم الصوت والعـدسـة المقـرية فى التـصـوير ثم الألوان، وبـعـدها العـدسـة الواسـعـة (سكوب).. إلى آخـره من الاختـراعـات والإضـافـات، وهناك أسـمـاء عـديدة من المصـورين والفنـانين والكتـاب الذين سـاهمـوا فى ذاك التطوير، واليوم تدخل المؤثرات السينمـائية التى وظفـهـا ويوظفـهـا الكمـبـيـوتر كـأحـد التـحـديات الـهـائلة لصناعـة السـينمـا العـالمية، فقد أخذت هذه الصناعة تستخدم هذه التـقنيـة العـاليـة حـتى كـاد يختلط على المشـاهد الحـد الفـاصل بين حـقـيـقـة مـا يقوم به البطل من أفـعـال ومـا يمكن للتـقنيـة الجـديدة من إضـافـتـه على فـعله، حـتى أصـبـح نقـاد السينمـا يتسـاءلون: هل هذه التقنيـات الكمـبيوترية الفـذة قادرة على أن تخـدم أهداف السـينمـا أو أنهـا فـقـط ستظل فى إطار الإبهار والثقافة الحسية؟

وإذا عدنا إلى فـيلم «فورست جامب» وشـاهدنا البطل وهو

يقـوم بمصـافحـة الرئيس كـيندى أو الرئيس جـونسـون أو الرئيس نيكسـون ـ وهم الرؤسـاء الذين تعـاقـبوا على رئاسـة الولايات المتحدة فى الفترة الافتراضية للفيلم ـ فسنشعر بأن المشـهد أشبه بالحقيقة، وكل ما فى الأمر أن هذا المشـهد هو أحد تأثيرات دخول الكمبيوتر فى مجال السينما.

لقـد أصـبـحت الدعـاية اليـوم للأفـلام عن طريق الصـور الجميلة للبطلات هى طريق التوزيع الواسـع، واكتشف موزعو السينما مبكرا أهمية أخبار البطلات وأسمائهن للجمـهور منذ بداية السـينما وقبل أن تصبح ناطقة، لقد كانت عملية إشـهار بطلات الأفلام المتحركة القصيرة والصامتة عملية مدرة للربح، وكـانت أول ممثلة نالت هذه الشـهـرة فى عـام ١٩١٠ ـ عندمـا كـانت صناعـة السـينمـا فى طفـولتـهـا ـ هى المـمثلة فلورنس لورنس وكـانت تلك خطوة غير مسبوقة وقد دخلت بعدها تلك الممثلة ـ ولهذا السبب ـ كتب تاريخ السينمـا. أصبـحت ظاهرة الدعـاية عن طريق الصـور الجميلة ظاهرة عـادية بل لقد تعمـد رجـال الدعاية السـينمائية بعد ذلك ـ من أجل ترويج أشرطتـهم السـينمـائيـة ـ أن يخـتـرعوا القـصـص الغـراميـة وغـيـرها من الموضوعـات المثيرة حول أبطال أفـلامهم لجذب نظر الجمـهور، وكـان توظيف النسـاء فى الإعـلان ـ من أجل ذلك الهـدف ـ ظاهرة سينمـائية أمريكية فى العشرينيات، وسـرعان ما تبنتـها

صناعة السينما فى العالم.

السينما والضغوط الاجتماعية

لم تكن صناعة السينما فى بداية تطورها صناعة مقبولة من المجتمع فقد واجهت الضغوط الرقابية منذ أن بدأت. وأول فيلم تم منعه هو فيلم قصير صامت (دوليرتا فى الرقصة العاطفية) فى عام ١٨٩٥، وقد منع بناء على أمر السلطات المحلية فى مدينة (أتلانتك سيتى)، وبعد سنتين من منع ذلك الفيلم مُنع فيلم آخر قصير بعنوان (تفتح البرتقال) هذه المرة بأمر من محكمة فى ولاية نيويورك لأنه (يجرح شعور الجمهور). وبانتشار دور العرض فى الولايات المتحدة بدأت تظهر مجموعات من القوى الضاغطة من بينها الكنائس والقوى الاجتماعية الأخرى ورجال الشرطة والصحافة، التى تؤثر وتفرض نفوذها على الوسيط الاتصالى الجديد (السينما) وتنامت هذه الضغوط حتى تحولت إلى شكل مؤسسى بإنشاء مجلس الرقابة، ومع تكتل أصحاب الصناعة السينمائية واتساع نشاطها وظهورها كصناعة مؤثرة فى الرأى العام من جهة أخرى، قام اتحاد يمثل مصالح المالكين لهذا الصناعة، وأراد هذا الاتحاد أن يفرض وجهة نظره المضادة لرفع الرقابة المباشرة، فتبنى اتحاد شركات الإنتاج ميثاق شرف لصناعة السينما مكونا من ١٣ نقطة كى يصبح مؤشرا لإنتاج الأفلام

وعرضها فيما بين الشركات المنتجة، وقد حرم الميثاق مجموعة من الممارسات كإظهار العُرى، أو العنف الزائد على الحد، وبعض المظاهر المنافية لما اعتقد أنه من الآداب العامة وقتها، إلا أن هذا الجهاز افتقد الأداة التنفيذية. وظل الصراع فى موضوع الرقابة سجالا بين أهل الصناعة والمؤسسات الرسمية فى الولايات المختلفة، وخاضت الصناعة حربا قانونية أمام المحاكم المحلية والمحكمة الدستورية العليا نجحت فى بعضها وفشلت فى بعضها الآخر، حتى استقر الأمر على رفع الرقابة المباشرة عن الأفلام فى الولايات المتحدة، على أن تصنف الأفلام بدرجات مختلفة ويمنع دخولها لسنوات معينة من العمر فيما يسمى بـ Rating.

أفلام كالصدمة

السينما لم تكن دائما فنا مستأنسا، فمنذ أن اكتشف سحر الصورة المتحركة وكل القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تحاول تطويع هذا السحر لمصلحتها، ولكن التعاويذ كثيرا ما تستعصى على الساحر. لقد أثبتت دائما أنها فن لا يستطيع أن يعيش إلا مع الحرية.. وإذا كانت تحاول دائما أن تفلت من أساليب القمع السياسية التى حاولت الأنظمة - وخاصة الشمولية منها - أن تفرضها عليها، فقد نجحت فى بعضها وفشلت فى الأخرى. ولكن إذا كانت

السينما لها الحق فى مقاومة السلطة.. فهل يحق لها أن تصطدم بالناس الذين تعتمد على جموعهم؟ هل تستطيع أن تتحدى تقاليدهم وقيمهم؟

لقد شاهدت على شاشة التليفزيون منذ أسابيع قليلة الفيلم العربى «نهر الحب» المأخوذ عن رواية «أنا كارنينا» للكاتب الروسى الشهير ليو تولستون. كان الفيلم رومانسيا يجمع بين رقة فاتن حمامة ووسامة عمر الشريف ويحاول إثارة كل مشاعر الحب والعشق فى النفوس. وبرغم ذلك فلم ينجح هذا الفيلم فى وقتها ولا أظن أنه يلاقى النجاح الآن. والسبب فى ذلك هو سبب أخلاقى، فالفيلم برغم كل ما قدمه من مبررات يهاجم مؤسسة الزواج الشرعية.. المؤسسة التى يعتبرها الكثيرون عماد المجتمع والحياة، ففيه تعشق البطلة - المتزوجة من رجل مُسن هو زكى رستم - شابا صغيرا يافعا، ولم يقبل الجمهور العربى الفيلم لهذه الأسباب بالذات!! ولكن هذا المثال يعد بسيطا، فقد تجاوزت السينما الخطوط الحمراء فى مناسبات عديدة.. ولعل الموجة التى سادت السينما فى الثمانينيات أبرز نموذج على ذلك التجاوز، حيث ارتفعت نسبة الجنس والعنف إلى حد كبير مما يهدد بإفساد أخلاق النشء من المتفرجين.. وهناك بلدان كثيرة - حتى المشهورة منها بانفتاحها وتقبلها لكل الأفكار - لم تستطع أن تتحمل السماح

ببعض العروض السينمائية. فى فرنسا مثلا التى بنت سمعتها على حرية الفكر لم تستطع أن تتحمل عرض فيلم «الراهبة» الذى قامت ببطولته جان مورو. والفيلم كله يدور داخل دير مغلق لراهبات، حيث تحاول رئيسة الدير دفع راهبة صغيرة بفعل الإغراء والتهديد إلى أحضان الراهب الأكبر! لقد كان هذا الفيلم صدمة كبيرة للمؤسسة الكاثوليكية الفرنسية كلها، وقد حاولت أن تقف ضده . ودافع مخرج الفيلم عن نفسه بأنه كان يحاول أن يكشف الفساد الموجود داخل الأديرة الفرنسية، وتحمل وزير الثقافة الفرنسى، فى ذلك الوقت «شارل لانج» مسئولية عرض هذا الفيلم.

ولكن الفيلم الآخر الذى أثار ضجة أكبر واعتراضات أعظم وصلت إلى حد قيام المظاهرات وإشعال النار فى دور السينما فى كل من أمريكا وكندا هو فيلم «الإغراء الأخير للمسيح» وهو آخر فيلم من سلسلة من الأفلام تحاول أن تروى قصة السيد المسيح كما وردت فى العهد الجديد.. ولكن الجزء الأخير من الفيلم هو الذى أثار كل هذه الضجة، فالمسيح وهو على الصليب يتذكر كل الإغراءات التى تعرض لها، وكل الخطايا والنزوات التى كان يريد أن يقوم بها والتى وصلت إلى حد تخيله وهو يمارس الجنس مع مريم المجدلية. ولقد أثار هذاالفيلم المشاعر المتطرفة والمعتدلة على حد سواء فقد

وجد الجميع أنه تجاوز الحدود بقدر لا يمكن تحمله.

ولعل أصداء فيلم «المهاجر» - لدينا نحن العرب - لاتزال تتردد، برغم أن المخرج يوسف شاهين قد كسب القضية القانونية(*) وتم السماح بعرض الفيلم إلا أن السؤال يبقى مفتوحا يبحث عن إجابة.. ما حدود المسموح.. وما بداية الممنوع فى تعامل هذا الفن مع العديد من الموضوعات الحساسة والدينية منها خاصة؟

سوق السينما العالمية

صناعة السينما ضخمة، وسوقها الأساسية داخل الولايات المتحدة ويقدرها البعض بحوالى ٤ بلايين دولار، وخمسة بلايين دولار من السوق الدولية، أما ما تدره عليها صناعة الفيديو (والكابل) فإن بعض الأرقام تقدره بـ ٣٥ بليون دولار.. وصناعة السينما اليوم هى صناعة أمريكية وهى صناعة النجوم أيضا، فيتنازع على جذب الجمهور إما المخرج أو الفنان أو الفنانة (البطل والبطلة) أو الاستديو نفسه، وكثير من النجوم يشترط أن تكون له الكلمة النهائية فى صناعة الفيلم.

تتسع صناعة السينما اليوم لتشمل دولا عديدة فهى فى الهند صناعة قومية يعيش عليها عشرات الآلاف من المواطنين، وتنتشر دور العرض السينمائية فى الهند بعدد أكبر من

* نشر هذا المقال فى يونيو ١٩٩٥ - حيث تلت ذلك تطورات أخرى للقضية القانونية التى واجهها الفيلم .

أجهزة التليفزيون الفردية، كما أن باكستان لديها صناعة سينمائية متقدمة، وكذلك اليابان والصين، وفى الغرب إيطاليا وفرنسا وإلى حد ما بريطانيا.

وتتخطى الصناعة السينمائية اليوم الحدود الإقليمية فيعتمد بعضها على أبطال من دول عديدة يشتهر منهم عديدون فى الصناعة الدولية من اسكندنافيا واليابان وإيطاليا كما تنتقل مشاهد التصوير لتطوف العالم.

ماذا عن السينما العربية ؟

على أهمية الرسالة التى تتحملها صناعة السينما فإن العرب يشكون من قضيتين: الأولى هى صورتهم فى السينما الدولية. ومن المفيد هنا ذكر أن صورة العربى فى السينما الدولية ـ فى معظمها ـ سلبية. وتبين التقارير التى طالعتها أنه انطباع قديم إلى درجة أن هناك واحدا من الأفلام القصيرة الأولى الصامتة التى تم إنتاجها عام ١٩١٥ عنوانه «موت عربى»! أما الجانب الآخر من الشكوى فهو صناعة السينما العربية نفسها التى شهدت صعودا وهبوطا وتداخلت فيها عوامل عديدة مازالت تفعل فعلها فى تعطيل رسالة هذه الصناعة المهمة، ونتجادل حولها بين أخذ ورد. فعلى الصعيد الثقافى مازال بعضنا يحلل ويحرم صناعة السينما أو مشاهدة الأفلام وتدور فى بعض من أقطارنا العربية نقاشات

ساخنة حول هذا الأمر، إلا أن الأهم أننا فشلنا كعرب فى توطين وتأصيل الصناعة السينمائية، واعتمدنا ـ كما فعلنا فى أمور أخرى ـ على النقل من القصص العالمى، أو استخدام الفانتازيا الخيالية. ويكاد يجمع المراقبون لصناعة السينما العربية على أن أفضل أعمالنا هى الأعمال القديمة التى أصبحت كلاسيكية اليوم، أفلام تمتد من «الوردة البيضاء» إلى «جعلونى مجرما» أو «الأرض»، «ليلى بنت الفقراء»، «لك يوم ياظالم»، أما التدفق التالى للأعمال السينمائية فإن معظمها انحدر إما إلى الأدلجة الفجة، أو الجرى وراء الربح السريع لإنتاج أفلام الفيديو.

قبل عشرين سنة عرض مخرج عربى من تونس هو «رضا الباهى» فيلم «شمس الظباء» فى العاصمة الفرنسية باريس، واستمر عرض ذاك الفيلم مدة خمسة وعشرين أسبوعا، ولا يستطيع أى فيلم عربى الآن أن يستمر فى العرض اليومى فى بلاده وبين جمهوره مثل ذاك الوقت أو يدانيه، حتى فيلم «المهاجر» ليوسف شاهين الذى رافقته ضجة سياسية لم يتعد عرضه أربعة أسابيع فقط.

لقد جربت السينما العربية أنواعا فنية من بينها سينما الموقف الأيديولوجى الذى انتشر فى عهود محددة فى أوروبا كالفترة الستالينية وما بعدها فى الاتحاد السوفييتى القديم،

وفترة النازية والفاشية فى كل من ألمانيا وإيطاليا، ولكن هذا النوع من السينما العربية ظهر ضعيفا ومحدود الأثر، ثم أصبحت سينما القصة الشعبية الرائجة، ولكنها أيضا لم تقدم ما يشد الجمهور العام فانصرف الناس عنها.

الاهتمام بصناعة السينما التى انتعشت بعد الحرب العالمية الثانية فى مدن مثل القاهرة وبيروت ومدن عربية أخرى بدرجة أقل، وفتحت نواد للسينما وصالات الفن التجريبى، سرعان ما انحسر - هذا الاهتمام - ثم تلاشى فى السبعينيات حتى أصبحت السينما اليوم تعانى أزمة حقيقية يعترف بها، أول من يعترف، العاملون فى مجالها.

أزمة السينما العربية

يكاد يجمع المراقبون الجادون لسوق السينما على أن أزمة السينما العربية ليست أزمة عقول، فلدينا من العقول فى الإخراج والتمثيل والتصوير ما نستطيع أن نفتخر به، إنما الأزمة هى أزمة تجارة وثقافة معا.

فالأزمة التجارية تتمثل فى سيطرة بعض المنتجين على الناتج النهائى للفيلم عن طريق وضع مواصفات واشتراطات يظنون أن الجمهور يرغب فيها، كالعنف، والمخدرات، والمطاردة، والقصص البوليسية، والجاسوسية، والرقص والكوميديا المبالغ فيها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن

انغلاق الحدود العربية أمام توزيع الفيلم بحرية يجعل سوقه أو أسواقه المحتملة من الضيق بحيث لا يغامر أحد بماله لإنتاج شريط سينمائى جيد ومكلف، خوفا من عدم تسويقه لسبب أو لآخر فى السوق العربية. ومن الإحصاءات الأخيرة المتوافرة فى أكبر عاصمتين للإنتاج السينمائى العربى، القاهرة وبيروت، نرى بوضوح محدودية صناعة السينما العربية، ففى سنة ١٩٩٤ أنتج خمسة وعشرون فيلما مصريا فقط، أما فى لبنان - وفى نفس الفترة - فقد تم إنتاج ستة أفلام جادة، وفيلم تجارى واحد.

وهناك عقبة ثقافية تقف أمام انتشار الفيلم العربى (غير المصرى) وهى اللهجة، فالمشاهد العربى يقبل على الأفلام المصرية لأن اللهجة المصرية لأسباب كثيرة قد أصبحت مألوفة للجمهور العربى، أما اللهجات العربية الأخرى كاللبنانية أو الشامية أو المغربية أو الخليجية برغم قبولها النسبى فى الأغنية، إلا أنها مازالت بعيدة عن القبول الشعبى لجمهور السينما. ومن الملاحظ أن صناعة السينما بشكل عام أصبحت عربية - غير قطرية إن صح التعبير - فالمعروف اليوم أن معظم أفلامنا بها ممثلون مصريون، ولكن رأس المال فى أغلبه لبنانى، خليجى، مصرى أو مشترك، كما أن شركات التوزيع لبنانية فى الغالب.

ومثل بقية مؤسساتنا الأخرى فإن الدراسات الإحصائية ودراسات المتابعة والتقييم تنقص صناعة السينما العربية، كما تنقص نشاطاتنا التجارية والصناعية الأخرى، ولا يوجد معهد عال أو مؤسسة تتابع وتجمع المعلومات الدقيقة عن المردود الاجتماعى، والفنى، والاقتصادى لمثل هذا النشاط المهم، فهى كمعظم نشاطنا الاقتصادى. الأمر فيها متروك للتجربة والخطأ والاجتهاد وحتى (الموضة)!.

ومن الأزمات التى تطرحها صناعة السينما العربية أن الكبار فى الإخراج والتمثيل قد شارفوا على التقاعد، أو هم تقاعدوا بالفعل، أما الشباب أو متوسطو العمر والتجربة فلم تتح لهم الفرص المناسبة ـ إلا فيما ندر ـ لإظهار قدراتهم. لذلك فإن السينما العربية تشيخ بسرعة، ومازال نجومها فى الإخراج والتمثيل والتصوير هم نجوم ربع القرن الماضى، والداخلون الجدد إلى هذه الصناعة قد أغراهم النجاح السريع فلم يتوافر الوقت لهم أو لغيرهم لإنشاء مدارس فنية، والقليل منهم ـ لانشغالهم طوال الوقت ـ يشاهد أفلاما جيدة أجنبية، وعندما تشاهد اليوم فيلما عربيا يشد إليه الأنظار فهو فى الغالب قصة مقتبسة وربما بتفاصيلها ـ مع تغيير الأسماء والمواقع ـ من فيلم أجنبى.

ولقد نافس التليفزيون فى حياة الجمهور العربى السينما

إلى درجة أحدثت تدهورا شديدا فى دور العرض السينمائية على ما كانت عليه قبل ربع قرن أو يزيد، وأصبح المشاهدون فى عواصمنا العربية عندما ينتقلون إلى صالة السينما، فإنهم يفعلون ذلك فى الغالب لمشاهدة عرض سينمائى أجنبى.

ما ينقص صناعة السينما العربية هو التوسع والتمويل، أى محاولة مخاطبة جمهور أوسع عن طريق ابتكار موضوعات تهم هذا الجمهور وتخدمه عن طريق الفن السينمائى خدمة متميزة، مع الحصول على التمويل المناسب - وليس الشحيح حتى الآن - الذى يجبرها على طبخ الموضوعات دون ضبطها، هذا التمويل الوافر يمكن به أن تتحول إلى صناعة حقيقية، وليس صناعة موسمية انتقائية، كما هى الآن.

لا يوجد جمهور واحد للسينما ولكن عدة جماهير، فهناك المتعلمون المستنيرون، وهناك المحرومون من العلم، وهناك من يتذوق الفنون المصاحبة كالصورة والموسيقى، وهناك من يريد أن يمضى وقتا فقط لمشاهدة قصة محبوكة، تنقل له صورة من عالم خارج نطاق بيئته، لذلك فإن الحديث عن جمهور واحد من الأخطاء العملية الشائعة التى يرتكبها بعض العاملين فى صناعة السينما العربية، ويصاحب الخطأ خطأ آخر هو محاولة إرضاء الجمهور بأية صورة، فالقيادة هنا يجب أن تكون فى يد من يفهم هذا الفن الرفيع، ولا ينتظر

الخضوع لذوق المشاهد فقط.

ومن ظواهر أزمة السينما العربية فقر الأدبيات حولها، فإننا نستطيع أن نحصل على أكثر من كتاب أو حتى موسوعة عن تاريخ السينما فى إيطاليا أو فرنسا، أو تاريخ السينما فى الولايات المتحدة مع إشارات محددة للأفلام التى أحدثت تحولا فى تاريخ السينما من حيث تطور الفن السينمائى أو الإخراج أو التمثيل أو التصوير، ولكن عندما نلتفت إلى السينما العربية لا نجد إلا نتفا ومذاكرات شخصية قليلة، أو كتابات سطحية لغرض شخصى غير علمى. ضعف التوثيق هذا وقلة مصادر الدراسة يجبران العاملين فى هذه الصناعة على تكرار الأخطاء والدوران فى حلقة مفرغة.

عدم الجدية هذه تشاهدها فى البرامج التليفزيونية القليلة المخصصة لنقد أو تقديم الأفلام الجديدة، ففى الغرب نجد أن من يقدم لك خلاصة عن الأفلام المعروضة أو الجديدة أناس لهم خبرتهم ومتابعتهم فى هذا المجال، ويعرفون ما يتحدثون عنه، وتصر برامجنا التليفزيونية - إن قدمت مثل هذه البرامج عن الأفلام - أن تقدمها عن طريق وجهٍ حسن فقط، لا يحسن التقديم ولا يعرف عما يتحدث!! وهى إحدى ظواهر اهتمامنا بالمظهر دون المخبر.

لحظات سينمائية

تتحول السينما أحيانا لتكون نوعا من الثقافة البصرية النادرة المثال، فهى تختلف عن مشاهدة لوحة فنية لأنها مليئة بالحياة، وتختلف عن التأمل المباشر للطبيعة لأنها تختزل الأبعاد والمسافات، وهى تحيط كل هذا بهالة كبيرة من المؤثرات. وليس المهم فى كل هذا الجانب الجمالى فى الموضوع وإنما ارتباط هذا بالذات الإنسانية.. نحن نريد أن نرى كل شىء من خلال الذات الإنسانية، أفراحها وآلامها. من أجل هذا كانت سيطرة الفيلم الروائى "Fiction" الذى يعتمد عل قصة موضوعة وأحداث وحوار.

لقد أنتجت مئات الأفلام التسجيلية المؤثرة واستخدمت فيها أحدث التقنيات، وأفضل وسائل الإبهار، وظفر بعضها بجوائز عالمية وبرغم ذلك فالجمهور لا يقبل عليها، ولم نسمع أن دارا واحدة للسينما - وعددها بالملايين حول العالم - قد تخصصت فقط فى عرض الأفلام التسجيلية، فالإنسان يسعى دائما إلى أنسنة كل شىء، وفى وسط هذا التركيز والكثافة فى الوسائل البصرية التى نعيشها فإن صورة الإنسان تظفر دائما بالأولوية حتى فى أسوأ أحوالها.

إن فى السينما نوعا من الطقوس تشبه الطقوس التى كانت تقام فى العبادات القديمة، فهى تحدد لك مكانتك الاجتماعية بثمن التذكرة التى ستدفعها، وتحدد لك زاوية الرؤية المريحة

من خلال المقعد الذى تختاره، وتطفىء الأنوار حتى تلغى تفاصيل العالم الواقعى من حولك ليشدك ما هو أمامك فقط.

وتبدأ هالات الأضواء وترتفع أصوات الموسيقى كأنها ابتهالات تأخذك إلى بوابات العالم الجديد. فى هذه اللحظة تكون مستعدا لاستقبال أى شىء. إن الفردية تلغى هنا، وتصبح أنت رغما عنك جزءا من الأشباح المظلمة التى تجلس حولك.. ولأن الحياة تأتيك عبر الشاشة غاية فى التكثيف، فهى تحول لحظات الحياة العادية والمألوفة إلى لحظات مؤثرة لا تنسى، ففى سينما الصمت أو سينما البراءة - كما يحلو للنقد أن يطلقوا عليها - لا يمكن نسيان شارلى شابلن وهو جالس أمام الآلة التى تحاول إطعامه وهو عاجز عن فعل أى شىء، أو نظرة الجنون التى تبدو فى عين مريضة الدكتور كاليجارى وهى تدخل عيادته فى الفيلم الكلاسيكى «عيادة الدكتور كاليجارى»، أو مشهد الجثث الممزقة فوق درج أودسا فى فيلم «المدرعة بوتمكين» للمخرج إيزنشتين، أو سكارليت أوها وهى واقفة على حافة الأفق تراقب غروب مدينة «اتلانتا» المهيب وهى تقسم أنها لن تجوع أبدا بعد اليوم فى فيلم «ذهب مع الريح»، ولا لحظة الصراع بين الإنسان وجهاز الكمبيوتر الذى يتحكم فى سفينة الفضاء التى يسبحان بها فى الفضاء فى فيلم «اوديسا ٢٠٠٢» كأنه كان يتنبأ بطغيان الآلة وتحكمها فى

حياة الإنسان.. إنها نفس القضية التى ناقشها بأسلوب كوميدى شارلى شابلن فى فيلم «الأزمنة الحديثة»، ولا لحظة موت آلى ماكجرو فى نهاية فيلم «قصة حب» وهى تحدثه عن السيمفونية الخامسة لبتهوفن وعندما يقول لها حزينا: «اللعنة على السيمفونية الخامسة.. دعينا نتحدث عن شىء جدى» فتقول له: «هل تريد أن نتحدث عن الموت»..، ولا اللطمة التى أخذها فريد شوقى على قفاه وهو يدخل سوق الخضار لأول مرة وتحول هذه اللطمة حياته ليصبح واحدا من المعلمين الكبار فى فيلم «الفتوة» لصلاح أبو سيف، ولا عبد الحليم حافظ وهو ضائع فى الشوارع بعد أن اكتشف أنه لقيط فى «الخطايا»، ولا الطفل الصغير فى «أحلام مدينة» محمد ملص وهو يعيش لحظات انفصال الوحدة بين مصر وسوريا، ولا تقاليد العرس فى فيلم «عرس الجليل» لمشيل خليفة، ولا لحظات العذاب التى قضاها مايكل انجلو وهو متسلق على ظهره يرسم لوحة يوم الحساب على سقف كنيسة (السيستاين)، بينما يتساقط زيت البرافين فى عينيه حتى يصاب بالعمى فى فيلم «العذاب والمتعة» الذى قام به شارلتون هيستون. وتأمل هاملت فى المصير البشرى وهو يمسك جمجمة ويحاور حفار القبور عن الملك الذى يأكل سمكة ثم يموت.. فتأكل جسده دودة صغيرة.. وتأكل السمكة بدورها

الدودة الصغيرة.. إنها نفس دورة الحياة التى يتحدث عنها أشهر فيلم كارتونى هذا العام «الأسد الملك» عندما يسير بجانب ابنه الشبل الصغير ويقول له: «إننا نأكل الغزلان.. وعندما نموت ندفن فى الأرض وتتحول أجسامنا إلى عشب نضر تأكلنا الغزلان»، وكذلك الوجه المعذب للفلاح المصرى الذى لعبه محمود المليجى فى فيلم «الأرض» وهو يُضرب حتى يسيل دمه، ثم يربط من رجليه ويجر على الأرض مشدودا إلى إحدى الخيول وهى تعدو كى يجرف بجسده زهرات القطن المتفتحة بعد أن عجز عن جمعها بيده، ولا مشهد النسوة العاريات المرتجفات من الخوف فى فيلم «قائمة شندلر» وهن يسقن إلى أحد معسكرات الاعتقال الألمانية ويُدخلهن الجنود إلى قاعة واسعة يعتقدن أنها أحد أفران الغاز ولكن عندما تسقط فوقهن المياه الباردة للاستحمام فإنهن برغم البرد القارس والجوع يصحن فى فرح طاغ.. إنها أعظم صرخة حياة يمكن أن تسمعها فى أى مكان، توقعوا الموت فجاءتهم الحياة، ولو للحظة.. ولا مشهد الحب الآسر فى فيلم «رجل وامرأة» حيت تسأل أنوك إيميه حبيبها.. ماذا يفعل عندما يشب حريق فى منزل.. هل يختار إنقاذ لوحة ثمينة لا تقدر بمال.. أم يختار إنقاذ كلب صغير؟.. ويقول حبيبها «جان لوى ترتيان» إنه يفضل انقاذ الكلب الصغير.. أى أنه يختار مرة

أخرى الحياة.. وهذا هو سحر السينما الجيدة أنها منحازة دائما لكل ما هو حي، ولا مشهد الفيلم الشهير «روما.. روما» لأعظم مخرجي السينما على الإطلاق فلليني وهو يتتبع مكتشفي الآثار في الأقبية السفلية لمدينة روما عندما يجدون على الجدار رسوما قديمة رائعة.. ولكن ما إن يعرضوها لأول شعاع من الضوء، ولأول هبة من الهواء.. حتى تنهار جميعا وتتبدد مثل الحلم الذي لم يكن.. إنها مرثية لحضارات قديمة تموت أمام حضارتنا المعاصرة المليئة بكل نذر التلوث والفناء.

المستقبل

السينما أيضا تكون جريئة عندما تدق أجهزة الإنذار كي توقظ البشرية من غفلتها.. وهي تستخدم الخيال أحيانا لتحذرنا من مصيرنا المرعب.. من ينسى مشهد الطيور الوديعة وقد تحولت فجأة إلى كائنات مفترسة تهاجم الإنسان وتحاصره في فيلم ألفرد هيتشكوك الشهير «الطيور» وكذلك في فيلم «كوكب القرود» حين يهبط رائد الفضاء الذي ضل طريقه في المجرات البعيدة فيكتشف أن الأرض قد أصبحت كوكبا لا يعيش عليه سوى القرود بعد أن دمرت الحرب النووية كل حضارة الإنسان، أو عندما يرقص العالم رقصة صاخبة فوق جزر محاطة بالمياه الملوثة والسمك يطفو ميتا في فيلم «الرقص على الهيدروجين»؟ لقد شاركت السينما في

معظم الحروب التى خاضتها البشرية. ولكنها عاشت فى ظل الحرب الباردة أطول الأعوام، وعبرت عن مشاعر الخوف والقلق وعدم اليقين وقدمت صورا ساخنة لمعارك ظلت باردة.

هذه اللحظات السينمائية النادرة ـ وغيرها كثير ـ هى لغة الفن الذى يأخذ فتات الحياة اليومية واللحظات العادية ليعيد تركيبها فتصبح مثل قطعة من الماس، يشع الضوء من كل جوانبها. إن المرء ليحتار أين هى الحياة الحقيقية؟.. هل هى فى الواقع حيث تتكرر اللحظات المعيشة بلا تواتر.. وتنتهى القصص بفعل التقادم وتتداخل دورات الميلاد والموت فى عشرات التفاصيل العادية التى لا تستحق التوقف؟. أو هى تلك الحياة النابضة على الشاشة والأحداث التى تتتابع فى تصاعد مستمر، النساء الجميلات والرجال الأشد وسامة، والفقراء الذين يملكون الحق فى حلم «سندريللا».. وذلك الحلم الذى لا يجرؤ على مواجهته فى الواقع.. أى حياة نتمنى منهما؟.. أين الخيال، وأين الواقع؟.

إن السينما كما قلت فى المقدمة.. مرآة ضخمة.. قد تجمل الشىء أحيانا ولكنها فى تكبيرها للشىء عشرات المرات قادرة على اكتشاف أدق العيوب وهذا هو المطلوب منها.. إثراء الحياة وكشف عيوبها ومساعدة الإنسان حتى يكون أكثر إنسانية بواسطة هذا الفن الجميل.

١٦

تخطي الموانع:

الطريق الدولي السريع للمعلومات

خبران يبدوان للوهلة الأولى أن ليس بينهما رابط، إلا أن التدقيق فيهما يقدم للمراقب زادا للتفكير العميق فى مناخ مفارقات العصر الذى نعيشه. الخبر الأول نصه غير المباشر يقول:

«هاجمت مجموعة من (المواطنين) منازل ومتاجر بل حتى مكاتب حكومية بالفئوس والمطاوى لتدمير أطباق هوائيات استقبال البث التليفزيونى عبر الأقمار الصناعية وهم يهتفون: (الموت للأقمار الصناعية)!! ومن المعروف أن بيع وحيازة واستعمال الأطباق الهوائية هى (جريمة) يعاقب عليها القانون لمدة عشرين عاما».

انتهى الخبر الذى تناقلته وكالات الأنباء العالمية منذ أشهر عديدة.

أما الخبر الثانى فمكان وقوعه - وهنا لا بأس من تحديد المكان وتحديد مصدر الخبر - فى بريطانيا، ومن جريدة (الصنداى تايمز) ذائعة الصيت، فقد قررت الصحيفة أن تختبر - كسلطة رابعة - السلطة الأولى (البرلمان)، فأوعزت لبعض محرريها أن يقدموا مالا لبعض النواب من أجل أن يوجهوا أسئلة معينة فى البرلمان!! وهكذا كان.. وافتضح الأمر.. ويبدو أن عملية الاستدراج تلك كان الهدف منها البرهنة على أن ثمة مرضا قاتلا يتغلغل فى المؤسسة

الديمقراطية العريقة يتيح لشركات وأفراد أن يدفعوا بمصالحهم - بواسطة المال - إلى الأمام!

الخبران أحدهما من العالم الثالث، لا يعتبر مشاهدة البرامج التليفزيونية المنقولة عبر الأقمار الصناعية مجرد جريمة بل إثما كبيرا، والآخر من العالم المتقدم. وما يجمع بين الخبرين هو سلطة الإعلام، أو ما يسميه البعض بالسلطة الرابعة. فهناك فى العالم الثالث «مقاومة» حكومية أو شعبية أو ثقافية لانتشار الإعلام بحقه وباطله، إيجابياته وسلبياته، وهناك فى العالم الأول سباق حول التطور الإعلامى واتساع نشاطه، وتمكينه من أداء الدور المطلوب منه.

إن قاعدة هذا التنافس ثنائية ومتعارضة فى بعض الأوقات. الأولى هى أن من يملك زمام وسائل الإعلام أو وسائل الاتصال الأكثر شمولا واتساعا يملك السيطرة والسلطة والقوة والتأثير، لأنها ببساطة تحقق التأثير ولو على مدى طويل لو بتدرج، إلا أنه تأثير فى الرأى العام المحلى أو الدولى يقود فى النهاية إلى عمل يقوم به الناس عن اقتناع، سواء كان هذا العمل محليا أو اجتماعيا أو سياسيا أو دوليا أو مدنيا أو عسكريا.

أما القاعدة الثانية فهى حرية تدفق المعلومات، وهى قاعدة سياسية وأخلاقية وإنسانية، لأن حق التمتع بحياة أفضل

للإنسان مرتبط ارتباطا وثيقا بتوافر فرص الاطلاع على المعلومات وحق حرية تدفق المعلومات، إنك لا تستطيع أن يكون لديك مجتمع معاصر ومعافى دون حرية تدفق المعلومات فى أرجائه.

معضلة المنح والمنع

إن الديمقراطية هى المصطلح الذى تسربت نتائجه فى كل مكان بعد سقوط التجربة السوفييتية، والتى أخذت الشعوب تلتحق به ـ بأشكال مختلفة ـ الواحد بعد الآخر على أساس أنه الصيحة الجديدة للخلاص، ولكن الديمقراطية فى جانب منها ـ كما يقول الخبير الصحفى الفرنسى دومنيك فيدال رئيس الجمعية الأوروبية لتعليم الصحافة ـ ليست فقط صناديق الاقتراع، بل هى أيضا الحريات الصحفية.

إذن.. نحن أمام معضلة فى العالم الثالث، فإلى أى حد يمكن أن «نمنح» هذا التدفق مسارات للوصول إلينا؟.

أمام الثورة، بكل معنى الكلمة ـ وهى ليست كلمة جافة على أية حال كما سنرى لاحقا ـ أمام الثورة فى وسائل الاتصال واستخداماتها المذهلة الآن ينبهر العقل، على الرغم من أن الخبراء يصرون على أن ما نراه منها هو مجرد مقدمة، أو مجرد الجزء الظاهر من جبل الجليد العائم فى المحيط، ما خفى منه سيكون أعظم. أى أن ما هو آت فى السنوات الأولى

من القـرن القــادم سـيكون أعظم وأكـبـر، أمـام هذه الثـورة الاتصالية، فإن مـعركة «المنع» معركة خاسـرة منذ بدايتها لعدة أسباب أساسية: السبب الأول أن منع الاستقبال - التليفزيونى أو غيره - ممكن اليوم لأن أطباق الهوائيات بارزة ومشـاهدة، ولكن خـلال سنوات قـلائل سـوف يصـبح بالإمكان المشـاهدة بآلة التقاط أصغر من ذلك بكثير لا تتعدى حجم رغيف الخبز المتوسط! ويمكن أن يوضع فى أى مكان داخل المنزل! فـأمـام السلطات فى العــالم «المانع» إمـا تفـتـيش كل المنازل أو التغاضى عن ذلك!

أما السبب الثانى فإن تكاليف التشويش على الالتقاط هى الآن تكاليف فلكية لا تستطيع دولة أن تقوم بها إلا إذا كـانت ذات قدرة مالية فائقة، وحتى لو تم ذلك فـإن تأثيرهـا محدود. أما السبب الثالث وليس الأخير فهو أن الناس يحبون ما يُمنَع عنهم قسرا، وهذا نزوع إنسانى طبيعى.

لذلك فـإن الدراسـات المتوافرة تؤكد لنا أن الدول التى تمنع الالتـقـاط الدولى - ولنسـمـه بهـذا الاسم الشـامل - يميل مـعظم مـواطنيـهـا على الحـدود لمشـاهدة البث من مـحطات أخـرى قريبة!! هذه بعض الأسـبـاب وليست كلهـا، والمؤكد أننا أمـام ثورة اتصال كاسحة لا يقف أمامها حاجز أو عثرة.

البعض يناقش - وليس لدىّ اعتراض على فكرته - أن هناك

برامج مستهجنة تبث من بعض المحطات، لسنا مجبرين على مشاهدتها، وهو قول حق، لكنه ليس مقصورا على العالم الثالث (المانع)، ولكنه يتردد فى بعض دول العالم الأول (المانح).

وهى معضلة ليس لها دواء إلا الانفتاح وتقوية البناء العقلى والنفسى والروحى للمتلقى ليقيّم هو عن طريق فهمه ما يريد وما لا يريد، حيث إن الأصل هو عدم فرض جماعة ذوقها أو رأيها أو حتى قيمها على الآخرين، ولا أرى طريقا غير ذلك.

البرامج المستهجنة أحد وجوه ثورة الاتصال الحديثة، سلبية نعم، ولكنها ليست الوجه الوحيد، فهناك وجوه أخرى حسنة، إلى درجة أن البعض يعتقد أن التليفزيون سوف يقود المعارضة.. حتى خارج البرلمان، وليس بالضرورة أن يكون هذا التليفزيون محليا، فيكفى أن تحصل على ترخيص فى فلوريدا مثلا فى الولايات المتحدة كى تبث عبر الأقمار الصناعية إلى المتحدثين بالإسبانية فى أمريكا الجنوبية كل ما تريد. ويمكن بالمناسبة أن تبث بأية لغة تريد وإلى أى ركن من أركان العالم.

الطريق الدولى السريع

تحول التليفزيون اليوم إلى نوع من الراديو المرئى وأكثر أنواعه يبث خلال قنوات يصل عددها إلى العشرات، ويمكن

أن يشاهد ويسمع فى أى مكان من العالم، ويختار المشاهد القناة التى تعجبه، إن التطور الهائل الذى تشهده التكنولوجيا وعلم الإلكترونات، يصعب على الشخص المتوسط، فى رأيى، استيعابه، وعندما كنت أبحث فى هذا الموضوع تعمدت ألا أقرأ فى بعض تفاصيل هذه الثورة التقنية لأنها ببساطة فيما لو كتبت عنها لقال كثير من القراء إن كاتبنا يهذى!! فليس ذلك بحقيقة، وإنما مجرد خيال، ولكنه مع الأسف أو من حسن الحظ هو حقيقة لا يريد البعض منا أن يعترف بها الآن للنأى عن المشاكل والمنغصات!

لنأخذ مثلا واحدا فقط على ما أقوله، هو ما يعرف بشبكة الكمبيوتر الداخلية فى الولايات المتحدة، وهى شبكة ليست مقصورة على أمريكا، ولكن كل من لديه جهاز كمبيوتر شخصى وخط تليفونى يمكن له أن يتصل بها ويدخل ضمنها! من المفارقات العجيبة أو الإيجابية أن ما يسمى الطريق العظيم للمعلومات، أو ما سميته أنا بالطريق الدولى السريع للمعلومات، بدأت فكرته قبل ثلاثين سنة. فى الولايات المتحدة لأسباب أمنية - خوفا من أن حربا نووية مفاجئة سوف تعطل الاتصال من بين أمور أخرى بين المراكز الحيوية والأمنية الأمريكية - صمموا شبكة كمبيوتر قادرة على الوصول إلى محطات طرفية بعيدة لتمكينهم من نقل المعلومات، وعندما

بدىء فى إنشاء مثل هذه الشبكة فى عام ١٩٦٩ تفرعت - وهنا مفارقة أخرى - لخدمة أغراض أخرى بسرعة، أحد هذه الأغراض سمى وقتها بالبريد الإلكترونى، وتطورت هذه الشبكة مع تطور أجهزة الكمبيوتر الصغيرة وبرامجها، حتى أصبحت ما يُعرف اليوم بالشبكة الداخلية، وهى أكبر شبكة للمعلومات السريعة والخدمات المتنوعة، وقد استحوذت هذه الشبكة فى أكثر من مرة على الخدمات المتنوعة، وقد استحوذت هذه الشبكة فى أكثر من مرة على مانشيتات الصحف والأخبار الأولى للتليفزيون بسبب هذا الخبر أو ذاك، كان آخرها ما تناقلته وسائل الإعلام الأمريكية وقصته كالتالى:

قامت شركة صغيرة تعمل بالاستشارات القانونية - مكونة من زوج وزوجته - بوضع إعلان صغير فى هذه الشبكة يقول إن الشركة على استعداد لاسخراج «بطاقة خضراء» (البطاقة التى تتيح للمهاجرين البقاء فى الولايات المتحدة) على أساس دفع مبلغ من المال. هذا الإعلان الصغير أثار مشكلة دولية بدأت ولم تنته حتى الآن، لأن هذه الشبكة الدولية كما أسلفنا تتصل بشبكات كمبيوتر أخرى فى العالم، ويقدّر مستخدموها بحوالى خمسة وعشرين مليونا من أصحاب الكمبيوتر الشخصى، أى ليس أقل كثيرا من كل سكان كندا!

إشارة البطاقة الخضراء استدرجت رسائل استجابة من أطراف العالم المختلفة، أولا بالعشرات ثم بالمئات ثم بالآلاف، مستخدموا الشبكة فى استراليا أخذوا يرسلون ألف طلب معلومات عن الموضوع فى اليوم الواحد! هذه الإشارات القادمة بعشرات الآلاف أثارت المستخدمين الأمريكيين، إلى درجة أن أحدهم هدد بأنه سيأتى إلى هذه الشركة «القانونية» ويحرقها عن بكرة أبيها! وبعد ثلاثة أيام قامت الشركة التى أشركت شركة الاستشارات القانونية فى الشبكة بقطع الاتصال عنها، لكن بعد أن حصل صاحبا الشركة على مائة ألف دولار من الراغبين فى الحصول على خدمات شركتهما.

هذه الشبكة التى تقدم الخدمات والإعلانات وفرص التسوق والتعارف ومواعيد الغرام، بجانب عشرات الخدمات الأخرى، تثور حولها مناقشة عارمة.. البعض يريد أن يوسعها ويحميها والبعض الآخر يريد أن (ينظمها) إلا أنها قبل وبعد ذلك كله حقيقة واقعة، وهى حقيقة مدهشة يستطيع المشترك فيها أن يحقق الكثير، وها هى ذى بعض الأمثلة:

● التحدث مع الآخرين: أساس الشبكة هو الحديث مع آخرين عن طريق الكمبيوتر خلال خط تليفونى، ومن ثم تستطيع أن تحصل على معلومات تريدها أو ترسل بريدا إليكترونيا للعاملين فى مجالك على المستوى العالمى، حتى

الآن هناك أكثر من مليونين ونصف مليون مستخدم كمبيوتر على اتصال ببعضهم عالميا من خلال هذه الشبكة، والرقم يتضاعف كل عام، الاتصالات للحديث فقط أو البريد أو تبادل المعلومات، إنه مكان صغير كبير يمكن أن نتبادل فيه المنافع ونلتقى بأصدقاء.

● العمل: تستطيع الإدارة فى أى عمل أن تتبادل المعلومات مع نظيراتها فى نفس العمل فى مواقع أخرى بعيدة، فإدارة لمصنع إنتاج فى هونج كونج مثلا تستطيع أن تتصل بمكان المصنع فى الفلبين أو أى مكان آخر تتوافر فيه أيد عاملة رخيصة عن طريق هذه الشبكة، كما يستطيع بعض العاملين أن يخفضوا الوقت ويزيدوا الإنتاج عن طريق العمل وهم فى المنزل، بالنسبة للأعمال التى يمكن إنجازها فى البيت.

● التسوق: لا تحتاج إلى أن تركب سيارتك أو المواصلات العامة وتصحب أم العيال والأبناء للطواف بالمحلات، ففى الولايات المتحدة مثلا هناك قناة للتسوق تصل إلى ٥٠ مليون منزل من خلال تليفزيون الكابل، المشترى يستطيع أن يختار السلعة ويقرأ حتى محتوياتها والتحذيرات الطبية عنها ثم يضعها ـ إلكترونيا ـ فى سلة مشترياته.

● اللعب : الترفيه المنزلى صناعة تتطور وبسرعة، ومن خلال الاتصال تستطيع أن تحدد الفيديو (الشريط) الذى تريد

أن تراه والساعة المحددة لذلك من خلال كمبيوتر مركزى، وعبر الشبكة التى تعطيك الخيارات المتعددة مشفوعة بنصائح الخبراء فى السينما وغيرها.

هذه بعض الاستخدامات المتوافرة حاليا ضمن شبكة المعلومات الدولية، وهى متوافرة فى كثير من بلدان العالم بما فيها بعض البلدان العربية، فبعض شركات النفط العاملة فى الخليج وكذلك بعض البنوك وشركات أخرى أصغر ومؤسسات خاصة فى بلدان عربية عديدة مشتركة فى هذه الشبكة، إضافة إلى بعض مؤسسات البحث العلمى والجامعات.

الثورة المعلوماتية ليست قادمة ولكنها موجودة اليوم معنا، ويجرى تطويرها بسرعة فى ثلاث مناطق دولية: فى اليابان حيث تجرى التجارب على النظام الدولى الأول للاتصال، وفى أوروبا حيث تتجه جهود دول السوق الأوروبية المشتركة ماليا وفنيا لتطوير نظام اتصال يحاول التفوق على نظام الاتصال الذى بنى فى الولايات المتحدة وهى الطرف الثالث فى هذا السباق.

اقتصاديات نظام الاتصال الجديد

من الصعب أن نتصور الآن كم كان مدهشا اختراع التليفون، وقليل من الناس عرفوا - فى الربع الأخير من القرن

التاسع عشر - أن الاتصال بين الناس قد تغير بشكل جذرى وإلى الأبد، الأمر الذى يعرفه معظم الناس اليوم. فى سنة ١٨٨٤ بعد ثمانى سنوات من حصول الكسندر جراهام بل على براءة اختراع لآلة تتيح له نقل الصوت من خلال سلك إلكترونى، كتبت إحدى صحف كاليفورنيا على فلاح شاهد هذه الآلة الغريبة لأول مرة: دخل مكتب التليفون، وكتب بعض كلمات على ورقة ولفها ثم أدخلها عنوة فى فوهة الآلة وضغط عليها بقلم رصاص وكسر بذلك صحن الذبذبات.. ثم جلس الرجل لانتظار الرد!! ولما لم يأت الرد شكا محتدا لعاملة المكتب، فلما يئست من الأمر أخرجت الورقة، فإذا مكتوب بها: ابعثوا لى سلسلة لربط القرد!! فسألته العاملة: أى قرد تعنى؟ لكنها لم تحصل على إجابة، فكأنها حالة شاملة من الدهشة!!

ربما تكون هذه القصة مصطنعة لإظهار دهشة الناس وقتها من هذه الآلة العجيبة، ويبدو أن بعضنا - كمن يتظاهرون بالسكاكين والعصى ضد أطباق الالتقاط الهوائية - هم بموقع ذلك الفلاح الأمريكى.

ما نعرفه الآن أن طريق المعلومات الدولى السريع فى إحدى تسمياته يشير إليه المختصون بأنه طريق مازال متربا وضيقا! وذلك يعنى أن ما وصلنا إليه فقط هو البداية، إنها مرحلة العربات التى تجرها الخيول، فلم يعرف أحد بعد ماذا تعنى

السيارة!

اقتصاديات نظام الاتصال الجديد، هي التي تقود الاقتصاد اليوم، ففي كل عصر هناك مجموعة من (الصناعات) تقود الاقتصاد. قبل قرن كان الفحم والسكة الحديد هما ما قادا النمو في أوروبا والولايات المتحدة على التوالي، بعد الحرب العالمية الثانية كانت (الموضة) هي التصنيع والصناعات التحويلية، ثم جاءت السبعينيات والثمانينيات بقطاع جديد سمي (قطاع الخدمات) كالخدمات الصحية والخدمات القانونية والتوزيع.. وغير ذلك....

هذا القطاع هو الذي حقق زيادة في فرص العمل للعاملين، وحقق أرباحا ضخمة للشركات، محرك الاقتصاد في التسعينيات ليس التصنيع ولا الخدمات إنما هو (صناعة الاتصال)، أجهزة الكمبيوتر وبرامجها حققت ٣٨٪ من النمو الاقتصادي في الولايات المتحدة سنة ١٩٩٠.

اقتصاد صناعة الاتصال هو القطاع المتوسط والنامي سواء في خلق فرص للعمل أو في تحقيق الأرباح، إنه تصنيف وتوزيع المعلومات، من المعلومات المالية إلى الترفيهية، وهو اقتصاد منتعش، وتدخل صناعة الاتصال في معظم مجالات الإنتاج، فشركات كثيرة في كل القطاعات الإنتاجية تستخدم تقنية الاتصال الحديثة حتى تصبح أكثر قدرة على المنافسة.

باختصار.. فإن دور الاتصال الجديد يغير طبيعة الاقتصاد إلى غير رجعة، كما يقول كنث أرو من جامعة ستانفورد، وهو الحاصل على جائزة نوبل للاقتصاد.

قانون مور

التطور في اختراعات أسلاك توصيل الرسائل أو الألياف الضوئية «أوبتك فايبر»، والكمبيوتر وسرعة توصيلها ودقتها واتساع استخدامها في مجالات الحياة من العمليات الطبية إلى صناعات السيارات، تطور يغير المجتمع، وهذا التطور يخضع اليوم إلى ما يُعرف بـ «قانون مُور Moor's Law»، والقائل بأن كثافة استيعاب الشرائح تضع الإنسان أمام إمكانات تبدو غير محدودة.

روسيا بدأت خطة لتحديث شبكة اتصالاتها عن طريق رصد ٤٠ بليون دولار لهذا التحديث، والصين وضعت بـ ١٠٠ بليون دولار لإضافة ٨٠ مليون خط هاتفي إلى سنة ٢٠٠٠ (أربع مرات ما لديها اليوم). بلاد مثل تايلاند والمجر، ضمن بلاد أخرى، تستثمر بكثافة في اقتصاد الاتصال - أو سلعة الاتصال - ليست مثل السلع الأخرى، فبرامج الكمبيوتر والترفيه ونقل المعلومات يمكن أن تصدر ببساطة، كما أن العمل في هذا القطاع يدر دخلا أكبر، فأجور المبرمجين مثلا في الولايات المتحدة تزيد ١٢٪ على أجور العاملين في أعمال

مشابهة.

كانت صناعة الطائرات فى الولايات المتحدة هى «سفينة القيادة» فى أسبقيتها فى عملية التصدير إلى الخارج، ولم تعد كذلك، فقد صدّرت أمريكا من أجهزة المعلومات والكمبيوتر والبرامج فى سنة ١٩٩٣ ما قيمته ٦٢ بليون دولار تقريبا، أى ضعف الـ ٣٣ بليون دولار التى كانت حصيلة مبيعات الطائرات إلى الخارج! فالتطور السريع، وإلى الأحسن، فى شبكة الاتصالات الدولية سوف يجعل إرسال معلومات من قارة إلى أخرى فى سهولة إرسالها من حجرة إلى أخرى فى نفس الطابق، وبالتالى سيكون من السهل تصدير خدمات إعلامية وترفيهية بل وحتى خدمات قانونية ورعاية صحية وتعليمية، ففى الصيف الماضى - على سبيل المثال - تمكن أطباء فى جنوب ولاية داكوتا - قليلة الكثافة السكانية - من استخدام شبكة اتصالات الولاية للاستفادة من استشارات طبية مباشرة من متخصصين يبعدون عنهم مئات الآلاف من الكيلومترات.

مثل هذه الخدمات يمكن أن تصل إلى أية بقعة فى أى مكان من آسيا إلى أوروبا أو أمريكا الجنوبية أو غيرهما.

عن طريق قنوات الاتصال السريع هذه أصبح بإمكان بعض المستشفيات أن تقرر ما إذا كان بها علاج لهذا المريض أو

ذاك من خلال الاطلاع على ملفه الطبى ودون أن ينتقل هو من مكانه!

فى معظم عقد الثمانينات كان الاقتصاديون ينتابهم بعض الشك فى فاعلية اقتصاد الاتصال، فحتى ذلك الوقت لم يجدوا أى تأثير إيجابى فى العلاقة بين استخدام الكمبيوتر والإنتاجية، إلا أن نتائج دراسات أخيرة أثبتت العلاقة الإيجابية - دون شك - فكلما استُثمر أكثر فى الكمبيوتر ودُرِّب الناس عليه تدريبا جيدا فإن العائد الإستثمارى من نظم المعلومات يزيد على ٥٠٪ ، ومعظم هذه الفائدة ترد إلى المستهلك فى صورة خدمات أفضل وأسعار أرخص.

تقول لنا شبكة الـ AT&T الأمريكية للتليفونات إن الناس لايزالون يتحدثون مع بعضهم من خلال التليفون، ولكن نسبة (المعلومات) المارة (دون حديث) فى شبكاتها الدولية، إما من خلال كمبيوتر إلى كمبيوتر، أو بالفاكس، تصل إلى ٥٠٪ من الوقت، وتعلل مصادر الشركة هذا الأمر بأنه إما بسبب اختلاف الوقت بين المرسل والمرسل إليه أو اختلاف اللغات.

العاملون فى الاستثمار يعرفون جيدا أهمية الاستثمار فى قطاع الاتصال، فهناك اختلاف جذرى بين اقتصاد الاتصال وأشكال الاقتصاديات التى سبقته، ففى السابق كان (تطوير) التقنية فى السكة الحديد أو مصانع السيارات أو مصانع

صهر الحديد، كان هذا التطوير التقنى يحتاج إلى مبالغ طائلة من رأس المال، أما الآن ولأن أسعار تصنيع الاتصال تقل بسرعة، فإن الشركات والمؤسسات تدفع مبالغ أقل للحصول على تقنية أسرع وأفضل تضاف إلى الإنتاج كما وكيفا.

فشركات التليفونات يمكن أن تزيد من قدرتها الاستيعابية مثلا عن طريق تطوير إليكترونى فى نهاية شبكاتها فقط، بمعنى أنها لا تستطيع أن تزيد من استيعابها دون اللجوء إلى عملية مكلفة بالحفر لكى تستبدل بالأسلاك القديمة أسلاكا جديدة!

أصداء اجتماعية

التقدم التقنى الذى وصفت بعضا منه فى السابق سوف يؤثر بالطبع على النسيج الاجتماعى لشعوب مختلفة، نوع هذا التأثير وعمقه سوف يختلف من بلد إلى آخر، وهناك مظاهر أولية يمكن رصدها بهذا الخصوص منها أن المدينة لن تعود - فى إطار هذا التطور - مركزا يسعى إليه الناس، فالقُرى والريف يمكن أن تستوعب أماكن العمل الجديدة فى الخدمات وغيرها، مع العيش فى أحضان الريف البعيد عن التلوث والقيام بنفس العمل مادام هناك خط تليفونى وكمبيوتر شخصى!

سوف تنشأ وظائف جديدة فى اقتصاد الاتصال لم تكن

معروفة من قبل، ضمنتها البرامج، فشركات البرمجة اليومية هي التي تكسب الأموال الطائلة في الوقت الذي تبيع فيه قوة أفكار العاملين فيها لاغير، كما أن أنظمة التعليم سوف تطرق أبوابا جديدة لم تكن معروفة من قبل.. فوق ذلك كله لن يظل مجتمع صغير أو قرية نائية بمعزل عن العالم مهما قامت حكومات أو جماعات بمحاولة العزل هذه.

من المفارقات العجيبة في بلادنا العربية أننا نريد أن نستخدم هذا التطور في الاتصال لنقل وجهة نظرنا ورأينا - مهما كان رأى الآخرين - بينما نقيم الحواجز أو نريد إقامتها في طريق القادم!! وهي مفارقة تنضم إلى مجموعة المفارقات التي نعيشها.

كلمة أخيرة بشأن النمو الانفجاري في قضية المعلومات التي ألمحنا إلى بعضها، ولعلها تكون كلمة تحذير، فقطار الاتصال السريع قد بدأ انطلاقه.. ولا عزاء للمتخلفين.

١٧

وخير جليس فى الزمان «شريط»!

عند عودتى من رحلتى الأخيرة إلى مدينة «لندن» حملت فى حقيبتى كتبا من نوع آخر، كتبا مسجلة على أشرطة بأصوات مؤلفيها أو بأصوات قراء محترفين يجيدون القراءة والإلقاء، إنها ليست ابتكار جديدا، فمنذ سنوات وأنا أشاهد هذه الأشرطة على أرفف المكتبات وأقول لنفسى إنها سوف تكون تجربة مثيرة حين أستمع إلى وقع الكلمات وتصارع الأفكار من خلال نبرات الصوت، ولكننى - كرجل تقليدى - نشأ على حب الكتب وملمس الورق وأشكال الحروف، كنت دائما أمد يدى إلى رفوف الكتب وأتناول البضاعة التى تعودت عليها.

ولكن التجربة هذه المرة كانت مثيرة حقا، فقد قضيت ست ساعات من السمع الممتع، كانت الرواية التى جلست صامتا أستمع إليها مضغوطة فى أربعة أشرطة، كل وجه مكون من خمس وأربعين دقيقة من الإلقاء الدرامى المتميز، تلك كانت تجربتى مع رواية البطة البرية Wild Swan التى كتبتها المؤلفة الصينية جينج شاينج وهى تحكى قصة ثلاثة أجيال تبدأ بالجدة ثم الأم ثم بطلة روايتنا، وتبدأ أحداث الرواية مع الجدة مع بداية هذا القرن حيث كانت أقدام النساء تحجز فى القوالب الصينية حتى تظل صغيرة، مرورا بحروب الأفيون والاحتلال اليابانى والحرب الأهلية ثم الثورة الشيوعية على تقلباتها.

لقد صنعت التفاصيل الصغيرة والحياتية بانوراما شاملة للصين الشاسعة من خلال مسيرة حياة ثلاث من البنات، أقول صنعت من هذه الرواية واحدة من أشهر الروايات التى احتلت المركز الأول على صفحات جريدة التايمز اللندنية الشهيرة.. وحين أقارن تجربة استماعى إلى الأشرطة الأربعة بعد أن قرأت الرواية فى وقت سابق، أكتشف أننى - ربما لأسباب شخصية بحتة - قد استمتعت بالسماع كما استمتعت بالقراءة من قبل.

وهذه الرواية ليست هى الوحيدة التى يمكن أن نحصل عليها بهذه الطريقة، فقد استمعت قبلها إلى السيدة مرجريت تاتشر التى كانت واحدة من أطول الذين تولوا منصب رئيس وزراء بريطانيا، وهى تحكى بصوتها القوى أحيانا والمتكسر فى أحيان أخرى عن سنوات الازدهار والأزمات فى «١٠ داوننج ستريت»، البيت الذى شهد سنوات حكمها العاصفة بدءا من حرب الفوكلاند وانتهاء بحرب الخليج، والذى ظهر فى كتاب ثم سجل على أشرطة.

كتب وأفكار، روايات كلاسيكية ومذكرات ساسة وأفكار فلسفية، تركت حروف السطور السوداء وتحولت إلى نبرات وإشارات مسموعة مفعمة بالألفة التى يصنعها الصوت البشرى الذى يقتحم صمتك ويتغلغل فى ثنايا أفكارك كى

يمنحك المشاركة فى عمق التجربة الإنسانية.

العاهة الحقيقية.. البصر أم السمع ؟

أتذكر أديبنا الكبير طه حسين الذى كان يصر على أن العاهة الحقيقية ليست فى فقدان البصر، ولكن فى فقدان السمع والصمم، فالأعمى لا يفقد فقط إلا أشكال الحياة الظاهرية، ولكن الأصم يفقد التواصل معها نهائيا، لأنه يعانى هنا من حاجز مزدوج من الصعب اختراقه، فهو أولا يفقد حاسة الاستماع إلى اللغة التى يستطيع التواصل بها مع الآخرين، وبالتالى يفقد القدرة على النطق وإيصال أفكاره إليهم، إنها عاهة تقف عائقا بينه وبين الاستماع إلى أصوات الكون، وتمنعه من عملية تفاعل انتقال الأفكار والمشاعر والأحاسيس، فالعمى لم يمنع طه حسين من أن ينعم بكل ثمار الفكر الإنسانى من علم وشعر وموسيقى، ولم يمنعه من تعلم اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية، والأهم من ذلك لم يمنعه من أن يملى كتبه ومؤلفاته وأن يصبح واحدا من أفصح كتاب العربية حديثا، فكيف يمكن لهذه الفصاحة أن تتأتى لأصم؟!!

وافتقاد اللغة يعنى افتقاد التاريخ البشر كله، فهو تاريخ تحول الصوت العشوائى وغير المنتظم إلى إيقاعات لها معنى وانتظام، ورحلة الصوت من محاكاة الطبيعة إلى نظم قصائد الشعر يعتبرها بعض الباحثين هى رحلة البشرية كلها، وما

تاريخ الهجرات وتشعب السلالات وتكون أشجار القبائل البشرية إلا صورة أخرى من تطورها اللغوى، ففى البدء كانت الكلمة كما تقول الكتب المقدسة.. ولكن من المؤكد أنها كانت كلمة بسيطة.. خالية من القواعد النحوية والإعرابية التى نعرفها اليوم، والبعض يطلق على استخدام اللغة الأول أنها أهم اختراع توصلت إليه البشرية، ولكن هل كانت اختراعا حقا أم أن الإنسان كان مرغما على إصدار هذه الأصوات حت يعبر بها عن عشرات الأحاسيس التى يشعر بها..

إنها شىء فطرى.. غريزى.. مثلما تريض فى جسم الطائر الوليد قدرته على الطيران، ولكن الذى يثير التأمل هو أصل هذه اللغة وتطورها واختلاف ألسنتها، فهناك عدة آلاف من اللغات ينطق بها أربعة بلايين من البشر، فكيف نشأت وحدثت لها كل هذه الاختلافات.. يقول علماء اللغة إن اللغات كلها تعود إلى أصل واحد، أى أنها جميعها تنبثق من جذر متشرك، وهى أبحاث تشترك فى نفس الهدف الذى تسير فيه أبحاث بيولوجيا الأجناس، أو هى بالأحرى صورتها اللغوية، ففى جامعة كاليفورنيا أكد الباحثون فى مجال حمض الخلايا النووى "D.N..A" أن أصل البشر يعودون كلهم إلى امرأة واحدة عاشت فى إفريقيا منذ مائة وخمسين ألف عام، وهم يطلقون عليها «حواء..»

وعلى نفس هذا المنوال يؤكد علماء الفيزياء أن هناك نظرية موحدة عظمى تنظم حركة الكون كله، وما فيه من كائنات حية وذرات وجسيمات جامدة، وبنفس الطريقة يؤكد علماء اللغات أن اللغة كلها كانت لسانا واحدا انتشر مع انتشار الجنس البشرى، وأن اختلاف الألسنة وتشابهها أيضا هو حصيلة عمليات طويلة من الهجرات المستمرة، وهى هجرات بدأت وتواصلت مع انتشار الزراعة وليس عمليات الغزو.. أى أن اللغة انتشرت مع محراث الزراع، وليس مع أسنة المحاربين..

من الأصوات العشوائية إلى الكلمات

وربما تشكلت الكلمات الأولى عبر محاولات البشر لمحاكاة أصوات الطبيعة، صوت هبوب الرياح وزقزقات الطيور وزئير الوحوش، وربما كانت مجرد تلعثمات عاطفية حاول بها الإنسان البدائى أن يعبر عن رغباته ويتطهر من مخاوفه، ولكن دور اللغة كان أكثر تعقيدا من ذلك، فقد ارتبط مع مجموع البشر حين يقومون معا بعمل جماعى ويحتاجون إلى نوع من التنسيق يمكنهم من صيد حيوان أو دحرجة حجر أو شد حبل، إنها بداية الطقوس الجماعية التى عرفها البشر، والتى تطورت من همهمات التشجيع إلى تراتيل وأغان لها معنى محدد، إنها تعبير عن كل حالات البشر من اللعب إلى الفرح إلى الحزن، وكل واحدة من هذه الحالات أخذت تعبيرا محددا

تطور فيما بعد إلى اللغة..

لقد كانت المشكلة التى واجهت الإنسان، وما زالت تواجهه بطبيعة الحال، هى كيف يتكيف مع بيئته ومع المخلوقات التى تشاركه فى نفس هذه البيئة، ولأنه كان يمتلك جهازا عصبيا متطورا بالنسبة إلى غيره من الحيوانات فقد تمكن جسده من تطوير الإشارات والإيماءات البدائية، فهو يمتلك رأسا أوسع، وقناة صوتية محسنة، وترابطات عصبية جيدة تصل بين فصى المخ. كل هذه المهارات والميزات العصبية ساعدته على الارتقاء بالإنسان، ويقول علماء الأنثروبولوجيا إن الإنسان تعرض إلى تطور فى الجينات الموجودة فى داخله جعلته قادرا على التحكم فى إخراج الأصوات المختلفة.. فالكلب يواصل النباح وفق حالته المزاجية السيئة، والشمبانزى يضرب صدره ويصرخ ليعبر عن غضبه وليخرس الآخرين، أما الإنسان فهو الوحيد الذى يستطيع ببراءة وبثقة شديدة، دون أن يبدو عليه أى انفعال!! وهو الذى قال إن هناك حسنات للكذب ومساوىء للصدق!!

ولم يكن من السهل على البشر أن يحولوا هذه اللغة الصوتية إلى إشارات مكتوبة، لقد استلزم هذا عددا كبيرا من سنوات التطور والارتقاء، وتطلب أيضا الاستقرار فى وديان الأنهار، والاعتماد على الزراعة وبداية بناء المستوطنات الأولى

للإنسان، وقد أخذت إشارات الكلام هذه أشكال الطبيعة، رسم العصفور والشجرة ليدل على أسمائها، ثم رسم العين ليدل على الرؤية والفم للكلام واليد للتوسل والضراعة، ثم أخذت الخطوط تأخذ طابعا أكثر تجريدية وتتحرر من أصولها التصويرية لتصبح أكثر رمزية.

كتب الإنسان لغاته البدائية على كل المواد التى تحيط به تقريبا، كتب أهل سومر حروف لغتهم الأولى على ألواح الطين، وحفر المصريون القدماء رسومهم على الحجر، واستخدمت القبائل الإفريقية جلود الحيوانات، واستعان سكان المايا القدامى فى أمريكا بلحاء الأشجار، وأولع اليونانيون بالكتابة على الفخار، ولا زال أهل إيران حتى الآن يبثون أشواقهم فى ثنايا خيوط السجاد.

وحتى الآن لم يحسم المؤرخون أى الحضارات التى ينسب إليها شرف بداية الحروف الأولى للكتابة، ولكن الافتراض الأكثر شيوعا هو أن الحضارة السومرية التى نشأت على ضفاف وادى الرافدين كانت أسبق هذه الحضارات. لقد تم العثور على العديد من الألواح الطينية فى مدينة «أوروك» يعود عمرها إلى منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، وقد دلت هذه الألواح - وكانت كثيرة لحسن الحظ - على تطور الكتابة السومرية من الكتابة التصويرية - أى محاكاة أشكال الطبيعة

- إلى نظام الكتابة التى يتبع السمات الصوتية، أى الحروف التى تتخذ أشكالا رمزية ويطلق عليها الكتابة المسمارية.

وقد بدأت الكتابة بطبيعة الحال بدوافع المنفعة والحاجة، فقد أخذوا يدونون بها البضائع والمواشى وبقية المعاملات التجارية، ثم تطورت لتدون بها المعاهدات والاتفاقات، ولم تكتب بها النصوص التعليمية أو القصص والأشعار إلا بعد تطور لاحق، ولعل السومريين كانوا أول من أنشأ نظام المكتبات أو الأرشيف، فقد كانوا يحتفظون بهذه الألواح الطينية داخل المعابد والقصور الملكية فى قاعات خاصة أشبه بمراكز الوثائق التى لدينا الآن.. وقد كشفت الحفريات عن وجود فهارس منظمة لهذه الوثائق وكيف أنها كانت مقسمة حسب الموضوع وكل لوحة منها لها رقم خاص.

وعن طريق هذه الألواح وصلت إلينا تفاصيل واحدة من أقدم الحكايات القديمة، «أسطورة جلجامش» الذى كان يبحث عن الخلود فى أرض ديلمون، وعن طريق هذه الألواح وصلت إلينا أولى القوانين والنصوص العلمية المتعلقة بالبيطرة والرياضيات وغير ذلك من المعارف الإنسانية فى تلك الحقبة من التاريخ.

ولكن حرفة الكتابة لم تظفر باحترام بالغ مثل الذى بلغته فى مصر القديمة، فقد كانوا يمجدون هذه المهنة، وصنعوا لها

العديد من التماثيل أشهرها أو الذى بقى منها حتى الآن ذلك الكاتب الجالس القرفصاء، فقد كانت هذه المهنة هى المثل الأعلى للشباب، وهى التى تمكنهم من أن «يتجولوا فى الطرقات بحرية وأن لا تكون ثورا يقوده الآخرون.. بل تقودهم أنت» كما تقول إحدى التعاليم الفرعونية القديمة، ولقد استطاعوا من خلال هذا التمجيد أن يطوروا اللغة الهيروغليفية وأن يكتبوها على أعمدة المعابد وجدران المقابر، لم يكونوا كأسلافهم السومريين يميلون للكتابة على مواد طرية.. ولكنهم كانوا يميلون إلى استخدام المواد النبيلة التى تقاوم الزمن وتبقى طويلا.

ولكنها كانت حضارة تسودها مسحة من الحزن والتفكير الدائم فى الموت والتوق إلى البعث من جديد، لذا فقد كانت أشهر الكتب التى تم نسخها وتبادلها وبيعها فى الأسواق هو كتاب الموتى. كتبوا هذه النصوص الطويلة على أوراق البردى الذى كان يزرع فى أحراش الدلتا، وحفلت هذه الكتب بالتعاليم التى تساعد المرء على مقاومة لحظة الموت العابرة والوصول إلى لحظة البعث الجديد، وقد زينت برسوم تمثل القبر، والآلهة والحياة الأخرى، ويقال إنها أقدم الكتب المصورة فى التاريخ.

الكتاب العربى.. أزمة دائمة!!

عندما نتصفح أى كتاب فإننا نتذكر الصينيين الذين كانوا أول من توصل إلى صناعة الورق منذ بداية الألف الثالثة قبل الميلاد، ونتذكر يوهان جوتنبرج الطابع الألمانى الذى استعمل حروف الطباعة المنفصلة عام ١٤٣٦م وأدى خدمة كبيرة للبشرية، ولكنه مات مفلسا واضطر إلى بيع مطبعته، وربما نتذكر أيضا حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٨٩٨م عندما أحضر أول مطبعة حديثة إلى العالم العربى، ولكننا لا نتذكر دور العرب فى تلك الرحلة الحضارية العظيمة وأعنى بها رحلة تطوير الكتاب.

إن كل ما نعرفه أن الكتاب العربى يمر بالعديد من الأزمات، أزمة فى المحتوى لأن عدد الكتب الأصيلة التى تحتوى على موضوعات ذات دقة وعمق وجدة تكاد تتوارى خجلا أمام أعداد الكتب التافهة والتى لا ضرورة لها، والتى تواصل المطبعة قذفها علينا كل يوم، وأزمة فى الشكل، فهو يعانى من فوضى جمالية، أى يعانى من ضعف الورق وتعدد أشكال الحروف وطرق التجليد المهلهلة، وكلها أشياء لا تشجع المهتم على قراءة الكتاب، فما بالك بغير المهتم؟

إن نظرة واحدة على أرفف المكتبة تجعلك ترى فوضى الحجم التى يعانى منها هذا الكتاب، أضف إلى ذلك قوانين

الرقابة التى لا ترحم وذلك التحفز الذى يثيره الكتاب لدى موظفى الحدود والجمارك فى العديد من البلدان العربية، ودرجة الأمية المتفشية حتى أن أحد الناشرين يعلن يائسا:إن نصف الكتب التى تطبع لاتباع ونصف الكتب التى تباع لاتقرأ ونصف الكتب التى تقرأ لاتفهم ونصف الكتب التى تفهم يفهم عكسها..»

فهل كان الأمر دوما كذلك؟ وهل عاش الكتاب العربى خلال هذه الأزمة؟وكيف تغير موقفنا من حضارة تعشق الكتب وتثقل وزنها ذهبا إلى حضارة تراه زائدا ومطاردا وطفلا لقيطا لابد من فرض الرقابة حوله؟

المعركة التى جاءت بالورق

بدأت حكاية العرب مع الكتاب بمعركة حربية..هكذا تقول الحكاية والعهدة على الراوى كما يقولون..وقد وقعت أحداثها فى عام٧٥١م.

كانت هناك قبيلتان متناحرتان فى تركيا أو آسيا الوسطى كما كانت تدعى فى تلك الأيام، استعانت قبيلة منهما بالعرب واستعانت الأخرى بالصينيين، ودارت الحرب على القبيلة الأخيرة فانهزمت وانتصرت القبيلة التى كان يدعمها العرب ووقع بعض الصينيين فى أسرهم، وللمصادفة التاريخية فقد كانوا يعرفون سر صناعة الورق، وهكذا اقتادهم العرب إلى

مدينة سمرقند إحدى منارات الحضارة الإسلامية فى تلك الوقت، وأسسوا بمعاونتهم أول مصنع لإنتاج الورق، وأكسب هذا الأمر مدينة سمرقند شهرة إضافية فأخذت تصدر الورق إلى بقية المدن العربية، واشتهرت بغداد بإنتاج نوع من الورق قادر على تشرب الحبر، وزادت دمشق فى تطوير هذا النوع بحيث أصبح أقل سمكا وأكثر مرونه، وأنتجت ما يعرف بـ«الورق الدمشقى» الذى انتقل إلى أوربا، وكتبت عليه العديد من المخطوطات الدينية المسيحية، ثم انتقلت الصناعة بعد تلك إلى مصر كى تلغى الاعتماد على أوراق البردى، ويقال إن العرب ظلوا يحتكرون هذه الصناعة على مدى ٥٠٠عام.

ولأن معجزة الإسلام الحقيقية كانت كتابا هو القرآن فقد أحاط المسلمون الأوائل الكتب ومخطوطاتها بنوع من التمجيد، واكتسبت صناعة الخط - وهى موهبة كانت تؤهل صاحبها لكتابة القرآن - احتراماً بالغاً بين العامة والخلفاء على السواء، وبدلا من أن تسير القوافل عبر الصحارى الشاسعة تحمل المؤن والبضائع كانت تسير حاملة أسفارا من الكتب، وكان أثرياء العرب يخرجون فى رحلات الحج إلى بيت الله لا ينسون أن يكون من بين أمتعتهم جمل خاص يحمل الكتاب كأنه مكتبة صحراوية متنقلة، مثل تلك التى نسمع عنها هذه الأيام.

وقد بدأ الخليفة العباسي هارون الرشيد عام ٧٦٦ ميلادية هذا العشق بجمع الكتب واقتنائها، كان خليفة غريبا جمع أطراف الشرق والعلم كما يقولون، ومثلما امتلأ بلاطه بالمطربين والمغنين والقيان، امتلأ بالمترجمين والمؤلفين والنساخ، وكان ابنه المأمون مضطهدا يعاني من مشاكل في نسبه العربي ومن شرعيته في استحقاقه للعرش فعوض ذلك باهتمامه الشديد بالثقافة والمعرفة فدأب على إرسال الرسل والمبعوثين كي يبحثوا له عن المخطوطات اليونانية واللاتينية القديمة حتى يقوم مترجموه بترجمتها، وقد أنشأ مكتبة دار الحكمة التي حولت محتوياتها فيما بعد إلى جسر في نهر دجلة عبرت عليه أقدام المغول.

وكان اندفاع الفاطميين في مصر نحو عشق الكتاب غريبا، فقد اختلط حب المعرفة لديهم بنزوعهم إلى تكوين عالم آخر يختلف عن النمط السياسي والثقافي الذي صنعته الدولة العباسية، كانوا يبحثون عن شرعية باطنية تحكم عالم الإنسان ونوازعه وأفكاره وقد حاولوا إقامة بناء نظري وفكري يدعم هذه الرؤية، وقد أنشأ خليفتهم الأول العزيز بالله في عام ٩٧٥م أول مكتبة شهيرة داخل قصره، وكانت من الضخامة بحيث إنها ضمت ٦٠٠ ألف مخطوط مقسمة إلى أربعين قسما...

ثم ما لبثت أن أنشئت أيضا «دار الحكمة» القاهرية، وهي لم

تكن أرففا لاحتواء الكتب فقط ولكنها كانت تضم داخلها جيوشا من المترجمين والعلماء والنساخين، وكانت بذلك جامعة متخصصة لإنتاج الكتب.

ومثلما شهد العصر الفاطمى ازدهار المكتبات القاهرية شهدت نهاية هذا العصر انهيارها بفضل النهب والحرائق واللامبالاه..لقد زالت دولة وعصر..وبقيت المكتبات يتيمة لا تجد من يحميها.

كانت قرطبة أيضا إحدى عواصم الكتاب العربى، قرطبة الحزينة التى كان البربر يدقون أبوابها والإفرنج يتربصون بأسوارها، جيوش الخطاطين التى كانت أسلحتهم عيدان البوص وريش الطيور لم تجد من يحميها من العصف، لقد أسس الخليفة الأموى الحكم الثانى فى ٩٦١م مكتبة ضخمة كانت مجلدات الفهارس فيها فقط تبلغ٤٤مجلدا، وكانت محلات الوراقين والنساخين تنافس محلات بيع الأغذية والأقمشة وعندما جاء البربر كان وقودها مستعرا ودخانها قائما، وزالت واحدة من أندر المكتبات العربية فى الأندلس، وسبحان من له الدوام.

وإذا كانت المطبعة قد جاءت إلى مصر مع الحملة الفرنسية، فقد سبقتها محاولات بدائية قام بها المصريون من أجل الطباعة بألواح الخشب..لقد اكتشفت آثار هذه الكتب فى

مدينة الفيوم فى أواخر القرن السابع عشر، ومعظمها كتب دينية بل وفيها نسخ أيضا للقرآن الكريم، فهل انتقلت هذه التقنية من أهل الصين كما انتقلت صناعة الورق، أم أنه اجتهاد عربى أصيل.. وهل كان العالم العربى هو همزة وصل بالنسبة لأوربا فأعطاها الورق أولا، ثم أعطاها قوالب الخشب ثانيا، من المؤكد أن الأمر كان كذلك.

الكتاب وتقنيات جديدة

ولكن تاريخ الكتاب العربى الزاهر، ومحنته الراهنة يجب ألا تنسينا تلك الثورة الراهنة التى يعيشها الكتاب فى الوقت الحاضر. ففى وقت تتراكم فيه المعارف بسرعة مذهلة نجد أن صفحات الورق التقليدية عاجزة عن استيعاب كل هذا الكم من المعلومات.. لذا فقد تدخل الكمبيوتر كى يعين الكتاب ثم ليقف فى موازاته وسوف يحل محله فى المستقبل القريب.

لقد انكمشت أجزاء الموسوعات الضخمة كى تصبح مجرد قرص صغير تتوالى صفحاته على شاشة الكمبيوتر، وأصبحت الصحف تصدر بطريقة حية ومباشرة بنفس الطريقة وتبث صفحاتها إلى آلاف المشتركين.

والكمبيوتر لا يتدخل فقط فى حفظ مادة الكتاب. ولكنه يساهم فى نشره وترويجه أيضا، وقد شاهدت بنفسى فى بعض الدول الأوربية تجربة من هذا النوع تبدو مثيرة بالنسبة

التعامل الكمبيوتر مع الكتاب فى صورته التقليدية.

ففى السنوات الأخيرة ومع ارتفاع تكلفة طباعة الكتاب أصبح الناشرون يعانون من الكتب التى لا تباع وتبقى فى المخازن، وتسبب لهم خسائر من الصعب تعويضها. لذلك جاءت فكرة إصدار كتاب عند الطلب. يكفى أن تذهب أثناء جولتك للتسوق إلى أى مكتبة صغيرة فى الحى الذى تقيم فيه، وتطلب منهم الكتاب الذى تريده، وتستمهلك العاملة ساعة تكمل فيها جولتك أو تشرب قهوتك، وتقوم هى فى هذه الأثناء بالاتصال الإلكترونى بالناشر وبعد دقائق تبدأ صفحات الكتاب فى التدفق على شاشة الكمبيوتر فى ذلك المحل الصغير، وتضغط العاملة على زركى تخرج لك نسخة أو أكثر، وتقوم بتجليده بواسطة آلة صغيرة، بل وتقوم أيضا بكتابة اسمك أو اسم من تريد إهداءه هذا الكتاب.. كل هذا الأمر لا يستغرق أكثر من ساعة تصبح بعد ذلك نسختك جاهزة عند الطلب.

إنها طريقة عملية لا تحدث فائضا فى الكتب الصادرة وتقلص التكاليف والأهم من ذلك أنها تتيح لك الكتاب الذى تطلبه فى وقت قياسى.

ولكن عشاق الكتب التقليدية مثلى - وإن كانوا قد استطاعوا التأقلم مع أشرطة السماع فهم يخافون من تلاحق هذا

التطور، ومن يوم يأتى تخلو فيه الأرفف من الكتب لتحل محلها اسطوانات الكمبيوتر التى أصبح واضحا أنها يمكن أن تقضى على صناعة الورق، وربما ينقذ لنا هذا التطور آلاف الأشجار التى تنتحر سنويا ولكنه سوف يقضى على صديق عزيز طالما رافقنا فى أيام الوحدة والحزن والفرح، وشاركنا رحلة العمر والفكر دون أن يضج أو يتذمر. فالقراءة والمعرفة هى إحدى الانتصارات القليلة التى يمارسها الإنسان مع نفسه فى وقت تكاثرت فيه المعارك الخاسرة، إننى أتذكر دائما قول الشاعر الدغستانى جمزاتوف «لقد خسرنا الكثيرة من المعارك بسبب السيف. لكننا لم نخسر معركة واحدة بسبب الكتب..»

كتب غيرت مسار التاريخ

لقد كان الكتاب دائما عنصرا مؤثرا فى تطور التاريخ البشرى، فهو الوعاء الذى حمل خلاصة الفكر والتجربة الإنسانية، ورغم أن الفعل كان هو الذى أحدث كل هذه التغيرات الحاسمة، إلا أن الفكر كان ضروريا لدفع هذا الفعل لدرجة التحقق، فالكتب بما حوته من أفكار قد غيرت من مسارات التاريخ أكثر مما أحدثته السيوف . وكل الثورات العظيمة مهدت لها الطريق أولا أفكار عظيمة، وكل كتاب مهم قد أحدث تحولا بنفس الأهمية فى نظرة الإنسان إلى العالم

الذى يعيش فيه.

ولكن هل يمكن أن نحدد الكتب التى غيرت مسار التاريخ؟..إذا سمونا بالكتب السماوية عن هذه الاختيارات فإن الجواب يغدو صعبا..لأن كل إنسان ينظر إلى المراحل التاريخية من زوايته الخاصة..وعندما يفكر المرء فى كل التحولات الكبيرة لا يملك إلا أن يستهدى ببعض الكتب كما نستهدى بعلامات الأميال فى السفر الطويل. لقد وضع أفلاطون فى كتابه «الجمهورية» أولى تصوراته عن الدولة المثلى كما يراها، تلك الدولة التى يحكمها المفكرون والفلاسفة ويبتعد العسكر عن إدارة السياسة بها وهو الحلم الذى لم يتحقق حتى الآن، وواصل المؤلف الإنجليزى توماس مور نفس حلم المدينة الفاضلة فى «اليوتوبيا» وابتعد أبو العلاء المعرى عن مشاكل الحياة الدنيا فطرح أو ل تصور عن الموت والبعث والعالم الآخر فى «رسالة الغفران» وقدمت لنا «ألف ليلة وليلة» صورة عن عالم الخيال والأساطير بصورة حسية لا تفتقد الكثير من مقومات الواقع العربى فى تلك القرون، ولا ننسى كتاب «الأمير» لميكافيللى الذى وضع مبادىء للحكم مازال الطغاة من الحكام يسيرون عليها حتى الآن، وحملت إلينا رياح العصر الحديث الكثير من الأفكار الملتهبة، فكان كتاب الأمريكى توم بين «أفكار عامة» هو الذى بعث برياح الحرية

وسط سهوب المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا فاشتعلت حرب الاستقلال وخرجت واحدة من أقوى الدول فى القرن العشرين هى الولايات المتحدة، وتبلورت كتابات جان جاك روسو عن المساواة والحرية والعدالة فى «أميل» وكذا أفكار مونتسكيو وفولتير لتوقظ واحدة من أهم ثورات البشر والتى نقلتنا من عصر إلى آخر، وأعنى بها الثورة الفرنسية . واكتشف داروين وهو يغوص فى حفريات الأنثربولجيا القديمة لإنسان ما قبل التاريخ نظرية التطور والانتخاب الطبيعى المثيرة للجدل فى «أصل الأنواع» وكذا وضع الفيلسوف الألمانى كارل ماركس تحليله العلمى لحركة المجتمع وتطوره فى «رأس المال» ولم يقل فرويد عنهما فى جراءة البحث حين غاص فى أعماق النفس البشرية ليكتشف عالم الغرائز الخفى، ويصر على نظرية الدافع الجنسى التى ما زالت تمثل صدمة متكررة لدى العديد من الناس حتى الآن فى كتابه «تفسير الأحلام» .

وقبل ذلك توصل العديد من الأدباء من خلال تجاربهم وحسهم الفكرى العميق إلى أغوار النفس البشرية، فكتب المؤلف الروسى فيدور ديستوفكسى العديد من الروايات عن الشخصيات الروسية القلقة، وقد استعان فرويد برائعته «الإخوة كارامازوف» فى تحليله لعقدة قتل الأب، وقام الأدب

بدوره الاجتماعى الخلاق فى تغيير العديد من القوانين والأنظمة، ودفعت كتابات شارلز ديكنز مثل «أوليفرتوست» إنجلترا لتغيير قوانين العمل اللاإنسانية التى كانت مطبقة على الأحداث، وقدم الفيلسوف الألمانى نيتشه فلسفته المروعة عن السوبرمان أو الإنسان الأعلى وهى الفلسفة التى استغلها دعاة العنصرية من أجل إشعال نيران الحرب العالمية الثانية، وكتب هتلر على ضوئها كتابه «كفاحى» الذى مزق به أوربا والعالم على مدى خمس سنوات، ووضع سارتر كتابه الشهير «الوجود والعدم»، كى يؤكد على غربة الإنسان عن هذا العالم وعن ذلك الجدل الدائم الذى يخوضه مادام موجودا على الأرض..

كتب ورؤى وأفكار..أثرت وما زالت تؤثر..تصنع ذلك التاريخ الفكرى الطويل للعقل البشرى وتنير أمامه المستقبل، كتب ضلت طريقها أحيانا..وحفلت بالأخطاء أحيانا ولكنها فى الأغلب الأعم كانت سندا للإنسان فى رغبته للمعرفة والتقدم، ورغم كل ما سيحدث من تطورات، وما سوف تضيفه إلينا التقنيات المعاصرة من أدوات التسلية والترفيه، فسوف يظل الكتاب هو خير جليس ورفيق فى الزمان.

١٨

نمور شرسة من الورق
تبدأ حرب الفضاء

صناعة الصحف بين وهم
الديمقراطية واحتكار السلطة

إننا نواجه واحدة من أقوى البنيات الصناعية التى عرفها العالم، وأعنى بها صناعة الإعلام التى أصبحت تنافس فى أهميتها صناعة اللاسح والنفط . ووجه القوة هنا لا يرجع فقط إلى حجم الأموال الهائلة المستثمرة فى هذا المجال، ولكنه يعود للهدف الخطير لهذه الصناعة، فهى تتوجه مباشرة إلى العقول وتعيد تشكيل وعى الإنسان المعاصر، كما أن تأثيرها بالغ الخطورة على كل مراكز صنع القرار السياسى فى كل الدول، أضف إلى ذلك أن الربح المادى فى صناعة الإعلام يفوق هامش الناتج عن الاتجار بالعقارات والصناعات التحويلية، وبالتالى فهى صناعة توجه مصير العالم وتشهد كل يوم عددا من التقنيات المتطورة تزيد من فاعليتها وشدة تأثيرها . ومثل صناعة السلام والنفط أصبحت صناعة الإعلام فريسة للتنافسات القوية والعملاقة، وبدلا من أن تزيد ثورة المعلومات والاتصالات الحديثة من تدفق المعرفة أصبحنا رغما عنا نسير إلى نوع من احتكار المعرفة لأنها جزء أساسى من احتكار السلطة.

الصحف العربية والأرقام المتواضعة

فى أواخر الثمانينيات وعلى هامش ندوة اقتصادية كبرى تعقد سنويا فى شتاء سويسرا فى منتجع دابوس، حضرت ندوة عن الإعلام والتقنية الحديثة، كان فيها ممثلون لصحف

وتليفزيونات من العالم، وعند بدء التعرف فى اليوم الأول كان على المشارك أن يقف ليقدم اسمه والمؤسسة التى يعمل بها وعدد النسخ التى يطبعها من جريدته «إن كان يعمل فى جريدة».. ووقف المشاركون واحد تلو آخر. وبدأت الأرقام تتوالى بالملايين، وإن تواضعت فبمئات الآلاف، ووقف صديق صحفى من دولة عربية وذكر اسمه ثم تلفت قليلا وقال: ثلاثون ألف نسخة! وعندما جلس أسر إلىّ بفجيعته، فقد ضاعف عدد النسخ التى تبيعها مطبوعته فقط لأنه لا يريد أن يكون قزما بين عمالقة، ومع ذلك وبعد هذه المضاعفة الرقمية لم يلتفت إلى ما قاله أحد!!

منذ تلك الحادثة وأنا أتذكر دائما كم نحن فى الواقع متواضعون فى أمور شتى وكثيرة ومن بينها عدد القراء فى صحفنا اليومية، ومع ذلك تُسمع لنا جلبة وضجيج يضعاننا فى تناقض مع ذلك الواقع.

لذلك عندما وقع فى يدى أخيرا كتاب لنيكولاس كلارج وهو صحفى وكاتب بريطانى بعنوان «نمور من ورق» قرأت الكتاب بشغف. وعنوان الكتاب بالإنجليزية أريد به اللبس فـ Paper Tigers يمكن أن تكون «نمور من ورق»، ويمكن أن تكون «نمور الصحف»، لأن PAPER هى صحيفة وورق باللغة الإنجليزية فى الوقت نفسه. نمور الصحف هو الموضوع

المقصود بالكتاب، لأن الكاتب يتحدث عن الملاك الكبار للصحف فى العالم الرأسمالى، ويركز على بلاد مثل الولايات المتحدة وأوروبا وجنوب آسيا والهند وباكستان وتركيا وعن «العائلات» القديمة التى تملك الصحف أو قل مجموعات عديدة من الصحف وكذلك الملاك الجدد.

أمضى الكاتب ثمانى سنوات لتحضير هذا الكتاب، قابل فيها أكثر من ثمانمائة شخص وسافر فيها أكثر من مائتى ألف ميل فى القارات الخمس وعاد بحصيلة ليست غنية بالمعلومات - لمن يهتم بهذا الموضوع - فحسب ولكنها أيضا ممتعة للقراءة. والكتاب ليس صغيراً أيضا فهو يتألف من ٥٩٢ صفحة ومقسم إلى فصول، كل فصل يروى قصة مالك مع إحدى الصحف الكبرى أو مجموعة من الصحف.

لعبة السلطة

المعلومات والتحليلات فى الكتاب مثيرة وكاشفة للعلاقة بين السلطة أو البحث عن السلطة وبين ملكية الجرائد اليومية والتأثير فى الناس وفى مسيرة القرارات السياسية.

إنها سلطة الصحافة فى المجتمعات التعددية أو الديمقراطية، وهى سلطة تفوق سلطة المال، بل تؤكد سلطة المال.

وعندما نتذكر دور الواشنطن بوست مثلا فى الإطاحة

برئيس الولايات المتحدة الأسبق ريتشارد نيكسون، أو نتذكر الدور الذى لعبته مجموعة الديلى ميرور وصاحبها روبرت ماكسويل فى إضعاف هيبة الملكية فى بريطانيا بمتابعة قضايا العائلة المالكة ونشرها، نتذكر ولو للمحة سلطة الصحافة ومالكيها.

ولعله كان مشهدا مثيرا عندما وقف نيل كينوك زعيم حزب العمال البريطانى السابق بعد انتهاء الانتخابات الأخيرة فى بريطانيا نة ١٩٩٢، وقال: لقد ربح رؤساء تحرير الصحف الانتخابات.. وهو يعنى أن مجموعة الصحف المؤيدة لحزب المحافظين هى التى جعلت فوزه بالانتخابات أمرا ممكنا. وتلك حقيقة، فمن يعرف مثلا أن فى بريطانيا اليوم أكثر من خمسين مليون نسمة وأن عدد الأعضاء الملتزمين فى حزب المحافظين لا يزيد على ٧٥٠ ألف شخص على أعلى تقدير، يدرك على وجه اليقين الدور الذى يلعبه الإعلام والصحف خاصة فى توجيه و«إقناع» الرأى العام بصواب هذا التوجه السياسى وخطأ التوجه الآخر!.. يسعى ملاك الصحف فى البلدان التى تسمح بتداول ملكية الصحف ـ كأية ملكية أخرى ـ أى البلدان التى تعتمد قوى السوق والتعددية السياسية، يسعى هؤلاء إلى شراء وامتلاك الصحف فى أكثر من بلد وفى أكثر من قارة . مالك مثل روبرت مردوخ الاسترالى

أساسا يملك صحفا فى استراليا وبريطانيا وأمريكا، بل ويدير شبكة من محطات التليفزيون عبر الأقمار الصناعية فى بريطانيا واستراليا وهونج كونج ويسعى إلى امتلاك أى وسائل إعلام أخرى إذا ما وجدها متاحة.

روبرت هوسنت يملك صحفا فى فرنسا وما كان يسمى بأوروبا الشرقية، بعد انفتاحها، كونراد بلاك يملك صحفا فى بريطانيا وكندا واستراليا، أما المالكة الكبرى فى هونج كونج سالى أوسيان فهى تملك صحفا فى هونج كونج وفى كل منطقة فى العالم يسكنها صينيون خارج الصين، سواء كانوا فى كاليفورنيا أو سيدنى فى استراليا، ومن الملاحظ أن التوجه العام فى ملكية الصحف فى العالم هو نحو القلة، حيث يقوم هؤلاء الملاك المتنفذون بشراء الصحف فى كل مكان، فإمبراطوريتهم موزعة جغرافيا حول العالم وتنطق بلغات مختلفة ويزدادون سلطة يوما بعد يوم.

العائلات تتقلص والقبضة تشتد

يحدثنا نيكولاس كلارج فى الكتاب الذى أشرت إليه آنفا أنه حتى سنة ١٩٧٠ كان هناك ١٢٥ عائلة ـ وبينهم أشخاص بمفردهم ـ تملك صحفا أو مجموعة صحف مهمة فى العالم، وبينهم من يحتكرون الصحف القومية أو الإقليمية فى بلادهم، الآن «سنة ١٩٩٣» تقلص عددهم إلى أقل من ثلاثين أسرة

وشركة تحتكر أهم الصحف أو مجموعاتها فى العالم، ففى العقود القليلة الماضية أصبحت ملكية الصحف فى أيدى أقل عدد من الناس، بعضها اندمج فى شركات تملك سلسلة من الصحف فى أكثر من قارة، ولكن أكثرها اشتراه أو استحوذ عليه «نمور الصحف» لإشباع جوعهم للصحافة المطبوعة والسلطة التى تتأتى معها، وكمثل القطط المتوحشة كل مالك له «منطقته» المحرمة على الآخرين، وهو على استعداد لدخول معارك ضارية مالية أو سياسية لطرد المتطفلين على منطقته الصحفية .

عائلة شندلر لديها مدينة لوس أنجلوس وتملك صحيفة لوس أنجلوس تايمز النافذة والاثنتان لديها متساويتان، أى المدينة والصحيفة، وكذلك عائلة جراهام لديها الواشنطن بوست ومنطقة واشنطن أيضا! وعائلة سلزبيرجر تملك نيويورك تايمز، وأغاخان: نيروبى وسمير جين: دلهى، وسركار: كلتكا، كل من هؤلاء يحتكر المنطقة والجريدة أو سلسلة الجرائد فيها .

من الأفكار الشائعة أن العائلات التى تملك الجرائد فى الغرب هى عائلات عريقة فى المهنة ولها فترة زمنية طويلة فى هذا العمل، وقد وجد مؤلف الكتاب أن ذلك خرافة، فقط خمسة من هؤلاء المالكين لهم تاريخ فى الملكية، والتاريخ هنا جيلين أو ثلاثة من الملكية، أربع من الخمس هى عائلات أمريكية

سلزبيرجر، شندلر، جراهام، وكوكس شامبرلدز، قصص عائلاتهم تقريبا متشابهة، جد حصل على ماله من المقاولات أو من الصناعة وفى الغالب كان قد خدم فى الجيش، لذلك يسمى «كولونيلا» أو «جنرالا»، يشترى صحيفة صغيرة فى البلدة وذلك لتعزيز نفوذه .. وتدريجيا يشترى الصحف المنافسة حتى يعزز من احتكاره على الصناعة الصحفية ويحول هذا الاحتكار إلى دجاجة تبيض ذهبا، ثم تأتى ملايين الدولارات طوعا لهذا الاحتكار. هذه العائلات القديمة هى أرستقراطية مالكى الصحف، وسلطتها على المجتمع الذى تعمل فيه تكاد تكون كاملة وكذلك على اقتصاده. «الإقطاعية الصحفية» كما يلاحظ الكاتب تكاد تشابه الإقطاعية الزراعية أثناء حكم الإقطاع فى أوروبا، مقاطعة كبيرة من «الأرض» مسيطر عليها من قبل جريدة سلزبيرجر أو شندلر مثلا ويمثلون قمة الغيرة بالنسبة لمنافسيهم فعندما سأل المؤلف ملاك صحف حول العالم: ما هى الصحيفة التى تريد أن تملكها؟ كانت الإجابة فى معظم الأوقات، إما نيويورك تايمز لسلزبيرجر، أو وشنطن بوست لجراهام أو لوس أنجلوس تايمز لعائلة شندلر! البقية الباقية من الملاك وهم الأكثرية اشتروا ملكيتهم لأسباب خاصة بهم وليست أسبابا تاريخية أو عائلية، ويصنفهم الكاتب بعد العائلات الصحفية النبيلة

بالأشخاص «الانتهازين» - ليس بمعناها السلبى بل بالمعنى المحايد - أن يرى شخص فى مؤسسة صحفية قابلية للتوسع والربح فيشتريها، وهؤلاء معظمهم صناعيون وتجار أو مالكون لصحف محدودة الانتشار، عملوا أثناء حياتهم على شراء أو تطوير ما يملكون ثم أضافوا إليه، بعضهم توسع جغرافيا بإنشاء صحف جديدة أو شرائها فى أماكن أخرى عندما تحين الفرص، أشخاص مثل روبرت مردوخ أو كونراد بلاك أو سالى أوسيان - صاحبة احتكار هونج كونج - وغيرهم أمثال سمير جين وأفيك سركار الذين احتكروا الصحف فى دلهى وكلكتا على التوالى، وتوسعوا لشراء صحف فى الهند كما يفعل أمثالهم فى الغرب.

أربع فئات من الملاك

بقية ملاك الصحف يصنفون فى ثلاث فئات، مع أن بعضهم يمكن أن يصنف فى أكثر من فئة فى آن واحد، إما محتكرون سياسيون، أو محتكرون ماليون، أو استعراضيون بالنسبة لهم ملكية الصحف هى طريقة أخرى للفت الانتباه للشخص والملكية، أو ملاك غائبون يتركون الإدارة لمتخصصين دون أن يعرف إلا القلة علاقتهم بالصحف التى يملكونها. روبرت هرسنت صاحب الفيجارو فى باريس وعائلة جونيكا صاحبة أنديا اكسبريس مثال للاستخدام السياسى للصحف، دين

سنجلتون ولورد ستيفن - كمثال - الصحافة بالنسبة لهما عمل تجارى لجنى الأرباح. المستثمر الكندى ويز مورثمار زوخرمان الذى اشترى نيويورك ديلى نيوز فى أكتوبر ١٩٩٢ مستثمر مالى واستعراضى فى الوقت نفسه.

من أهم أصحاب الصحف الاستعراضيين روبرت ماكسويل الذى بنى إمبراطورية مجموعة «الميرور» والذى فقد حياته بشكل غامض العام قبل الماضى وترتب على ذلك فضائح سياسية ومالية. وأصيل نادر المليونير البريطانى ذو الأصل التركى والذى اشترى مجموعة صحف ناطقة بالتركية فى كل من تركيا وقبرص وانتهى أيضا بفضائح مدوية وإفلاس. أغاخان يملك أوسع جريدة فى نيروبى تدعى كامبون، دائما يتحاشى الصحافة بما فيها الحديث لصحيفته رغم أنه على رأس مذهب دينى له أتباع. هناك أصحاب صحف رغم ملكيتهم لعدد كبير منها إلا أنهم «مغمورين» نسبيا. كفث ثمبسون اللورد البريطانى الذى يملك ١٣٠ صحيفة فى الولايات المتحدة و٥٥ فى بريطانيا و٥٠ فى كندا، ومع ذلك فإن اسمه لا يتردد إلا قليلا إن قارناه بروبرت مردوخ أو بروبرت ماكسويل مثلا.

ومثل أى احتكار آخر - خاصة إذا كان عمليا - يتابع المحتكرون القلة للصحافة فى العالم أخبار بعضهم، وذلك

يذكرنا بالشركات النفطية الكبيرة التى يطلق عليها الشقيقات السبع. يؤكدون أنهم لا يقابلون بعضهم بعضا ولكن المؤلف يقول: «كلما ذكرت أننى قابلت أحدهم فى مكان مثل لندن أو نيويورك يرد من أقابله بالقول: نعم لقد كان هناك، وطار الخميس الماضى ليمضى عطلة قصيرة فى جزر البهاما»!!
سمير جين - يقول المؤلف - كان قادرا على أن يقول لى من مكتبه فى جريدة «تايمز أوف انديا» فى بومبى بالضبط أين يوجد منافساه الاثنان سركار وجوانيك فى ذلك الوقت، أحدهما فى نيويورك والثانى فى شاندجرا على التوالى، وبالضبط ماذا يعتقد أنهما يفعلان هناك! أوتس شندلر فى لوس أنجلوس تايمز يراقب دين سنجلتون فى هيوستن. آرثر سلزبيرجر الناشر الشاب لنيويورك تايمز يراقب مثيله دونالد جراهام فى الواشنطن بوست. فى بعض الأوقات - يضيف المؤلف - يعتقد أن هناك من ثلاثين إلى أربعين شخصية مهمة فى كل العالم وجميعهم يراقبون جدول تحركات بعضهم بدقة، ويذكروننى - يتابع الكاتب - بالملوك المحاربين فى القرون الوسطى وكذلك بطالبات مدرسة داخلية للفتيات اليافعات تتحكم فيهن عواطف الغيرة وحب التملك!

لقد أخضعت مجموعة قليلة من ملاك الصحف فيما يزيد قليلا على العقد مناطق جغرافية لنفوذها أكبر مما أخضعه

الإسكندر الأكبر وجنكيز خان فى كل حياتهما، وأصبح توزيع الأخبار بيد عدد قليل جدا من الناس. روبرت مردوخ مثلا عليه أن يوجد مرشحين سياسيين فى أربع قارات لتقوم صحفه وتلفازه بتلميعهم وتأييدهم.

تآكل وجهات النظر

لقد اتفق كثير من المحللين على أن المرحلة التى تحقق فيها احتكار الصحافة قد جعلت التعددية التقليدية فى وجهات النظر متآكلة، وأصبحت القيمة الإخبارية تراعى مباشرة أو غير مباشرة حق مصالح المالكين الكبار، خياراتهم ومواقفهم السياسية والعرقية والاقتصادية، تتسرب من خلال رؤساء تحريرهم وكبار العاملين معهم إلى أن تصل إلى أصغر صحفى فى المؤسسات الكبرى حتى تصبح جزءا من نسيج ثقافة المؤسسة وبالتالى تتحول إلى طبيعة ثانية لكل العاملين، ولا تجد وجهة النظر الأخرى مكانا لها إن لم تكن موافقة للنهج العام فى المؤسسة خاصة فى القضايا التى يعتبرها المالك قضايا أساسية.

كبار نمور الورق يحمون مصالحهم المتبادلة، بل ويصرفون الأنظار عن النشر فى مشكلات بعضهم البعض فى مجال الصحافة أو غيرها من الأعمال، فلم يعرف الجمهور البريطانى - الذى تتابع صحفه كل كبيرة وصغيرة لدى

الأحزاب السياسية ونقابات العمال والحكومة ـ لم يعرف حتى وفاة - أو قل الاغتيال الغامض - لروبرت ماكسويل فى نوفمبر ١٩٩١ أنه اختلس مئات الملايين من الجنيهات من محفظة التأمين الخاصة بعماله لوضعها فى شركاته الخاصة ولم يذكر حتى سطرا واحدا عن مشكلاته المالية.

وكانت دوافع أصيل نادر فى شراء أكبر جريدتين تركيتين يوميتين هو منعهما من إدخال أنفيهما فى إمبراطوريته الصناعية ومشروعاته ومن ضمنها سلسلة الفنادق على «الساحل التركوازى»!

لا يشجع أصحاب الصحف نقد أصحاب الصحف الأخرى أو التعرض لمؤسساتهم الصناعية أو التجارية، فهناك حلف غير معلن فيما بينهم إلا فى الأمور الصغيرة، مثلا مالكو الصحف الكبرى فى بريطانيا أمثال مردوخ أو بلاك أو روثرمير من النادر أن ينشروا ما يسىء إلى أى واحد منهم. وفى خلال ثلاثين سنة لم ينشر شىء سلبى حول عائلات جراهام أو سلزبيرجر أو شندلر أصحاب الصحف الثلاث الأهم فى الولايات المتحدة. فوق ذلك رؤساء التحرير أنفسهم لا يريدون إزعاج الملاك الآخرين لأنهم لا يريدون أن يفسدوا على أنفسهم مجالات فرص العمل الأخرى فى المستقبل، بمعنى أنهم يحصلون على رواتبهم اليوم من هذا المالك ولكن

من يدرى لعلهم يحتاجون إلى عمل فى المستقبل عند مالك آخر.

يقول المؤلف: لقد اعترف لى أكثر من مالك للصحف - شخصيا - أن فلانا أو علانا من الملاك الآخرين سوف يفلسون قريبا، وأنه يعرف حجم مديونياتهم، قالوا لى هذا الكلام فى لندن وسيدنى وتكساس وبومبى، وعندما أسألهم لماذا لا يوجهون المحررين الاقتصاديين فى صحفهم لنشر ما يعرفونه، يصرفون عيونهم عنى وهم يبتسمون ابتسامة تشبه ابتسامة بوذا!!

ملاك الصحف يتملقهم الصناعيون والسياسيون على السواء، فالسياسى الذى يعتقد أن التغطية الصحفية لنشاطاته تفيده فى الصعود على السلم السياسى يحاول أن يوطد العلاقة مع أصحاب الصحف: دعوات خاصة على العشاء، بعض الأسرار المعروفة لأسبقية النشر فى مقابل إشادة بأعماله السياسية وتلميعه اجتماعيا.

رؤساء ومديرو التحرير عيونهم مفتوحة على اتساعها لرغبات المالك، ما يحب وما يكره، وتتحول رغباته وإشاراته إلى موضوعات عامة يقرؤها القراء، إن كان المالك مثلا لا يحب المكرونة فإن حملة ضد المعجنات وضررها على الصحة العامة تترجم هذا الكره، وإن أشار إلى أنه قضى إجازة

ممتازة فى إسبانيا، أو اشتكى من تأخر طائرته، أو اعتقد أن موضوع البيئة موضوع مهم، فإن محرر البيئة والمحرر الاقتصادى وكاتب العمود كلهم يوكل إليهم رئيس التحرير متابعة هذا الموضوع المهم الذى يشغل بال «الرئيس».

مكاتب الصحف خاصة الأدوار البعيدة عن الإدارة تعج بالشائعات، فبعض اقتراحات المالك تكبر وتتضخم عندما تنتقل من مستوى إدارى فى الصحيفة إلى مستوى أدنى.

يذكر الكاتب مثالا طريفا، فمرة أشار أحد ملاك الصحف وهو يمشى فى الممر متجها إلى مكتبه إلى رئيس تحريره «قائلا: هل تعلم أنه أثناء دخولى المبنى هذا الصباح وجدت أن المحل الصغير للقطع الأثرية الذى أمامنا قد أغلق، مع الأسف الشديد لابد أنه أحد ضحايا الوضع الاقتصادى السيىء! ملاحظة عابرة. ثم يتوجه رئيس التحرير للمؤتمر اليومى للتحرير وهو غارق فى التفكير ويقول فى الاجتماع لقد أبلغنى «الرئيس» أن هناك أزمة تواجه قطاع بيع القطع الأثرية وهم يغلقون محلاتهم نتيجة للانكماش الاقتصادى الذى تمر به البلاد!

وتنتقل هذه المعلومة مضخمة كل مرة إلى أن تصل إلى محررى الصفحات الاقتصادية، الرئيس منزعج لأجل الوضع الاقتصادى ولابد من حملة لدراسة الموضوع وأن تكون

الموضع الرئيسى على الصفحة الأولى غدا، وعند الظهر يكون مجموعة من المحررين قد قابلوا المتخصصين فى الجامعات وغرف التجارة، وقابلوا عشرات من المواطنين، وذهبت مجموعة أخرى لتصوير المحل المغلق والبحث عن صاحبه لإجراء مقابلة حية معه، ويكتشف الجميع بعد ذلك أن المحل مغلق مؤقتا لأن صاحبه فى إجازة سنوية وسيعود لفتحه بعد أسبوع!

أهمية أن تكون مالكا

لماذا أصبحت سلطة صاحب الجريدة أقوى وأكثر تأثيرا مثلا من سلطة صاحب سلسلة من محلات البقالة الكبيرة، أو سلطة صاحب متجر متعدد الأدوار من المحلات الكبرى؟ ونظريا فإن صاحب متاجر البقالة أو المحلات الكبرى يجب أن يتمتع باحترام أكثر من صاحب جريدة سيارة! ولكن الأمر ليس كذلك. ببساطة لأنه بمجرد أن تملك جريدة يومية فإن المالك يتحول تلقائيا إلى خبير فى الاقتصاد والسياسة و... مستقبل العالم. ويكون محط امتداح وثناء ليس فقط من موظفيه، ولكن من عدد من الناس أصحاب الأعمال، أعضاء مجالس الإدارة، جمعيات النفع العام، أو أناس يتوقعون الحصول على عمل عنده.

لماذا يلجأ هؤلاء الرجال الأغنياء لشراء الصحف القائمة

على الرغم من أن إصدار جريدة أو أكثر فى الدول التى تتبع نظام السوق لا توجد أمامها أى حواجز.

يختصر المؤلف الإجابة بالقول إن الإصدارات الجديدة فى الغالب تفشل.

رالف انجلسول فى الولايات المتحدة أطلق أكبر مشروع صحفي جديد وصرف عليه ملايين الدولارات فى مدينة سانت لويس، واستمر المشروع فقط ثلاثة أشهر قبل أن يفشل ويأخذ معه ١٢٠ مليون دولار، روبرت ماكسويل أراد أن ينافس الجريدة المسائية فى لندن التى يملكها روثر مير وهى «الإيفننج ستاندر» فأطلق «الديلى نيوز» استمرت ثلاثة أشهر وأغلقت بخسارة بلغت ٥٠ مليون جنيه إسترلينى.

«بالمناسبة الإيفننج ستاندر هى الجريدة البريطانية الأكثر انتشارا من كل الصحف - أخيرا توزع حوالى ٦٥٠ ألف نسخة وهى مسائية توزع فى لندن الكبرى فقط».

المشروعات الصحفية الجديدة الناجحة قليلة، الريبابليكا «الجمهورية» فى إيطاليا، الموندو فى إسبانيا، ويو. إس. أيه توداى فى الولايات المتحدة، وفى بريطانيا جريدة الإندبندنت . وقصة الأخيرة طريفة أيضا فعندما اختلف بعض الصحافيين مع صاحب التلجراف كونراد بلاك الذى يملك الصحيفة السابقة، إضافة إلى مجموعة صحف أخرى فى بريطانيا أولا

والكاريبى وكندا والولايات المتحدة، خرجوا كمجموعة وأسسوا «الإندبندنت» ولخبرتهم الصحفية الممتازة نجحت الجريدة.

الصراع على أسواق الشرق

بعد سقوط الاتحاد السوفييتى حصل سباق من قبل «نمور الصحف» على امتلاك الصحف فى عواصم ودول أوروبا الشرقية، بعض هذه الصحف كانت أرقامها التوزيعية كبيرة، ولكنها كانت توزع تلك الأعداد لأنها صحيفة الحزب أو الدولة الاشتراكية السابقة، وكان على جميع المصانع والمؤسسات والمنظمات الحزبية شراء هذه الصحيفة وكانت قراءتها واجبا سياسيا وحزبيا، وفى كل الحالات كان المالك الغربى وليس ممثل عنه هو الذى يسعى لامتلاك الصحف هناك ويتفاوض مباشرة حتى لقد أصاب هؤلاء الملاك نشاط مرضى فى التسابق على اقتناص هذه الصحف، كما يقول المؤلف.[ويبدو أن هناك ثلاثة أسباب جعلتهم يسعون حثيثا لتملك صحافة فى أوروبا الشرقية، أول هذه الأسباب حياتهم العملية خارج مجال الإعلام، بمعنى اهتماماتهم ومصالحهم الاقتصادية، فقد بدا أن هناك فرصا عظيمة للاستثمار، أى شيء معروض للبيع بدءا من شراء المصانع والأراضى وإقامة المشروعات الاستهلاكية وبأثمان بخسة، إلى شراء الصحف التى تحقق

الربح بجانب احتكارها للرأى العام أيضا.

وثانى هذه الأسباب، هو أن شعوب أوروبا الشرقية أصبحت سوقا شرهة للمصنوعات الغربية، فقد كان حلم الحصول على أشياء مصنعة فى الغرب حلما محرما فى الماضى، وبعد الانفتاح تدفق الناس للحصول على أدوات الاستهلاك الغربى، فركدت البضاعة المحلية التى لم تكن تخلو من الجودة وأصبحت أكثر رخصا. أما السبب الثالث فهو عدد القراء وبالتالى عدد المستهلكين الضخم فى بلاد لم تعرف المنافسة بعد.

من الأرض إلى السماء

كبار محتكرى الصحافة أو نمور الورق يتجهون اتجاها آخر يضاف إلى احتكاراتهم الأرضية، فقد تحول التنافس الآن إلى السماء وأعنى بها السيطرة على البث التليفزيونى العالمى والذى أصبح حقيقة معيشة لدى معظم شعوب الأرض - عدا القلة التى لاتزال تحت ستار حديدى بشكل أو بآخر - السيطرة على البث التليفزيونى الدولى هى بمثابة الحصول على «رخصة بطبع النقود» كما يقول أحد المعلقين. وإذا كان ذلك حقيقة فلم لا يتجه إليها ملاك الصحف! وهذا ما تم بالفعل من كبارهم: روبرت مردوخ صاحب جريدة التايمز وعدد آخر من الجرائد فى القارات الأربع. أنشأ منذ سنوات

محطة سكاى البريطانية، بدأت فى بريطانيا وأوروبا وأصبحت دولية تشع برامج مختلفة.

انتشار الأقمار الصناعية التى تبث إلى العالم البرامج التليفزيونية تقدم أكثر تعبيراتها حيوية فى القاعة التى يشغلها اتحاد الاتصالات الدولية فى قصر الأمم فى مدينة جنيف. فى تلك القاعة خريطة ضخمة فى وسطها الكرة الأرضية زاهية محاطة بخطوط متداخلة متجهة إلى الفضاء الأزرق، أسهم تشير إلى ٤٤٦ نقطة هى الأقمار الصناعية التى أطلقت فى الفضاء منذ سنة ١٩٧٠، مئات منها تستقبل وتبث البرامج التليفزيونية لأركان العالم الأربعة وهناك قائمة للدول التى قامت بإطلاق هذه الأقمار.

١٣٨ قمرا صناعيا أطلقها الاتحاد السوفييتى «سابقا»، ١٢٦ أطلقتها الولايات المتحدة، ٦ أقمار أطلقتها بريطانيا، ١٧ فرنسا، وعلى الرغم من أن أقل من ربع هذه الأقمار تبث برامج تليفزيونية والباقى لها أغراض أخرى، من بينها جمع المعلومات العسكرية، فإن بحلول سنة ٢٠٠٠ سيزيد عدد الأقمار الصناعية الخاصة بالبث التليفزيونى على ٣٧٠ قمرا.

هناك معركة متوقعة بين قطبين من أقطاب ملاك الصحافة على هذا المجال، من جهة هناك روبرت مردوخ ومن جهة أخرى هناك تيد تيرنر صاحب محطة CNN الأمريكية

المشهورة. احتكار البث التليفزيونى العالمى من تيد تيرنر لم يقابل بأى تحد حقيقى منذ سنة ١٩٨٠، ولكن مردوخ صاحب السكاى فى بريطانيا وتليفزيون فوكس فى أمريكا، يتأهب للدخول فى آسيا لربط شبكته الدولية مع بعضها.

وفى هذه الأثناء فإن هناك حربا أخرى أيضا لتخفيف تكاليف إطلاق القمر الصناعى، فالأوروبيون والأمريكيون فى مواجهة تكاليف الإطلاق الصينية والروسية المنخفضة يتشاركون معا فى أبحاث تجعل إطلاق الأقمار الصناعية إلى الفضاء أقل تكلفة.

خلال السنوات السبع القادمة يقدر الخبراء «أى حتى سنة ٢٠٠٠» أن عدد مشاهدى التليفزيون المبثوث عبر الأقمار الصناعية سيفوق فى بعض البلدان عدد مشاهدى التليفزيون القومى والمحلى.

لصالح من ؟

إن الاكتشافات الجديدة لوسائل الاتصال لا تتوقف، وسوف تؤدى بالضرورة إلى إحداث طفرة كبيرة فى كم وفورية الإعلام، ولكن ما يحدث الآن يثير المخاوف من ألا تصبح هذه الوسائل أدوات فى خدمة الديمقراطية وتدفق المعرفة بقدر ما تكون أداة لتوجيه العقول والتلاعب بها. وبدلا من أن تكون وسيلة للمشاركة الشعبية فى صنع القرار السياسى تتحول

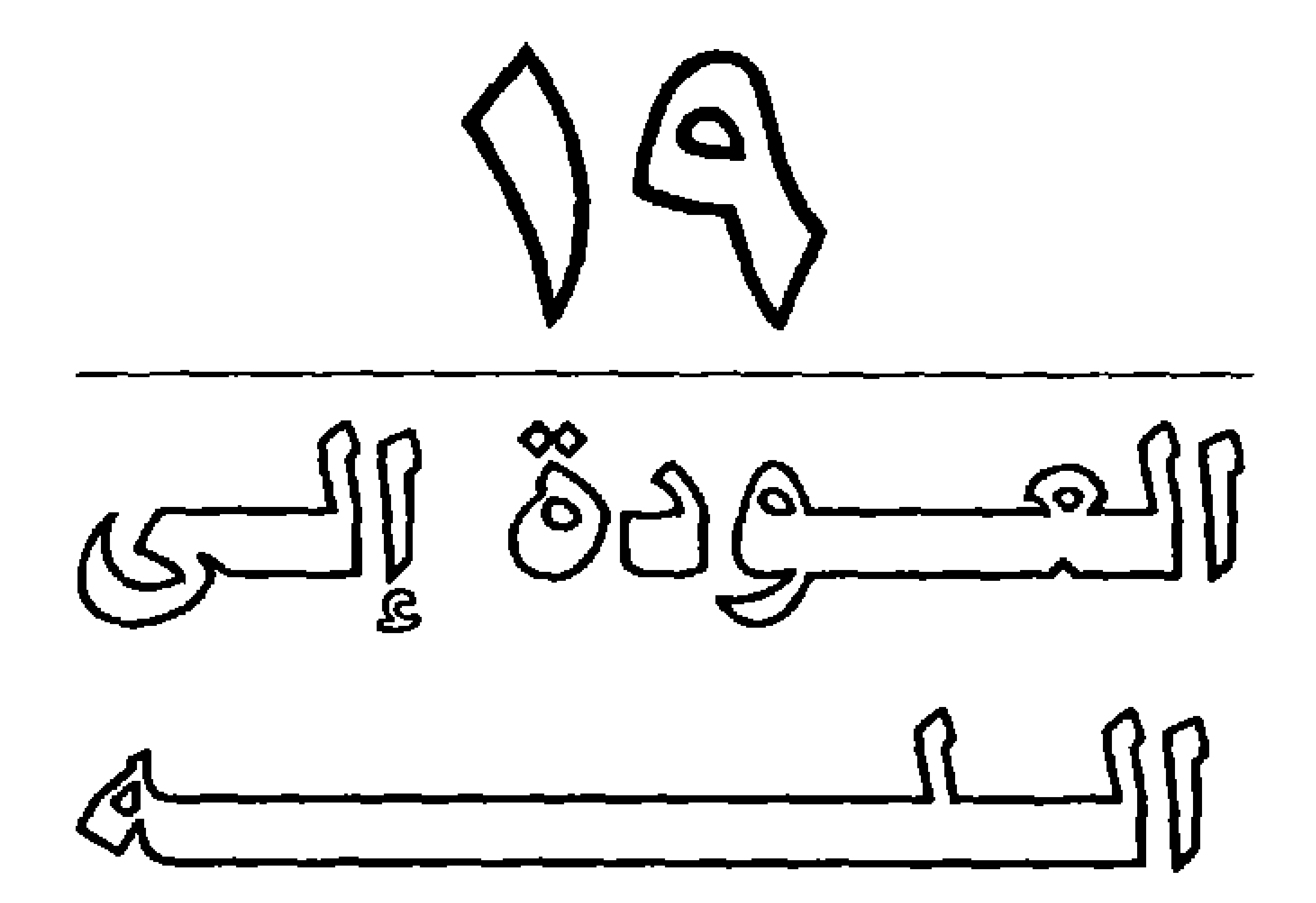
لتقدم نوعا من الوعى الزائف وتسبب الانحراف عن جوهر القضايا الأساسية. وهكذا لا يصبح من المهم توالى تطور هذه التقنيات بقدر ما يكون السؤال.. لمصلحة من وتحت سيطرة من سيجرى استخدام هذه التقنيات؟

هل تستمر هذه الشركات فى إحكام سيطرتها الإعلامية؟ فرغم الحقائق المذهلة التى أوردها الكتاب الذى تعرضنا له فى مجال صناعة الصحف فقط إلا أن المعلومات الضرورية من أجل كسر هذه الدائرة المغلقة من الامتيازات لم تتوافر بعد. وهذا الأمر هو جزء من احتكار المعلومات التى تتحكم فيها مؤسسة ما، وهو الذى يعطيها قوتها اللامرئية.

ولكن من المؤكد أن اتساع هذا النظام وتطوره يتيح الفرصة لأعداد كبيرة من العمالة المؤهلة التى يمكن أن تزيد من انتقادها لتلك القبضة من الاحتكار وتسعى إلى كسرها، كما أن ظهور أنواع مختلفة من التعاونيات الإعلامية تقوم على أساس ثقافى أو عرقى أو اقتصادى سوف تساعد على هذا الأمر، كما أن رخص وسائل الاتصال سوف يكون فرصة طيبة تتيح لأعداد كبيرة من الأفراد اكتساب المعرفة الكافية بالممارسات الفنية والإجرائية للعمل الإعلامى.

إن ارتفاع الحس الديمقراطى والرغبة فى المشاركة لدى قطاعات كبيرة من الناس سوف يولد جماعات صغيرة متفرقة

تعمل بعيدا عن السلطة الإعلامية. وسوف تكون هذه الجماعات - التى هى موجودة بالفعل وإن كانت غير مؤثرة - النواة الحقيقية لكسر هذا الاحتكار الإعلامى.


١٩
العودة إلى
الله

«العودة إلى الله» هو اختيارى لترجمة عنوان الكتاب الذى وضع له مؤلفه الفرنسى جيليه كيبل Gilles Kepel عنوانا أكثر إثارة هو «ثأر الرب»، والكتاب صدر بالفرنسية سنة ١٩٩١، ثم ترجم إلى الإنجليزية وصدر سنة ١٩٩٤. وهى الطبعة التى اعتمدت عليها فى تقديم الكتاب هنا.

أولى الملاحظات الرئيسية التى تواجه الكتابة فى مثل هذا الموضوع هى مشكلة «المفاهيم»، فإن كانت أقرب إلى الدقة وأكثر تأطيرا فى اللغات الحية الأخرى فإنها فى اللغة العربية قد تأخذ مستعملها إلى مداخل لا يريدها ولا يقصدها، إلا أن الأمانة العلمية تدعو دائما إلى أن نتقيد بما جاء به المؤلف فى مفاهيم مثل «الأصولية» أو «التطرف» أو «الأسلمة» و«التمسيح» و«التهويد» «بمعنى العودة من جديد إلى هذه الأديان» من قبل معتنقيها.. وهذا الأمر يضعنا فى نوع من التناقض، فإن كان مسلما فلماذا «العودة» إلى الإسلام؟ وإن كان مسيحيا فلماذا العودة إلى المسيحية؟ وإن كان يهوديا فلماذا العودة إلى اليهودية؟ المعنى بالطبع هو «العودة» إلى الأصول أو الرجعة المعاصرة «للأصول» كما يراها الجيل الحالى.

حسب ما هو متوافر فإن الكاتب يحاول تفسير العودة من جديد إلى الدين بشعائره وتطبيقاته على فترات زمنية متفاوتة

قبل عصر الصناعة، وفى عصر الصناعة وما بعد الصناعة، وهى ظاهرة كما يراها الكاتب «عالمية» فى كل الأديان ولها تماثلها فى بعض الجوانب وخصوصياتها فى جوانب أخرى.

وعرض الكتاب ومفاهيمه وانطلاقاته لا يعنى إلا الإشارة إلى أهميته، وبالتالى لا يعنى الإحاطة بما يريد، فهو كتاب يجلب لقارئه تداعيات كثيرة ويطرح قضية من أهم قضايا العصر الفكرية والسياسية فى عالم يموج بالمتغيرات والتبدلات، عالم السنوات الأخيرة من القرن العشرين، فبعد أن سارت البشرية فى تطورها خطوات كبيرة، يعود الإنسان من جديد ليرى نفسه «حائرا» يقلب بصره ويشحذ بصيرته ليتعرف على ما حوله لكثرة المتغيرات التى يواجهها كما وكيفا.. ولكنه كتاب أيضا يضعنا أمام مسئولياتنا، فليس من المهم أن نوافق على ما جاء فى الكتاب أو نختلف معه، المهم أن يثير فينا ملكة التفكير، فهو يقوم بعقد دراسة مقارنة بين ظواهر عالمية ليست مقصورة على وطن أو دين أو ثقافة بل هى عالمية بشمولها، ونحن المسلمين والعرب جزء منها.

عودة ظهور الإيمان بالدين واتساعها فى مجتمعات شتى مع ظهور المعاناة والصراع الاجتماعى والسياسى وبمقارنة ظواهر هذه العودة ومسبباتها فى ثلاث ديانات سماوية هى الإسلام، والمسيحية، واليهودية هو محور الكتاب وموضوعه،

ولكنه يدعى - دون أن فعل - أن نفس الظواهر تنتشر فى الهندوكية والشنتو والبوذية، فهى ظواهر تلخص «أزمة العصر».

الأصولية فى مواجهة العلمانية

ويفترض الكاتب أن هناك تماثلا فى العودة إلى الدين بين أتباع الديانات السماوية الثلاث، فالجميع «يعارض» القيم التى أفرزتها المجتمعات العلمانية والتى أنجبت الليبرالية والديمقراطية والروح الفردية، وأن العودة إلى «الأصولية» فى الديانات الثلاث قد استفادت من الشعور المتنامى لدى جمهور واسع بعدم الرضا واستحالة التكيف مع الأيديولوجيات السياسية التى أفرزها القرن العشرون وسادت لفترة طويلة. ويعترف الكاتب أن هذه العودة فى الديانات الثلاث وكل على حدة، هى ليست واحدة بل إنها حركات تتنوع فى كل واحد منها. وتتعدد كألوان الطيف، فهناك حركات «ثورية» تريد التغيير «من أعلى» وهناك حركات دعوة «سلمية» ترغب فى التغيير «من أسفل»، هناك من يريد القفز على السلطة لتغيير الواقع غير المرغوب، وهناك أيضا من يريد أن يستخدم المؤسسات التبشيرية للوصول إلى أهدافه، وأخرى ترى أن دعوة الجماهير إلى الطريق القويم وتحويل حياتهم اليومية إلى طريق الهداية هو ما سوف يقود فى النهاية إلى إصلاح

المجتمع.

قيمة الكتاب أنه ينظر إلى الظواهر هذه من منظور «محايد» وليس له موقف مسبق مع أو ضد، كما أنه يتابع بشكل تاريخى قريب إلى الدقة فترة الحضانة لهذه الحركات الداعية إلى العودة إلى الأصول والدين، وهى فترة حضانة قصيرة فى بعض المجتمعات، وأطول نسبيا فى أخرى، ولكنه بشكل عام يعتقد أن عقد السبعينيات من هذا القرن هو التئام العلاقة بين الدين والسياسية، بعد طلاق بدا للبعض أنه نهائى ولا عودة عنه بين الاثنين فى العقود الأولى من القرن العشرين، نتيجة تراكمات طويلة سعى إليها فلاسفة التنوير منذ القرن الماضى «التاسع عشر» وأصبح تأثير الدين أو «نفوذه» على السياسة ضعيفا فى السنوات اللاحقة للحرب العالمية الثانية، وانحصر تأثيره فى المجتمعات على السلوكيات الفردية والعائلية، وفى مجتمعات أخرى «مثل المجتمعات التى كانت تدعو إلى الشيوعية» انحسر الدين - بعد أن حاربته الدولة التى تسعى إلى العلمانية بل وأعلنت أنها ملحدة أيضا - إلى أقل نقطة ممكنة..

ذاك التوجه العام فى فصل الدين عن السياسة الذى واكب الحداثة وانتصار التكنولوجيا الحديثة وأصبح يعرف بعنوان عريض اسمه «التقدم» كانت له مظاهر عديدة ومتفاوتة فى

العمق ومختلفة حسب الثقافات فى المجتمعات المختلفة، ففى بعض الأوقات كان هذا التقدم واعتناق فصل الدين عن السياسة أو الدين عن الدولة معمولا به من قبل النخبة، تكبر الشريحة أو تصغر حسب ظروف البلد المعنى وحسب تصور هذه النخبة للعالم، فى حين أن الجماهير الأوسع متمسكة بسلوكياتها الدينية، وكانت بلاد إسلامية وعربية عددة من هذه الفئة.

وفى بعض المجتمعات، من جهة أخرى كان الارتباط بين العلمانية والحداثة، يتعدى النخبة ليصل إلى قطاعات أوسع فى المجتمع، ومثال لذلك المجتمعات الصناعية الغربية. ولكن هذا الغطاء العام للعالم بفئاته المختلفة كان يخفى عملية تغير غير ظاهرة تحت السطح لم تحقق اتساعا وانتشارا إلا فى عقد السبعينيات وما بعدها من هذا القرن.

ومن الملاحظات المهمة التى يراها الكاتب أن عقد الستينيات - مباشرة قبل الوعى الدينى الجديد فى السبعينيات - قد شهد الدرجة الأضعف فى العلاقة بين الدين والسياسة إلى درجة وجد دعاة إحياء الدين - خاصة فى الغرب - أنها مقلقة، ومهددة بانفصام نهائى، ووجدت مؤسسات دينية فى الغرب - خاصة رعاة الكنيسة الكاثوليكية - أن عليها أن تجاهد لتكيف رسالتها الدينية، مع قيم الحداثة التى بدت مستقرة وقتها،

والبحث ما أمكن عن نقاط مشتركة بين القيم الدينية والعلمانية وتأكيدها ومحاولة تأصيلها، وأبرز ظاهرة فى هذا الاتجاه ما وصل إليه المجتمع المسكونى فى الفاتيكان فى دورته الثانية (٦٢ ـ ١٩٦٥)، وما عرف لاحقا بتبنيه لمبدأ «الأجرامنتو» Aggramanto، والتى تعنى تحديث أو عصرنة وتطوير الكنيسة، وهى ظاهرة لم تكن مقصورة على المذهب الكاثوليكى، فقد شارك دعاة المذهب البروتستنتى فى هذا الاتجاه وظهرت كتابات كثيرة فى فترة الستينيات تحاول مواءمة الحداثة وقيمها مع قيم الدين، ولعلنى أستطرد حتى يمكن أن نتتبع هذه الظاهرة فى الإسلام فنجد كتابات من الخمسينيات إلى السبعينيات تحت عناوين مثل اليسار فى الإسلام أو الاشتراكية والإسلام، أو الإسلام والعلم الحديث وكذا الديمقراطية والإسلام.

فى حوالى منتصف العقد السابع من هذا القرن ـ يرى الكاتب ـ أن تلك الخطوات اتجهت تقريباً إلى عكسها، توجه دينى جديد أخذ شكلا لا يهدف للتكيف مع القيم العلمانية فقط بل يطرح نفسه كبديل قائم على «الأسس الدينية» لتنظيم المجتمع عن طريق تغييره ـ إن كان ذلك ضروريا ـ إما من أعلى أو من أسفل، هذا التوجه ـ يلاحظ الكاتب ـ ليس جديدا فجذور بعض حركاته ضارب فى القدم منذ بداية القرن

العشرين، وقد تمثلت فى ظاهرتين جماهيريتين هما اتساع القاعدة الشعبية المؤمنة بالدين والمتعلقة بتعاليمه، والثانية ارتباطه بالسياسة، إنه شعور بالتحرك ضد «حداثة» فشلت، وكان سبب فشلها بل موتها البعد عن اليقين الدينى، ظاهرة أخذت شكلها فى التيار العريض بالدعوة «للتنصير الثانى لأوروبا» وفى الحركة الإسلامية لم يكن الهدف - كما حاول البعض أن يفسر - هو تحديث الإسلام بل «أسلمة الحداثة».

منذ ذلك التاريخ - النصف الثانى من السبعينيات - أخذت الظاهرة الدينية فى الانتصار وهى تظهر فى حضارات تختلف فيما بينها فى الأصول الثقافية ومستوى التطور الاقتصادى والاجتماعى، ولكنها حيث تظهر تضع نفسها أمام «أزمة» فى المجتمع، أزمة فجرتها الحيرة والتذبذب وضياع الطريق أمام مجتمعات عديدة، وتدعى تلك الحركات أنها تعرف الأسباب الكامنة خلف تلك «الأزمة»، وهى أزمة أبعد وأعمق من الأعراض الاقتصادية والسياسية والثقافية التى تحاول أن تفسرها نظريات الحداثة على مستوياتها المختلفة، وأن تفسيرها باختصار يقع تحت عنوان «البعد عن الله».

ظاهرة الدعوات الدينية تمتد من مصر إلى براغ، ومن الجزائر إلى الولايات المتحدة ومن إيطاليا إلى حركة «جوش أمونيم» اليهودية المتعصبة فى إسرائيل.

لم تعد دعوات هامشية

الأعضاء والدعاة والمنتمون لهذه الحركات الدينية الحديثة لم يكتفوا بدعوة الفئات الهامشية فى المجتمع، فلم يعد التدين توجها صالحا لكبار السن وأنصاف المتعلمين وسكان الأرياف والمحرومين فى المجتمع من ذوى الدخول البسيطة أو المتوسطة، ولكن عددا كبيرا من الشباب ومتوسطى الأعمار ومتوسطى الدخل والمتعلمين فى المعاهد العلمية الحديثة مع ميل نحو العلوم التقنية والفنية، كل هؤلاء وجدوا طريقهم إلى هذه التجمعات، التى يناسبهم توصيفها للحلول لعلل المجتمع ورسم طرق العلاج التى تدعو إليها هذه الحركات الدينية، المهم أن طريق العلاج والشفاء له علاقة وثيقة بطريقة التفكير التى تعلموها فى المدارس الحديثة التى هى نتاج الحداثة التى يريدون تقويضها وتغييرها.

ولا يبدو الأمر متناقضا كما يخيل للبعض لأول وهلة، فعند تناولهم لشرح النصوص المقدسة لتأكيد ومعاضدة ما يدعون إليه لا يكتفون بالطرق التقليدية التى قال بها الأحبار أو الحاخامات أو العلماء السابقون أو الحاليون والذين هم غالبا ما تأتى تفسيراتهم إلى جانب «المحافظة الاجتماعية»، بل يرفضون بعض هذه التفسيرات إلى درجة اتهام بعض اجتهادات هؤلاء بأنها تدعو إلى «الدين الرسمى» والذى تنتقده

هذه التيارات بشدة، بل تستخدم القيادة الفكرية الجديدة مناهج البحث العلمى الحديث، وحتى إنجازاته للتدليل على حجة فاصلة بين الطرق «العلمية» والأهداف والقيم «العلمانية».

للوهلة الأولى وعند قراءة أدبياتهم هذه، يبدو أن قيادات وأعضاء هذه الحركات لها مظهر «مثقفى الطبقة البروليتارية» كما دعاها عالم الاجتماع الألمانى ماكس فير، فكلاهما يشترك فى عناصر مشتركة أهمها تحدى ونقد الطريقة التى ينظم بها المجتمع القائم نفسه، كاعتماده على أسس علمانية كما فى فرنسا أو ابتعاده وانحرافه عن أصوله ذات الجذور الدينية كما فى الولايات المتحدة، أو فى البلدان الإسلامية. وكذلك فإنهم يشككون فى الأرضية العلمانية التى يقف عليها المجتمع، وغياب مثاليات عامة تستحق ولاءهم، هم لا يحاربون أخلاقيات علمانية بالنسبة لهم غير موجودة، ولكنهم يؤمنون أن التحديث الذى نشأ على الفكرة الفلسفية الداعية إلى السببية أو الذرائعية أضعف الانسجام الاجتماعى الذى حاولت «دولة الرعاية» الغربية أن تغطى شروره، وكأن هذه الشرور قد ظهرت فى العالم كاشفة عن مآس اجتماعية وإنسانية، ما كان لها أن تظهر لو أن المجتمع انقاد لمشيئة الرب وعمل بأوامره ونواهيه.

أزمة السبعينيات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بالنسبة لهؤلاء الدعاة إيجابيات لأنها قد عرّت الليبرالية والماركسية والعلمانية، وأظهرت فراغها من محتوى إنسانى، إنها أيديولوجيات قد قادت إلى مجتمعات استهلاكية أنانية فى الغرب، وإلى شمولية وقمع فى الدول الاشتراكية وإلى فقر واضطهاد وحرمان فى العالم الثالث.

المعارضة الاجتماعية/ السياسية التى تبنتها الحركات الدينية ليست معارضة «ملحقة» أو «ذات ملابس صورية» لحركات قديمة حتى لو تماثلت مفرداتها بمفردات حركات سابقة كالحديث عن المضطهدين، والمضطهدين بمفهوم المستضعفين والمستكبرين، إنما هى حركات ذات مفاهيم جديدة.

علامات مميزة

سنوات ٧٧، ٧٨، ١٩٨٩ شهدت تغيرا فى التوجه لدى الحركات الدينية فى الأديان الثلاثة، ففى مايو سنة ١٩٧٧ لأول مرة فى تاريخ الدولة اليهودية - إسرائيل - يفشل حزب العمل الذى واصل حكم الدولة الإسرائيلية منذ إنشائها سنة ١٩٤٨ لأول مرة فى الحصول على أغلبية فى الكنيست الإسرائيلى وأصبح مناحيم بيجن اليمينى رئس وزراء إسرائيل.

وصول تحالف الليكود اليمينى إلى الحكم جاء على خلفية من نمو حركات يهودية فى داخل وخارج إسرائيل تدعو للعودة «إلى اليهودية» والفاصلة مع المجتمع العلمانى وعدم الاختلاط بالآخرين «غير المؤمنين» والتى هى التهديد الأكبر «لشعب الله المختار» حركة العودة انتشرت بدرجات مختلفة وتبنتها فئات تيارات متدرجة فى التعصب لدى الشعب الإسرائيلى، وأصبحت حركة «جوش أمونيم» وهى حركة تعنى «جهد المؤمنين» هى العمود الفقرى للتيارات اليهودية الدينية/ السياسية المتعصبة،وقد ظهرت الحركة إلى العلن مباشرة بعد الحرب العربية/ الإسرائيلية سنة ١٩٧٣، والتى اعتبرت «هزيمة نفسية لإسرائيل»، وتحولت هذه الحركة إلى حركة إرهابية من جهة وداعية إلى إقامة مستوطانات يهودية فى الأرض المحتلة من جهة أخرى، داعية إلى تبديل مفهوم «دولة إسرائيل» إلى «أرض إسرائيل»، وقامت هى أو مجموعات متعصبة أخرى مماثلة بالعديد من الهجمات الإرهابية على المدن والتجمعات الفلسطينية واستهدفت المؤسسات الإسلامية والعربية، ولعل المذبحة التى حدثت يوم الجمعة الخامس والعشرين من فبراير الماضى فى الحرم الإبراهيمى (*) والتى قامت بها عناصر من حركة «كاخ» اليمينية المتطرفة جزء من هذا التيار المتشدد، وبعد عشر سنوات من وصول الليكود

إلى الحكم تم فى إسرائيل فى ربيع ١٩٨٧ استطلاع رأى عن أفضل شخصيات إسرائيل من ١٩٦٧ «منذ حرب الأيام الستة» فكان مناحيم بيجن والحاخام موسى لينفجر - رئيس جوش أمونيم - على رأس القائمة.

فى الجو الذى أعقب حرب ١٩٧٣ العربية/ الإسرائيلية تساءلت قطاعات واسعة من اليهود فى إسرائيل حول معنى وهوية اليهودية، والعديد من اليهود أعادوا حساباتهم بشكل نقدى حول شمولية التقاليد الصهيونية التى جاءت بهم إلى إسرائيل، والتى كان محتواها اشتراكيا/ علمانيا، وكانت مسيطرة على السياسة الإسرائيلية فى ذلك الوقت، وبدأت الأحزاب الدينية الإسرائيلية تستقطب أعدادا أكبر من الأنصار، وتراوحت فى توجهاتها بدءا من الرفض القاطع «للصهيونية» حيث تتبنى أصولية مغرقة فى الفهم الدينى القديم، وجماعات تتبنى الاحتفاظ بأرض إسرائيل كما جاءت فى التوراة، لكنها جميعا رفضت مفهوم أن اليهودية انتماء بسيط ومباشر وهوية عامة ذات محتوى تحديثى، لقد صممت هذه التيارات والأحزاب على التمسك بالتقاليد اليهودية مع التشدد فى فهم الذات، وممارسة الطقوس بحذافيرها، من أقل ما يقوم به الفرد فى حياته اليومية تجاه جسده إلى تنظيم الحياة الاجتماعية.

حركة العودة انتشرت بدرجات مختلفة ليس فى إسرائيل فقط ولكن فى التجمعات اليهودية فى الخارج، وتحالف الدين والسياسة فى إسرائيل للوصول إلى الحكم فى سنة ١٩٧٧، وقد نجح . إلا أن ذاك التحالف لم يستمر وخسر الليكود أغلبيته فى سنة ١٩٩٢، ولكن لتبقى الأحزاب الدينية اليهودية عنصرا مهما فى التكوين السياسى الإسرائيلى لا تقوم حكومة إلا بالتحالف مع بعضها على الأقل.

الأصولية المسيحية ضد الشيوعية والليبرالية

أما الحركة الأصولية المسيحية خاصة الكاثوليكية فقد سلكت طريقين فى العودة من جديد إلى الدين، طريق محاربة الشيوعية فى أوروبا الغربية والشرقية على السواء، والآخر محاربة «البرجوازية الليبرالية» فى المجتمعات الغربية خصوصا، ولقد التبست هذه الدعوة فى بعض شعاراتها مع شعارات يسارية، وبرزت مشكلة استخدام «المصطلحات» فهى فى بعض الأوقات الأخرى تعنى المعنى المضاد تماما، فبعض الحركات الدينية تتبنى فكرة القفز على السلطة من أجل صلاح المجتمع وهى بذلك تتبنى مصطلحات «ثورية» أو «انقلابية» وبعضها يعمل لتشكيل مجتمعات من المواطنين المؤمنين، الذين يفاصلون بينهم وبين ملذات الحياة الدينية لينذروا حياتهم للرب، ومن ثم يصلح المجتمع.

هذه الحركات الأخيرة تنشط اليوم فى الكاثوليكية والبروتستانتية، وتجد تشابها لها بحركة «التبليغ» فى الإسلام، هذه الحركات «الدعوية» تزداد - مع الوقت - فى الحجم والأهمية، ولأنها تعتمد الإنقاذ الشخصى والبعد عن تعاطى السياسة فهى عادة ما تترك لذاتها دون مضايقات من السلطة القائمة، هذه الدعوات بدأت لدى الأقليات التى تعيش فى وسط دينى أكثر مغايرة، فقد بدأ اليهود فى الولايات المتحدة وفى فرنسا بدرجة أكبر يحافظون على هويتهم من الذوبان خاصة فى فرنسا - التى تسمح قوانينها الليبرالية بالذوبان - فقد أكدت الأقليات اليهودية تصميمها على الاحتفاظ بـ «الجينو» فيها لأنها الأقرب إلى عزلهم عن المجرى العام، بل وصل بهم الأمر إلى إدانة «تحرير اليهود» بمعنى دمجهم فى المجتمع، تلك الفكرة التى يدعو لها الليبراليون والمثقفون الفرنسيون، وكذلك حركة «التبليغ» التى نشأت بين المسلمين فى الهند.

وفى سبتمبر ١٩٨٧ عندما انتخب الكاردينال البولندى «كارل فوجتابل» - الشهير بيوحنا بولس الثانى - بابا جديدا فى روما، قرر إنهاء مرحلة التردد والمراوحة التى تمثلت بتعاليم المجتمع المسكونى الثانى ودعوته «الأجرامنتو» التى حاولت التوفيق بين التعاليم الكاثوليكية وقيم المجتمع

العلمانى، تلك الدعوة التى شوشت على عدد كبير من القساوسة الكاثوليك والتى حاولت أن تتخلل طقوسهم ببعض مظاهر الحداثة التى لم يكونوا يرغبونها أو يفهمونها.

لقد رصد يوحنا بولس الثانى الحركة الصاعدة للقساوسة من أهل اليسار والذين كانوا فى مقدمة المتصدين للفساد والفقر خاصة فى مجتمعات أمريكا اللاتينية التى كانت الصحافة تطلق عليهم لقب «القساوسة الحمر» والذين كانوا يعتبرون أنفسهم ضمير الكنيسة، رصد هذه الظاهرة وكيفها على أنها سوف تؤدى فى نهاية المطاف إلى انتصار ليس لتعاليم الكنيسة بقدر ما هو انتصار للأفكار اليسارية والتى هى قد فشلت فى أماكن أخرى فى التطبيق خاصة مسقط رأسه «بولندا»، وأن انتصارها ولو المؤقت سوف يعزز من العلمانية والإلحاد المتمثل فى المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية.

إن القساوسة الحمر يتبعون نظرية السببية فى الوقت الذى يجب أن يتجهوا فيه لإنقاذ البشرية عن طريق العودة إلى تعاليم الرب، تبنى يوحنا بولس الثانى نظرية معاكسة لذلك وهى الفصل بين العلمانية وبين تعاليم المسيحية، ويهدف من هذه الدعوة إلى إعادة النظام والأخلاق إلى مجتمعات ما بعد الحداثة خاصة بعد انهيار كل اليقينيات التى بنيت عليها.

فى الغرب فرضت إعادة «الهيكلة الاقتصادية»، و«أزمة الطاقة»، و«اتساع البطالة» و«التلوث» و«سباق التسلح»، فرضت كل هذه الأزمات والمشاكل بعض التساؤلات حول مسيرة هذه المجتمعات، واهتز اليقين الذى كان مفروغا منه فى المجتمع الصناعى، فى الوقت الذى جلبت فيه ثورة المعلومات وشبكات التلفاز الدولية مستويات من القيم الأخلاقية لم تكن منتشرة بهذا القدر من قبل، وتهددت سلامة العائلة ووحدتها، وعلاقتها بالآخرين، وأصبح العديد من الأفراد عديمى القدرة على التأثير فى مسار هذا التغيير الكاسح.

وفى أوروبا الشرقية وبعد سقوط حائط برلين وانحسار الشيوعية وظهور مساوىء تطبيقاتها الإنسانية، حررت عقول الملايين من الأفكار القطعية الماركسية، كما حرر سقوط وتفكك الاتحاد السوفييتى العقيدة الكاثوليكية فى بولندا، والإسلام فى الجمهوريات الإسلامية، ففرض أول رئيس وزراء كاثوليكى فى بولندا سنة ١٩٨٩ ـ بولندا كانت أحد أهداف البابا بولس الثانى فى دعوته لربط الكاثوليكية بالممارسة السياسية، والتنصير الثانى لأوروبا ـ بعض رجال الكنيسة، وجدوا فى هذه المظاهر الجديدة دليلا على «نهاية العصر الحديث» الذى بدأ منذ عصر التنوير فى القرن الثامن عشر، والذى كان من

نتائج فلسفاته المختلفة فصل الدين عن الدولة.

أحد الأسباب التى جعلت من الحركة الدينية فى أوروبا وفى الولايات المتحدة أقل تأثيرا فى المجتمع، هو ممارسة الديمقراطية والتى تتيح مجالا للنشاط السياسى الذى يعطى فرصة أكبر للتيارات المختلفة، ويكون للتيار الدينى موقف تنافسى وليس قطعيا حول حلول للمشكلات الاجتماعية والسياسية السائدة فى المجتمع.

التنصير الثانى لأوروبا فى نظر دعاته هو تقديم «أخلاق كاثوليكية» لعالم ضائع بلا هدف، والأخلاقيات الوحيدة التى لها مستقبل هى الأخلاقيات الدينية.

عودة المسيحية إلى أوروبا هى ردة فعل على التشاؤم المنتشر حول مستقبل العالم، والخوف من أن التقدم العلمى والتقنى سوف يبعد سيطرة الإنسان على مقدراته وهو من جانب آخر رفض عبودية الإنسان للإنسان، ووضع مخلوق فى مرتبة الخالق.

الإنسان هو عبد الله فقط، والمسيحية الجديدة أو العودة إلى الدين تدعو إلى أن كل الرجال والنساء اليوم مهددون بالعبودية، العبودية للمادة وآليات السوق والعرض والطلب، ولا توجد آلية لإنقاذهم إلا العودة إلى تعاليم الدين، ويعتقد معتنقوا هذا التيار أن الصراع مع «عالم علمانى» لابد قائم

ولا سبيل إلى الوفاق بين الفكرتين، كما أعتقد المتفائلون من أعضاء المجمع المسكونى فى الستينيات.

إنهم ينتقدون سيادة العقل على الدين، ويستخدمون ـ يبدو ذلك تناقضا ـ توجهات علمية حديثة فى العلوم الاجتماعية وفى الفلسفة الوضعية بما فيها التحليل النفسى لأفكار البنيوية وأفكار «مارتن هايدجر» الوجودية، فى التدليل على صحة نظريتهم هذه.

هذه التوجهات العلمية التى تؤكد حاجة الإنسان للدعم الروحى والإيمانى، لعبت دورا ثانويا ولكن مؤثرا فى دعم التوجه الرئيسى. اللاهوتية أصبحت جزءا من حركة عدم رضا على الحداثة وما جلبته على الإنسان ومفاصلة مع الأفكار العلمانية التى هى «تكبّر» إنسانى يدعو الإنسان لعبادة الإنسان.

إنقاذ أمريكا

فى العالم الجديد أصبحت العودة إلى المسيحية الطريق لإنقاذ أمريكا، فى سبتمبر ١٩٨٩ ضرب إعصار عاصف شرق الولايات المتحدة، ودمر جزيرة «الكاديلوب» فى البحر الكاريبى، ثم أفرغ شحنته الأخيرة على مدينة شارلوت ـ شمال ولاية كارولينا الأمريكية ـ يومها كان يحاكم فى إحدى محاكم شارلوت داعية أمريكى بروتستانتى وزوجته «جم بيكر»

و«تما بيكر» بتهمة التلاعب وتبديد أموال تبرع بها الأتباع للداعية المؤمن، يومها اضطرت المحكمة إلى أن توقف المحاكمة بسبب الإعصار، وفسرت مجاميع كبيرة من أتباع ذاك الداعية أن هذا الإعصار هو غضب من الرب، حيث إن الداعية البروتستانتى/ التليفزيونى قد أقنع بشخصيته الطاغية وبطريقته فى الدعوة عشرات آلاف من المؤمنين بدعوته، قادهم للتبرع بملايين الدولارات، الإعصار على كل حال لم يمنع المحكمة بعد ذلك من إدانة الداعية وزوجته وخليلته أيضا، بتهمة تبديد ملايين الدولارات واستخدامها فى طرق وأبواب لم تكن قد تبرعت بها الناس من أجلها.

الدعوة المتلفزة أو «التيلى افنجلست» أو أقربها إلى العربية «التليتبشير» ظاهرة أمريكية تنادى بالتخلص من الشرور والآثام، وفى بعض الأوقات تدعى شفاء أنواع من المرض، و«المعالجة الروحية» وفى بعض الأوقات يتم كل ذلك أمام عشرات المشاهدين المباشرين وملايين من مشاهدى التليفزيون.

«التبشير من خلال التليفزيون» واكب حاجة متنامية لدى المجتمع الأمريكى، كما أنه قام بنوع من سد الحاجة إلى «خبرة دينية» لدى مجتمع مادى، وقام بسد هذه الثغرة عشرات الدعاة التليفزيونيين، منهم من اتبع هواه فأثرى، فوقع

فى شباك القانون، والعديد منهم مازال مستمرا فى دعوته.
ولكن الظاهرة كانت ولاتزال موجودة، تمتلىء بها شبكات الهواء المذاع والمرئى فى أمريكا. وأصبحت قياسات الرأى العام تشير فى السبعينيات والثمانينيات إلى نسب متزايدة ممن يعتقدون أنهم «مؤمنون» بجانب من يرون أنفسهم أنهم بروتستانت مستنيرون أو ليبراليون أو حتى ملحدون، وتحولت الظاهرة «الاتجاه إلى المسيحية» من ظاهرة فردية إلى جماعية عن طريق ظهور «الأغلبية الأخلاقية» فى نهاية عقد السبعينيات والتى تؤمن بقضايا اجتماعية، منها عدم إباحة الإجهاض وضرورة إقامة الصلوات فى المدارس.

هذه الظواهر ومثيلاتها شهدت توسعا فى الثمانينيات وعرفت فى أمريكا بـ «الأصولية» وهو مفهوم أمريكى ظهر منذ عشرينيات القرن، والأصولية الجديدة تفترق عن الأصولية القديمة حيث إن الأخيرة اهتمت بالفرد والحياة الخاصة فى حين أن «الأصولية الجديدة» اهتمت بالمجتمع، ولم تقتصر الأصولية الجديدة على سكان الأرياف وغير المتعلمين والولايات الجنوبية الأفقر فى الجنوب الأمريكى أو فيما كان يسمى «حزام الكتاب المقدس»، بل انتشرت فى المدن الشمالية الصناعية الحضرية، وأقبلت عليها جماهير واسعة إلى درجة أن مجلتين أسبوعيتين هما التايم ونيوزويك أشارتا إلى عام

١٩٧٦ «العام الذى انتخب فيه رئيس لأمريكا معمدانى متشبع بالقيم الدينية هو جيمى كارتر»، أن ذلك العام هو عام «الكتاب المقدس»، لقد كانت الظاهرة موجودة ولكن انتشارها وارتباطها بالسياسة منذ ذلك التاريخ لفت نظر الصحافة والدراسين إليها، فقد جاء انتخاب جيمى كارتر على خلفية فضيحة «ووتر جيت»، والضعف الأخلاقى الذى اعترى الممارسات السياسية الأمريكية.

كارتر كان مرشع الحزب الديمقراطى وهو معروف بليبراليته كحزب إلا أن كارتر كشخص كان «متدينا» من الجنوب. فى انتخابات ١٩٨٠ و١٩٨٤ التى انتخب فيهما رونالد ريجان وأعيد انتخابه ظهر دعم «الأغلبية الأخلاقية» للرئيس الجديد بشكل واضح وجلى. وأصبحت هذه المجموعات ليست مجموعات ضاغطة دينية فقط وإنما سياسية أيضا وتكونت بهدف التأثير على القرار السياسى. ثقافة دينية سياسية بدأت تظهر فى الولايات المتحدة تحث الناخبين على أن يوصلوا إلى البيت الأبيض قيادة تقود أمريكا بشكل عادل وبتعاليم المسيحية إلى الأفضل، وقد فرضت هذه التيارات اهتماماتها على جدول انتخابات من «المؤمنين» قد أدلوا بأصواتهم فى تلك الانتخابات عنها فى أية انتخابات سابقة، ولقد تجاوزت هذه التيارات الجديدة النظرية البروتستانتية

القديمة التى تقول إن المسيح سوف يعود إلى الأرض ليملأها عدلا بعد أن امتلأت ظلما، هذه الفكرة نظر إليها الدعاة الجدد على أنها فكرة متشائمة وآمنوا بقدرة الإنسان على العمل للأفضل وللرب فى الحياة الدنيا شعارهم هو God and good.

الأصول الإسلامية ليست صورية

يفرد الكاتب مكانا رحبا فى كتابه لدراسة الحركات الإسلامية الحديثة كونها أكثر تعبيرا ووضوحا، إلا أنه يعتقد أن «التغيير من أعلى» لم يتحقق عن طريق حركة دينية إلا فى مجتمع إسلامى هو إيران. يرصد الكاتب منتصف الستينيات لبداية الحركة الإسلامية السياسية المعاصرة، بالطبع دون انقطاعها فكريا وتنظيميا عن أصولها التى بدأت فى زمان سابق كحركة الإخوان المسلمين فى مصر ١٩٢٧.

وكى نتتبع جذور الأصولية الإسلامية المعاصرة لابد من العودة إلى الستينيات عندما حصلت العديد من الدول العربية الإسلامية على استقلالها وكانت حركات التحرير قد جنبت الحكام الجدد أى تعقيدات عن طريق تغطية أو التقليل من مخاطر الصراع الاجتماعى بالصراع مع المستعمر، فقد كانت النخبة الحاكمة تدعو إلى الحداثة والتغيير استنادا إلى قاعدة الشرعية الثورية بسبب دورهم فى الصراع ضد المحتل. ولكن

المشاكل بدأت عندما فشلت هذه النخبة فى إدارة الاقتصاد والقفز خارج حلقة الفقر، بل وورطت نفسها فى صناعات ثقيلة غير ناجحة، امتدت من ضفاف النيل إلى عمق الصحراء، فى الشمال الإفريقى ولقد مهد فشل النخبة العسكرية والسياسية ـ على الرغم من كل التجارب التى قامت بها ـ لظهور الحركات الإسلامية السياسية.

ولعل مصر والجزائر، وهما من أكثر الدول العربية معاناة لمشاكل التطرف، تعطينا صورة لبعض أسباب انتشار هذه الظاهرة، ففى الجزائر عندما كانت الفرنسية هى لغة التعليم الجامعى كان الطابع اليسارى غالبا على الاتجاهات الفكرية، وجاء تعريب الجامعات كى يخرج أعدادا كبيرة من الطلاب الذين تواجههم مشكلات الوظائف التى لم تتخلص بعد من الآثار الفرنسية، وما بين «تعريب» التعليم، و«فرنسة» الوظائف تراكمت أعداد كبيرة من العاطلين كانت وقودا مناسبا لحركات التطرف.. وفى مصر ساعدت بعض الجهات الحاكمة فى صعود الجماعات الدينية المتطرفة حتى تقف فى وجه اليسار الجديد الذى كانت موجاته تغمر الجامعات المصرية فى السبعينيات، وكانت النتيجة ـ بعد أن ضرب اليسار ـ أن انفردت هذه الجماعات المتطرفة بالساحة وبدأت تمارس دورها الإرهابى.

إلا أن عقد السبعينيات جاء بالحركة الإسلامية إلى وسط المسرح السياسي من ماليزيا حتى السنغال، ومن ضواحي المدن الأوروبية ذات التجمعات الإسلامية حتى الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي السابق، يلاحظ الكاتب الظن الخاطيء لبعض الكتاب الغربيين أن العودة إلى الإسلام هي ظاهرة صورية وشكلية، فهو يعتقد أنها تمثل - كمثيلتها في الغرب - الطلاق في النظرة والدافع مع العلمانية الحديثة والتي تحملها هذه الحركات كل أسباب تخلف المجتمعات الإسلامية وفي العالم والتي من مظاهرها عدم المساواة الاجتماعية والاضطهاد والبطالة المزمنة والفساد الواسع.

عدد كبير من أعضاء هذه الحركات مؤهلون تأهيلا عاليا خاصة في العلوم التطبيقية والبحثية، وهم يهدفون إلى فصل التقنية المتطورة الحديثة والتي يرغبون في فهمها والسيطرة عليها وتسخيرها، يفصلونها عن قيم العلمانية التي يستبدلون بها قيما نابعة من تعاليم الدين، فيما فرضها الله.

في العالم الثالث ككل في جل سنوات القرن العشرين، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، نظرت قطاعات من أبناء هذه البلدان المنبهرة بالحداثة إلى الدين على أنه معوق للتقدم، أي معوق للتحديث من أجل التصنيع والعمل واستنفار المجتمع خلف قياداته الجديدة. إلا أن هذه الفكرة لم تكن

سائدة فى جميع الأحيان والأماكن، فقد كان هناك احتياج للدين لتحفيز الرأى العام الشعبى ضد المستعمر، واستخدام الشعور الدينى ولو لفظيا كسلاح بيد «التقدميين» المطالبين بالاستقلال، فهو يوحد المواطنين، ويبرز الهوية الوطنية، إلا أن هذا الاستخدام ظل فى إطاره المنفعى لدى الوطنيين والقومين، وما أن يصل هؤلاء إلى سدة الحكم حتى يزجوا بالدعاة فى السجون. والحركة السياسية/ الدينية التى واكبت القوى الجديدة فى طريق الاستقلال سرعان ما تضطهد أو تحطم، عبد الناصر مثال واضح فقد استفاد من حركة الإخوان المسلمين فى مصر، وأجل حتى حلهم كحزب سياسى، ولكنه سرعان ما أطاح بهم، ولم تقم لهم قائمة فكريا إلا بعد ١٩٦٧ سنة هزيمة النظام الناصرى بما يمثله، ثم تنظيما بعد وفاته سنة ١٩٧٠.

التغييرات التى أصابت المجتمعات الحديثة فى الربع الأخير من القرن العشرين، نوقشت نتائجها بتوسع وإسهاب، ولكن أسبابها ليست بالضرورة مدركة كليا بل تحتاج هذه الأسباب إلى دراسة وإعمال فكر.

إذا أردنا أن نأخذ هذه الحركات كما فى ظاهرها على أنها حركات «منفعية» أو حركات «أخلاقية» ففى كلتا الحالتين علينا أن نأخذ بجدية كل ما تدعو إليه هذه الحركات،

ونتفحص الخيارات المجتمعية التى تريد بناءها، إن «التشوش» الذى تشعر به هذه الحركات ليس مقصورا عليها فى عالم معالمه التى نعرفها تكاد تختفى ليظهر عالم آخر لم نتبين معالمه بعد.

افتراضات الكاتب، أن ما تقوله هذه الحركات وما تفعله له معنى وهى لا تنطلق من التخلص ومحاربة العقلانية والذرائعية والدنيوية، وهى ليست مكونة من قوى اجتماعية ضعيفة بل إن وجودها وانتشارها فى حد ذاته شاهد غير مشكوك فيه على وجود انحراف عميق فى المجتمع، لا يمكن تفسيره بالصورة التى تعودناها تقليديا حسب التقسيمات المعروفة والموضوعية مسبقا.

أخذ هذه الحركات بالجدية كما يقول الكاتب لا يعنى أن نقف مدافعين عن وجهة نظرهم أو تجعلنا نسارع لإدانتهم، بعض من يؤمن بهذه الحركات هو كشخص تفتحت عيناه على مشكلات يواجهها، وهو ليس بالضرورة أن يكون عضوا فى حزب إرهابى، العالم اليوم يترك العصر الصناعى الثانى خلفه، ويدخل عصرا جديدا تختلط فيه العلاقات الاجتماعية بالعلاقات الدولية وتتعقد هذه العلاقات إلى درجة يصعب فيها تصنيفها أو فصلها، وربما ظهور الحركات الدينية/ السياسية تجعل من التصنيف أكثر قربا فى الفهم - إنهم أبناء شرعيون

لزماننا ـ ربما هم أبناء لعصر الكمبيوتر، والبطالة والانفجار السكانى وزيادة الأمية وسكنى المدن، ومدن الصفيح، والأحياء العشوائية. وشكواهم فى السنوات الأخيرة من القرن العشرين أنهم يبحثون عن آبائهم وعن يقينهم.

مثل الحركات العمالية بالأمس الحركات الدينية السياسية اليوم، لها قدرة أحادية لإظهار أمراض المجتمع، والتى هى عندهم لها تشخيص محدد، هذا التشخيص يظهر فكرة العلاج التى علينا أن نختبرها ونتحقق منها.

دون أن نفعل ذلك فإننا نسير مع القائلين ـ دون إثبات أو نفى ـ إن القرن القادم سيكون إما قرنا دينيا أو عكس ذلك!.

، ، ،

وبعد...

هذا الكتاب مشبع بالأفكار الجديدة، بعضها ناضج، وبعضها يحتاج إلى مناقشة وتمحيص، مثقل بالدروس والعبر بقدر ما فيه من المعلومات والحقائق، لقد درس المجتمع من منظور جديد وفى صيرورة متحولة، مرتكزة على الدعوة إلى الله فى ديانات سماوية ثلاث فيها من الاختلافات وفيما بينها من التعصب والتسامح ما يحتاج إلى توافق، ولكنه تعبير عن قناعة بحث عنها العوام والمثقفون، قناعة البحث عن ثوابت ويقين جديد فى عالم متغير وعلى مشارف قرن جديد.

فهرس

رقم الإيداع:

عصر التطرف ٩٧/٤١٠٢ : (977 - 286 - 022 - 8)

الديموقراطية

ولد الإنسان حراً ومن حقه أن يمارس حريته كاملة ولكن دون المساس بحريّة الآخرين. ممارسة الحرية حق مقدس وفي أوسع نطاق. ولكن حدودها تقف عند حدود حرية الغير. فأين تقف هذه الحدود؟ وكيف يلتزم بها الإنسان ويتوقف عندها؟.. هنا يأتي دور الديموقراطية الصحيحة التي ترسم الحدود وتضع القيود. الديموقراطية التي تصنع المؤسسات المختلفة التي تحكم العلاقات بين الناس وتضع القوانين العادلة للتطبيق موضحة الحقوق والواجبات بين الناس من جهة.. وبينهم وبين الحاكم من جهة ثانية.. وبين دولة وأخرى من جهة ثالثة.

معظم الدول تتغنّى بالنظم الديموقراطية.. ولكن التطبيق الصحيح للديموقراطية يبقى غير قائم بدرجات متفاوتة بين دولة وأخرى.. ولكن جميع الدول - دون إستثناء - لا تطبق الديموقراطية الصحيحة تطبيقاً كاملاً.. بل هنالك حكام يمارسون أقسى أنواع الديكتاتورية والتعسف باسم الديموقراطية - ظلماً - وتحت شعارها المزيف.

فلنشارك المؤلف أفكاره القيمة في هذا الكتاب الذي يضع المؤلف فيه النقاط فوق الحروف. إنه كتاب يستحق القراءة والإهتمام.

د. جعفر دياب

